الصحوة الإسلامية

صحوة من أجل الصحوة

أ. د. عبد الكريم بكار



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الصحوة الإسلامية
صحوة من أجل الصحوة

الطبعة الأولى
لدار السلام
١٤٣٢هـ / ٢٠١١م

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

بكار ، عبد الكريم .
الصحوة الإسلامية صحوة من أجل الصحوة / تأليف عبد الكريم بكار . - ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ، ٢٠١١م .
٢٢٤ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٤ ٢٩ ٥٠٥٩ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الثقافة الإسلامية .
أ - العنوان .
٢١٤

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عمر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية
الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت - الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر
هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين
هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)
بريديًا : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

الصحوة الإسلامية

صحوة من أجل الصحوة

تأليف

أ.د. عبد الكريم بكار

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فِهْرِسُ المَوْضُوعَاتِ



* * *
* *
*

المُقَدِّمَة

الحمد للَّه رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام النبيين المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، **وبعد:**

فإن أمة الإسلام تتفيَّأ اليوم ظلال صحوة مباركة، عمَّت العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه؛ حيث تحسنت معرفة كثير من المسلمين بأحكام الشريعة الغرَّاء، وصار كثيرون منهم يحاولون الوقوف عند حدود اللَّه تعالى، كما أن عددًا كبيرًا من المسلمين يشعرون بأن اللَّه تعالى امتنَّ عليهم بالهداية للإسلام؛ ولهذا فإنهم يشعرون بنوع من الاصطفاء والتميز. ولا يخفى أنه مرَّ على أمة الإسلام قرون تزيد على الستة أو السبعة، كان الناس فيها غارقين في الجهل والفرقة وغارقين في اليأس والقنوط من صلاح الأحوال، وإن من سنن اللَّه تعالى في الخلق أن الناس حين تضعف صلتهم بالعلم وبرسالات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فإن الشيء الذي يسيطر عليهم، ويوجه حياتهم لا يكون سوى الخرافات والأوهام والتقاليد، إلى جانب الرؤى الفجة المصحوبة بالكثير من الحيرة والارتباك، وهذا هو الذي كان سائدًا لدينا - مع الأسف الشديد - على مدار قرون خلت، إلا أن اللَّه اللطيف الخبير قد أذن لهذه الأمة أن تنتفض بين فينة وأخرى في وجه قصورها الذاتي وأخطائها الكبرى، وفي وجه الظروف الصعبة التي تحيط بها، وقد عبَّر عن ذلك نبينا ﷺ حين قال فيما صحَّ عنه: « **إن اللَّه يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة من يجدِّد لها دينها** »[١].

إن مشيئة اللَّه تعالى قد مضت في أن يكون معظم نصوص الكتاب والسنة ظنيًّا في دلالاته على المراد منه، كما أن ترتيب الأولويات وتحقيق المصالح ودرء المفاسد وكون التكليف منوطًا بالوسع والطاقة... إن هذا كله جعل إمكانات التجديد قائمة على نحو دائم كما جعل إمكانات الوقوع في الأخطاء مستمرة أيضًا، مما يعني في نهاية المطاف استمرار وتتابع الصحوات الإسلامية جيلًا بعد جيل وقرنًا بعد قرن.

(١) أخرجه أبو داود.

إن الذي دعاني إلى كتابة هذا الكتاب العديد من الأمور، **لعل من أهمها:**

١ - طرح رؤى وأفكار ومفاهيم جديدة تساعد الصحوة على أن تكون أكثر رسوخًا وتأثيرًا في حياة العالم أجمع.

٢ - مراجعة بعض الأفكار والاجتهادات والسلوكيات التي نعتقد أنها تحتاج إلى تطوير بما يتناسب مع رؤانا الجديدة ومع الظروف والأوضاع العالمية الماثلة اليوم.

٣ - تسليط الضوء على الأخطاء الفادحة التي وقع فيها بعض الصحويين بقطع النظر عن نواياهم ومقاصدهم.

٤ - محاورة خصوم الصحوة والمختلفين معها في بعض مقولاتهم، ومحاولة تكوين أرضية مشتركة يقف عليها الجميع.

إن هذا العمل ينطوي - ولا شك - على الكثير من الحساسية بسبب أنه يشتمل على بعض النقد لمناهج ومواقف بعض الأحزاب والجماعات والاتجاهات... ولكن يبدو أنه ليس أمامي أيُّ خيار آخر، فالصحوة الآن في الواجهة، وأبناؤها كثيرون ومتنوعون تنوعًا كبيرًا، وإذا رضي بعضهم عن شيء مما أقوله، فلن يرضى آخرون،لكن القيام للَّه تعالى بالحق والرغبة في محاولة النهوض بمسؤوليات البلاغ المبين، بالإضافة إلى الرغبة في الاستدراك على الذات، إن كل هذه الأمور وأمورًا أخرى تجعلني أمضي في هذا العمل مستعينًا باللَّه ﷻ متوكلًا عليه دون رهبة مما قد أتسبب به من إزعاج لهذه الجهة أو تلك

واللَّه تعالى أسأل أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه، وأن ينفع إخواني الدعاة الساعين في طريق الإصلاح؛ إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

أ.د. عَبْدالكَرِيم بَكَّار



الصحوة:
المصطلح وأسباب النشأة

مصطلح (الصحوة)مصطلح جديد نسبيًّا؛ إذ لم نعهد إطلاق هذا الاسم على أي حالة من حالات إقبال الإسلام وعودة المسلمين إلى دينهم في أي مرحلة من مراحل التاريخ في القرون السالفة، وقد ذهب بعض الكتَّاب إلى أن إطلاق هذا الاسم على الحراك الإسلامي في العصر الحديث لم يكن موفَّقًا؛ إذ إن معنى (صحا) أفاق من سكره، ولم تكن الأمة في حالة سُكْر حتى يقال: إنها الآن في حالة صحو، أو إنها تعيش صحوة... وهذا في الحقيقة واحد فقط من استخدام الجذر (صحا) وإلا فإن العرب كانت تستخدم كلمة (الصحو) للدلالة على ذهاب السُّكر، وعلى ترك الصِّبا والباطل، وكانوا يقولون: السُّكْر ثلاثة: سكر الشباب وسكر المال والسلطان. وكانت العرب تطلق كلمة (الصحو)كذلك على انقشاع الغيم عن السماء، وعلى هذا فإن إطلاق كلمة (الصحوة) للدلالة على ما أشرنا إليه من عودة الناس إلى الإسلام لم يكن خطأً، فقد انقشع كثير من الجهل والطيش عن عقول المسلمين، وتبدد الكثير من غيوم الضلال والغواية، وصارت الأمة - في الجملة - أكثر رشدًا في أمور كثيرة.

أما المراد من كلمة (الصحوة) على الصعيد الاصطلاحي، فإن هناك محاولات كثيرة لتحديد معنى هذا المصطلح، لكن يمكن أن نقاربه بتعريف إجرائي من مثل قولنا: إن الصحوة هي ذلك الإقبال على فهم الإسلام والعمل به والاحتكام إليه... والذي بدأ ينتشر بقوة في أصقاع العالم الإسلامي منذ السبعينيات من القرن المنصرم. هذا الإقبال على الإسلام يتجسد في الكثير من المظاهر الإيجابية، والتي منها:

١ - الإقبال على المساجد لأداء الصلاة وطلب العلم.

٢ - تضاعف أعداد الجماعات الإسلامية على اختلاف اتجاهاتها.

٣ - تحسن وعي الأمة بنفسها وبإمكاناتها وبمحيطها والعالم من حولها.

٤ - وعيٌ متنامٍ بالغاية الحقيقية، من الحياة، ورشدٌ أكبر في الفصل بين الوسائل والغايات.

٥ - تراجع درجة الافتتان بالغرب، وتصاعد في تقدير الذات والثقة بصلاحية تعاليم الإسلام لتوجيه الحياة المعاصرة.

٦ - إقبال النساء والفتيات على ارتداء الحجاب.

٧ - ظهور مصارف وبنوك إسلامية تحاول إيجاد بدائل للعمليات الربوية.

٨ - إقبال الفتية والشباب على حفظ القرآن الكريم وتجويده وجمع قراءاته.

٩ - تأسيس عدد كبير من الجمعيات الخيرية والأطر التطوعية بقيادة المنسوبين إلى الصحوة.

١٠ - الإقبال الشديد على اقتناء الكتاب الإسلامي، وزيادة أعداد المثقفين الذين يكتبون بروح وخلفية إسلامية.

١١ - انتشار الوعي الإسلامي والسلوك الملتزم في الجامعات المختلفة على نحوٍ واضحٍ.

١٢ - انطلاق عدد جيد من القنوات الفضائية الإسلامية والمحافظة، وتأسيس أعداد كبيرة من مواقع الإنترنت ذات الصبغة الإسلامية.

١٣ - ظهور عدد جيد من الدعاة المعروفين على مستوى العالم الإسلامي، وتأثر أعداد كبيرة من الناس بهم.

أسباب ولادة الصحوة:

نحن ننظر إلى وجود الصحوة الإسلامية على أنه تجسيد لخلود رسالة الإسلام، فاللَّه - سبحانه - جعل الإسلام خاتم الأديان، وجعل رسالة نبينا ﷺ الوريث لكل الرسالات السماوية السابقة؛ ولهذا فإن لها دورًا مستمرًّا في إرشاد البشرية إلى أن يرث اللَّه الأرض ومن عليها، وإن ذلك يتطلب بقاءها حية في النفوس والعقول وفاعلة في الواقع والسلوك؛ ولهذا فإن المستغرَب ليس انبعاث الصحوة الإسلامية المباركة، وإنما المستغرب عدم انبعاثها، لكن مع هذا فإن كثيرًا من الباحثين حاولوا استجلاء ما يمكن أن يكون أسبابًا مباشرة لبزوغ الصحوة الإسلامية، **ولعلي أحاول استعراض أهم ما قيل في ذلك عبر المفردات التالية:**

١ - لسنا نبالغ حين نقول: إن كثيرًا من علماء الأمة ومفكريها كانوا منذ ما يقارب مئتي عام يشعرون بأن المسلمين يعيشون في أزمة خانقة، وحين جرى احتكاك قوي بين

المسلمين وبين الأوربيين من خلال البعثات الدراسية ومن خلال التجارة والاستعمار.. أدركت أعداد كبيرة من الناس أن ما نعاني منه هو أكبر من أزمة، إنه تخلف حضاري مخيف، وإن من الطبيعي في وضعية كهذه أن يجري نقاش بين التيارات الفكرية الموجودة على الساحة العربية والإسلامية، وهذا النقاش وصل فيما بعدُ إلى ما يشبه التنافس بل الصراع، ومن المألوف جدًّا أن يتمخض الصراع - أي صراع - عن هزائم وانتصارات، وقد كانت الصحوة الإسلامية تعبيرًا عن انحياز أعداد كبيرة من المسلمين إلى الإسلام والرؤية الإسلامية في التنمية والازدهار، فالصحوة الإسلامية على هذا هي وليدة صراع بين تيارات فكرية متباينة، وتلك التيارات منها ما هو ذو نزعة قومية ونزعة وطنية، ومنها ما له نزعة علمانية أو ليبرالية أو اشتراكية...

٢ - من الواضح أن حرب عام (١٩٦٧م) والنتائج التي تمخَّضت عنها قد أذكت روح الصحوة الإسلامية؛ حيث إن ما حدث شكَّل صدمة هائلة للعرب أولًا، ولكثير من المسلمين ثانيًا بسبب ضياع أراضٍ عربية عزيزة منها القدس ودرتها المسجد الأقصى، ومن الطبيعي أن تذكي الهزيمة روح العودة إلى الإسلام؛ وذلك لسببين جوهريين:

الأول: هو أن الدولة المنتصرة (إسرائيل) كانت تقاتل على أساس ديني، وكان مما يشاع وقتئذ أن مع كل جندي إسرائيلي نسخة من التوراة، مما يلقي في حسِّ المواطن العربي أن الخصم ما دام يقاتل على أساس الدين فإن النصر عليه لن يتحقق إلا إذا قاتلناه ونحن ننطلق من الأساس نفسه، وهذا صحيح.

الثاني: أن التيار الإسلامي في الخمسينيات والستينيات من القرن المنصرم لم يكن هو التيار السائد أو التيار الأقوى في العالم العربي، كما أن مقاليد الحكم لم تكن في يده في معظم البلدان العربية؛ ولهذا فإن كثيرًا من الناس قد توجهوا إلى الإسلام بوصفه الملاذ الأخير، لعلهم يجدون لديه ولدى دعاته أسباب النصر التي فقدوها عند الآخرين.

وأنا أعتقد أن هذا السبب وجيه لكنه لا يكفي بمفرده لتفسير ظاهرة عالمية ضخمة كالصحوة الإسلامية، فبلد مثل إندونيسيا لم يكن يتفاعل مع ما يجري في البلاد العربية في تلك الحقبة من الزمان، كما أن بلدًا مثل تركيا كان في ذلك الوقت متحالفًا مع إسرائيل، على مستوى الحكومة، وكان الشعب بعيدًا عن الاهتمام بما يجري لدى جيرانه وإخوانه، ومع هذا فإن بواكير الصحوة في البلدين لم تتأخر عن بواكيرها في العالم العربي

٣ - هناك من يقول: إن الصحوة الإسلامية نشأت بوصفها رد فعل على إخفاق خطط التنمية وانتشار الفساد وضعف كفاءة ونزاهة القضاء وتواضع المخرجات التعليمية... وهذا في نظري ليس بعيدًا عن الصواب، ولا سيما إذا تذكرنا أن الصحوة في انطلاقتها الأولى كانت تستلهم بقوة النجاحات التي حققتها الحضارة الإسلامية على أيدي قياداتها السياسية والعلمية والعسكرية الفذة، وقد كان ذلك أوضح ما يكون في كتابات الأستاذ العقاد عن عباقرة الأمة. والحقيقة أن الكتَّاب الإسلاميين ومن هم قريبون منهم عمدوا - في بدايات الصحوة وقبلها بقليل - إلى استخراج أفضل ما في تاريخنا من مواقف وإنجازات، ونشره على أنه ليس أكثر من عيِّنة صغيرة من وضعية تاريخية عامة، وكان الهدف غير المعلَن هو إيصال رسالة قوية إلى مسلمي عصرنا، تقول: إننا كما حققنا بالإسلام إنجازات ضخمة في الماضي، فإننا قادرون على تكرار التجربة في الحاضر، وهذا النوع من الخطاب مؤثر - ولا شك - في إلهاب العواطف وحسم الخيارات

٤ - لدينا سبب ربما كان أقوى من كل الأسباب التي ذكرناها، وهو انتشار العلم وتوافر المدارس والجامعات والمعاهد؛ حيث إن الإسلام بنية حضارية راقية، وإن التفاعل مع أطره ورمزياته وإشاراته... يحتاج إلى أن يكون لدى المنتسبين إليه قدر حسن من العلم وقدر جيد من الوعي. وعلى مدار التاريخ كان الإقبال على التمسك بتعاليم الدين القويم مقترنًا بارتقاء وعي الناس ومعارفهم، ورحم اللَّه ابن القيِّم إذ يقول: (الجهل شجرة تنبت فيها كل الشرور)، وإذ يقول: (ما من مديح للعبد في القرآن الكريم إلا وهو بسبب العلم، وما من ذم للعبد في القرآن الكريم، إلا وهو بسبب الجهل)[١]. إن الصحوة الإسلامية نشأت في المدن، ثم انتقلت إلى القرى، وقد كانت محاضنها الأولى في الجامعات - وهذا يبرهن على ما نقرره.

هناك من يفسر ولادة الصحوة بتفسيرات أراها بعيدة عن الواقع، وأحسن ما يمكن أن يقال فيها: إنها ضعيفة التأثير، ومن تلك التفسيرات:

أ- الحكومات هي التي ساعدت على انتشار التدين؛ حيث إنها مدت يدها للإسلاميين من أجل مواجهة الحركات اليسارية، كما فعل (السادات) حين أطلق يد الحركة الطلابية

(١) لو تأملنا في آيات الذكر الحكيم - لوجدنا أن الإنسان يُذمُّ لجهله، ويذم كذلك لاتباعه هواه.

في مصر من أجل مواجهة الشيوعيين واليساريين، وكما فعل (بورقيبة) في تونس من أجل مواجهة التيار الشيوعي هناك.

هذا التفسير في اعتقادي بعيد عن الواقع؛ حيث إن السادات وغيره لم يوجدوا الصحوة، لكنهم قد يكونون لجأوا إلى زج الإسلاميين في معادلة مقاومة الخصوم، أضف إلى هذا أن الصحوة ولدت في معظم أنحاء العالم الإسلامي من غير دعم خاص من أي دولة.

ب - ذهب عدد من الدارسين العرب والغربيين إلى أن الصحوة الإسلامية تستغل بؤس الجماهير والفئات التي تعاني منه، حين تستهويهم، وتستقطبهم من خلال تمنيتهم بجنة في الآخرة عوضًا عن رفع الظلم عنهم وتخليصهم من الشقاء في الدنيا وهذا التفسير أيضًا غير صحيح؛ فالصحوة الإسلامية في دول الخليج قوية، والحالة المادية لشعوب هذه الدول أفضل من حالة معظم الشعوب الإسلامية في أنحاء الأرض، ولو قيل: إن البائسين يقبلون على التدين والالتزام؛ لأنه يؤمن لهم ثراءً روحيًّا يعوِّضهم عن رفاهية الأجسام، ويقويهم على مواجهة الصعاب - لكان لهذا القول وجاهة ظاهرة

ج - بعض الباحثين يرون أن للثورة الإيرانية التي قادها الخميني تأثيرًا ظاهرًا في نشوء الصحوة لدى السُّنة، ومع أن هناك تباينًا عقديًّا وفقهيًّا غير قليل بين الثورة والجمهور السني، إلا أن علينا أن لا ننسى أن الثورة الإيرانية قدَّمت نفسها في البداية على أنها ثورة من أجل كل المسلمين؛ ولهذا فإنها قدمت حافزًا قويًّا للشباب المسلم على التغيير والعودة إلى الدين. وفي ظني أن الثورة الإيرانية بما أنها انقلاب على حكومة الشاه، فإنها عززت روح التطرف لدى بعض تيارات الصحوة؛ حيث صار لدينا من يعتقد أن قلب طاولة الحكم في بلده عن طريق استخدام القوة المسلحة أمر ممكن ما دام الإيرانيون قد نجحوا في ذلك، كما أن الثورة الإيرانية جعلت البعض يفكر أنه في حالة تصادمه مع حكومته، فإنه قد يجد في إيران ملاذًا آمنًا، لكن تبين بعد مدة قصيرة أن هذا الظن غير صحيح.

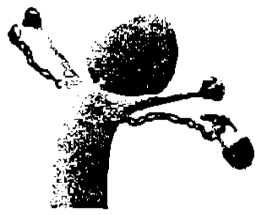
د - يرى بعض الباحثين - مثل محمود أمين العالم - أن الظاهرة الإسلامية هي (أيدلوجيا) ريفية في عالم المدن، فهؤلاء الشباب - يقصد شباب الصحوة - من أصول ريفية فقيرة، ممن نزحوا إلى المدن من أجل العلم أو البحث عن عمل. هذا التفسير عمومًا موجود لدى اليساريين؛ ولهذا فالصحوة هي نتيجة لصراع القرية والمدينة، وفي هذا حطٌّ من شأن ابن الريف، وحط أيضًا من قدر الإسلام، حيث يتضمن هذا التحليل نوعًا من

التعريض بالإسلام وأنه دين للبدو والجهلة والبسطاء، مع أننا نعرف أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - كانوا من أبناء الأمصار، وليس البوادي والقرى الصغيرة

نعم سيكون من الصحيح القول: إن معظم طلاب العلم الشرعي الذين كانوا يفدون إلى الجامعات الإسلامية - الأزهر نموذجًا - هم من أبناء الريف وليس في هذا ما يعيب، لكننا نعرف أن الجامعات المدنية وليست الجامعات الإسلامية هي التي احتضنت الصحوة، وإذا نظرنا إلى جماعة الإخوان المسلمين، في مصر - على سبيل المثال - فسنجد أن كل مرشديها العامين منذ تأسيسها وحتى اليوم ليسوا من خريجي كليات الشريعة.

هـ -الصحوة الإسلامية في نظر بعضهم هي انعكاس لتخلف الثقافة العربية ذات البنية البيانية الخرافية، وهم يذهبون إلى ما هو أكثر من هذا، وهو أن العرب غير قادرين على تمثل الحضارة والحداثة؛ لأنهم لم ينجحوا، ولن ينجحوا في التخلي عن الإسلام، مما يجعل انخراطهم في تيار المدنية الغربية الجارف غير ممكن. هذا الفريق لا يعتبر المد الإسلامي الصحيح صحوةً، بل ردة حضارية، ولا أعتقد أن هناك أي فائدة من مناقشته وتفنيد أقواله؛ لأن بيننا وبينه تناقضًا في الأسس والمفاهيم والرؤية...

* * *
* *
*



الصحوة:
بدايات وأطوار

ما هممت مرة في الحديث عن البداية لأي شيء إلا وجدت نفسي مرتبكًا؛ وهذا لأنه يظهر أنه - على الصعيد الثقافي - ليس هناك بداية، بل هناك دائمًا تداخلات وإرهاصات منظورة وغير منظورة، تجعل وضع السكين على المفصل أمرًا صعبًا، ويبدو الأمر في الحديث عن بدايات الصحوة أكثر تعقيدًا، فنحن لا نتكلم عن حركة في بلد، وإنما نتحدث عن وعي وتفاعل مع مبادئ الإسلام وعن مواجهة لظروف متنوعة وردود أفعال متباينة في أكثر من خمسين بلدًا إسلاميًّا، بالإضافة إلى الأقليات المسلمة المنتشرة في أنحاء الأرض، وإني آمل أَخْذَ كل هذا بعين الاعتبار عند محاولة فهم نشأة الصحوة والتحولات التي طرأت عليها.

لا بد لي في البداية من الإشارة إلى أن بدايات الصحوة كانت عبارة عن إدراك عميق لدى بعض الرواد للوضعية العامة للأمة مقارنة بوضعية الشعوب الغربية، ونتج عن ذلك الإدراك نداءات ومطالبات بضرورة التغيير والعمل من أجل النهضة. وقبل أن أذكر شيئًا محددًا عن البدايات أود أن أشير إلى أن الساعين في الخير والإصلاح والدعوة كانوا موجودين دائمًا في كل مكان في العالم الإسلامي، لكن كان الحديث عن سوء الواقع والشكوى منه هو المسيطر على الخطاب الدعوي والإصلاحي، كما أن ذلك الخطاب كان غارقًا في الأمور التفصيلية والهامشية على مقدار عجزه عن الإمساك بالمشكلات الجوهرية، وفتح آفاق وحقول جديدة للممارسة؛ وذلك لأن أفق التغيير كان غائبًا، ونستطيع أن نقول أيضًا: إن الخطاب الدعوي كان يركِّز على العبادات والأخلاق الفردية بعيدًا عن إصلاح الشأن العام وإيجاد آليات جديدة لمحاصرة العنف والظلم والاستبداد وتحقيق تنمية جديدة..

يرى بعض الباحثين أن الصحوة الإسلامية نشأت في محاضن يمكن أن نسميها (المحاضن النهضوية)؛ حيث إن بدايات الحركة الإصلاحية الحديثة بدأت بالدعوة إلى الاستفادة من علوم الغرب الكونية ومن نظمه السياسية، إلى جانب الدعوة إلى الخلاص من التقليد والعمل على تنمية روح الاجتهاد والتجديد الفقهي، ويرى هؤلاء

الباحثون أن أفكار عدد من أعلام الإصلاح مهَّدت الطريق لبزوغ فجر الصحوة الإسلامية، ويذكرون في هذا السياق الشيخ محمد بن عبد الوهاب، والشيخ حسن العطار، ورفاعة الطهطاوي تلميذ العطار، بالإضافة إلى خير الدين التونسي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومحمد رشيد رضا، والكواكبي، وحسن البنا، وابن باديس، ومالك بن نبي، وغيرهم...

وحين نتأمل في فكر هؤلاء وجهودهم الإصلاحية فإننا سنقدِّر انتفاضتهم الفكرية وتوثبهم الروحي للنهوض والإصلاح، لكن كان في معتقدات بعضهم وطروحاتهم بل سلوكياتهم ما لا ينسجم مع أحكام الشريعة الغرَّاء وأدبياتها، ونحن هنا لا نتناقش فكر أحد، ولا نقصد تزكية أحد أو محاكمته، وإنما نحاول تلمس ما يمكن أن يشكل بداية للصحوة، أو علامة فارقة في مسيرتها المباركة.

ما يشبه البداية:

ذكرت قبل قليل أن العالم الإسلامي لم يخل قطُّ من دعاة مصلحين ومن مجموعات وجماعات تدعو إلى الخير، وتحاول محاصرة الشر؛ ولهذا فإن الذي نحاول استكشافه والتركيز عليه هو تلك الروح التجديدية التي عمَّت العالم الإسلامي دون استثناء يذكر، وفي هذا الإطار يمكنني القول: إن عقد السبعينيات من القرن الميلادي المنصرم هو الذي شهد بواكير الصحوة الإسلامية المعاصرة، وإذا كان هناك من يجادل في هذا، ويقول: إن الصحوة بدأت قبل ذلك بكثير، فإنه لا يستطيع أن ينكر أن عقد السبعينيات يشكِّل قفزة نوعية للصحوة، فكيف كان ذلك العقد؟ وكيف كانت حال الصحوة فيه؟

١ -كانت المجتمعات الإسلامية - بنسب متفاوتة - تشعر بحراك دعوي جديد ونشيط، وكان الدعاة الشباب وأفراد الجماعات الإسلامية يكتشفون أنفسهم ومدى قوة الإسلام في تغيير حياة الناس، وكان كثير من شباب الدعوة يشعرون بالغربة في مجتمعاتهم، وأن لديهم أفكارًا وقيمًا ليست لدى السواد الأعظم من الناس، وهذا ضاعف حماستهم للعطاء وبذل الجهد، وكانت أخبار المهتدين والتائبين الجدد وأخبار الشباب الجامعي الذي يجمع بين الالتزام والتفوق العلمي ملء السمع والبصر والحديث المفضَّل في كثير من المجالس.

٢ - كان التفكير في السلطة ضعيفًا في البدايات، وكان تغيير المجتمع على نحو

متدرج هو الشيء المسيطر على الوعي، وظلت هذه الحالة سائدة في بعض البلدان الإسلامية إلى يومنا هذا، لكن هذا لم يكن عامًّا، فقد تكوَّن شعور لدى بعض الحكومات بخطورة الصحوة على أنظمة الحكم، فبدأت في الرصد والمضايقة، كما أن بعض شباب الصحوة بدؤوا يشعرون بأن لديهم قوة تمكِّنهم من أن يحرقوا المراحل، ويقلبوا الطاولة، ويمسكوا بزمام الأمور، وقد قدم نجاح الثورة في إيران البرهان العملي على إمكانية ذلك، ولم يكن لدى أولئك الشباب من الوعي ما يساعدهم على فهم الفروق المحلية والإقليمية والدولية بين قُطر وقطر وبين حكومة وحكومة، وهكذا لم ينقضِ عقد السبعينيات والنصف الأول من عقد الثمانينيات، حتى بدأنا نسمع عن الصدامات المروِّعة وعن الاغتيالات لبعض الرموز والسجون المكتظة بالشباب المسلم، ونسمع كذلك عن التعذيب والقتل داخل السجون...

٣ - أما الوضع العام للصحوة فقد كان جيدًا في الدول التي لم تشهد صدامات مسلَّحة، وإن كان الخوف مما يحدث عند الجيران ينبه الأذهان دائمًا إلى ضرورة أخذ الحيطة والحذر، وهذا كثيرًا ما يتجلى في التضييق على الأنشطة الدعوية والأعمال الخيرية، وأنشطة المساجد، ومع هذا فقد كانت الصحوة تتقدم بشكل جيد؛ حيث يكثر المهتدون وتتجمع الخبرات، وتنضج الرؤى، أما الدول التي حدث فيها صدامات عنيفة، فقد ساد فيها الخوف، وكفَّ كثير من الناس عن الذهاب إلى المساجد، وصار الناس يخافون على أبنائهم من التورط في الأنشطة الدعوية، ولو كانت سلمية ومكشوفة، وقد ترتب على ذلك نوع من الانفلات في السلوك الاجتماعي لدى كثير من الناس بسبب تراجع الأنشطة الدعوية.

٤ - شهدنا في السبعينيات إقبالًا منقطع النظير على حفظ القرآن الكريم، كما شهدنا إقبالًا واضحًا على طلب العلم الشرعي والتتلمذ على علمائه، وكان مما يلفت الانتباه الحضور القوي والثابت للكتاب التراثي؛ حيث كان الناس يشترون كميات كبيرة من كتب السيرة والحديث والتفسير والفقه والتاريخ الإسلامي، وكذلك الكتب التي تتحدث عن رجالات هذه العلوم وظل هذا مستمرًّا حتى منتصف التسعينيات؛ حيث بدأ الاهتمام ينصب على الكتب الإسلامية غير التراثية، وعلى كتب تتعلق بالنجاح الدنيوي مثل كتب تنمية الشخصية، وكتب العلوم الإدارية، والكتب التي تتعلق بعلوم الحاسب وتعليم اللغات...

إن الإقبال على الكتب الشرعية والتراثية عامة قد كان بسبب ضآلة المعرفة الشرعية لدى الناس آنذاك، وبسبب التأكيد على أن الصحوة تهتم بإحياء علوم السلف وبتأصيل المعرفة الدينية والحفاظ على الهوية أكثر من أي شيء آخر

٥ - ساد اعتقاد راسخ عند العديد من التيارات الإسلامية بأن الإصلاح يجب أن يتجه إلى القاعدة الاجتماعية العريضة، وكان هناك تفكير مشوب ببراءة الأطفال؛ حيث اعتقد كثيرون أن علينا أن نتدرج في الدعوة والتربية والتوجيه، وكان من جملة ما يقال آنذاك: إن علينا أن نبدأ بإصلاح الفرد، ثم إصلاح الأسرة، ثم إصلاح المجتمع، وبصلاح هؤلاء تصلح الحكومات أيضًا، وطالما سمعنا من يقول: إن حكومات العالم الإسلامية جزء من مجتمعاته، فإذا صلحت هذه المجتمعات، فإنها ستظفر بحكومات عادلة وفاعلة ونزيهة بصورة آلية، ولم يكن في وقتها من يهتم بالبحث في شروط استجابة المدعوين، ولا في المناخ المطلوب لذلك، كما أن الإصلاح عن طريق بناء مؤسسات المجتمع المدني، وعن طريق صيانة الحقوق، ومنع القويِّ من البغي على الضعيف.. كان شبه غائب عن اهتمام معظم الجماعات والاتجاهات الإسلامية.. باختصار كانت تلك المرحلة هي مرحلة الثقة بالنجاح ومرحلة العاطفة المشتعلة، كما كانت مرحلة المحاولة لاكتشاف الذات والتحسس للمحيط، فهل تم ذلك؟

الصحوة في طور جديد:

كما أنه من النادر على الصعيد الفكري والثقافي وجود بدايات نقية، كذلك من النادر وجود عهود جديدة كل الجدة، فالشأن الإنساني عامة يميل إلى التعقيد، ويستعصي على التقنين والتقعيد الدقيق، كما أن من المهم أن ندرك ونحن نتحدث عن شؤون الصحوة أننا لا نتحدث عن حراك دعوي ونهضوي في بلد من البلدان، إننا في الحقيقة - إذا أخذنا وضع الأقليات المسلمة بالحسبان- نتحدث عن اتجاهات ووضعيات وسلوكيات تخترق العالم بأسره، وهذا يعني أن كل محاولة لرصد التحولات داخل إطار الصحوة ستكون قاصرة، بل قاصرة جدًّا؛ ولهذا فنحن نجتهد ونحاول، وعلى اللَّه تعالى التسديد، ومنه المعونة

إنني أزعم أن العهد الجديد للصحوة بدأ - على نحو عام - في منتصف التسعينيات من القرن الميلادي المنصرم، وما زال مستمرًّا إلى اليوم، **فما ملامح هذا العهد يا تُرى؟**

١ - تراجع القناعة باستخدام العنف:

ما يزال لدينا من يرى بأن استخدام السلاح لكسر إرادة الأعداء في الخارج ولتحقيق الإصلاح في الداخل هو الطريق الوحيد، وهؤلاء ينظرون إلى من يرى أن الصراع مع الخارج حضاري في المقام الأول، وإلى من يرى أن الإصلاح في الداخل هو إصلاح ثقافي وسلمي، ينظرون إلى كل هؤلاء على أنهم إما جبناء لا يجرؤون على سلوك طريق الشهادة والتضحية، أو أنهم عملاء، أو أصحاب مصالح يريدون تأمين مصالحهم، أو أنهم ليسوا قادرين على فهم الإسلام الفهم الصحيح... **هذا التيار من تيارات الصحوة ومن القوى المحسوبة عليها، لكنه تيار ضيق جدًّا، لا يكاد يشكل (٢٪) من أبناء الصحوة، لكنه شديد اليقين بصواب وجهته، وهذه هي نقطة قوته وضعفه في آنٍ واحدٍ**، إن شدة يقينه بصواب رؤيته ومنهجه تجعله يُقدِم على التضحية بنفسه وأسرته وكل شأنه الدنيوي بشجاعة نادرة، **وقد انفضَّ كثير من الناس عن مناصرة هذا التيار، وخسر الكثير من التعاطف معه بسبب ما أعلنه عدد كبير ومهم من علماء الشريعة من الإنكار لما يقوم به أفراد هذا التيار من قتل للأبرياء، وتخريب للممتلكات، وإشاعة للفوضى، وتشويه للسمعة العالمية للإسلام**، وستكون لنا عودة - إن شاء اللَّه - إلى هذا الموضوع في موضعٍ آخر.

٢ - الصحويون من جنس مجتمعاتهم:

أبناء الصحوة هم أبناء مجتمعاتهم، وهم يتأثرون - بنسب متفاوتة - بكل الموجات الحضارية التي تجتاح العالم الإسلامي، ولا سيما إذا عرفنا أن وعي أبناء الصحوة بدينهم وبزمانهم، وبما عليهم أن يقوموا به وعيٌ متفاوت للغاية، كما أن الظروف التي يمرون بها متفاوتة تفاوتًا كبيرًا، فشتان بين باحث محقق في علوم الشريعة وعالم اجتماع مسلم، وبين مسلم بسيط ليس لديه إلا القليل من العلم، ويعيش في وسط جاهل لكنه محافظ على الصلاة، ويتابع أخبار مسلمي العالم، ويتألم لألمهم.. **ولعل من جملة الآثار التي تركها التقدم الحضاري والتقني، والآثار التي تركتها العولمة في المجتمع وفي أبناء الصحوة الآتي:**

أ - انفتاح وعي كثير من أبناء الصحوة على المصلحة الشخصية، وهذا بسبب التقدم الحضاري، والانفتاح على المصلحة الشخصية يعني العمل على رعايتها والاهتمام بها

على نحو لا يخلو من المبالغة، وهذا يؤثر في الاهتمام بالدعوة والمصلحة العامة، ولدينا انطباع قوي بتراجع الهمّ الدعوي بسبب تراجع الاحتساب والعطاء المجاني، والحجة الحاضرة هي كثرة تكاليف الحياة وضغوطات العيش.

ب - انفتح وعي أبناء الصحوة أكثر من قبل بكثير على المتعة والمرح و (الفرفشة) وعلى حب سماع الطُّرف والنكات، وكثيرًا ما يكون الدافع إلى ذلك الرغبة في التخلص من التوترات والضغوطات التي تحيط بنا من كل جهة، وبسبب الرغبة في التمتع بالحياة، وإن كثيرًا مما نفعله اليوم كان في نظر كثير من أسلافنا عبارة عن لعب ولهو وخروج عن حدود الحشمة، كما أنه منافٍ للجدية التي ينبغي أن يتحلى بها المسلم

ج - في الماضي القريب لم يكن من السائغ للداعية والمسلم الملتزم - على نحوٍ عام - أن يزكِّي نفسه أو عمله، أو أن يطلب الشهرة، وكان أسلافنا يتحرجون تحرجًا شديدًا من الاقتراب من ذلك؛ صيانة لجناب الإخلاص، لكن هذا قد تغيَّر لدى كثيرين؛ حيث صار من غير المستنكر أن يسوِّق الإنسان نفسه، وأن تبرز صورته في الإعلانات الدعائية على اللوحات الإلكترونية، وهم يحتجون لذلك بمصلحة الدعوة نفسها؛ إذ إن شهرة الدعاة تساعدهم على نشر أفكارهم والوصول إلى الناس

٣ - تقدير أكبر للنجاح:

كان الزهد في الدنيا والتقلل من متاعها من سمات أهل الصلاح والدعاة المخلصين، ولديهم للتدليل على فضل ذلك وصوابه فيض من الآيات والأحاديث وأقوال السلف، لكن الأمر الآن قد تغيَّر لدى الكثيرين؛ حيث صار قول النبي ﷺ: « **المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف** »[1] من النصوص التي يُستشهد بها بكثرة غامرة؛ إذ يسود اعتقاد أن توافر الكثير من المال بين يدي الداعية مما يساعد على نجاحه في دعوته، كما يدلل على معاصرته وفهمه لمتطلبات زمانه، وقد صار راسخًا أكثر في الوعي أن صلاح أمور الدين منوط بصلاح أمور الدنيا؛ ولهذا الأمر مظاهر كثيرة منها - مثلًا - الموقف من العربية فقد كان أبناء الصحوة شديدي الاحتفاء بالعربية بوصفها لغة القرآن الكريم ولغة معظم التراث الإسلامي، واليوم اختلف الأمر اختلافًا جوهريًّا؛ حيث إن كثيرًا من أبناء الصحوة ينفقون من الوقت والمال على تعلم اللغات الأجنبية - على رأسها

---

(١) أخرجه مسلم وابن ماجه.

الإنجليزية - ما لا تمكن مقارنته بما ينفقونه على تعلم الفصحى نطقًا وقراءة وكتابة، بل إن كثيرًا من الصحويين - ولا سيما الموسرين منهم - يعلِّمون أبناءهم في مدارس أجنبية؛ حيث يدرس أبناؤهم معظم المواد بغير العربية، وقد يكون كثير ممن يدرِّسونهم غير مسلمين أو مسلمين غير ملتزمين

٤ - صحويون أكثر انفتاحًا على الآخر:

من الملاحظ بقوة في السنوات الخمس الأخيرة - على الأقل - وجود نوع من الانفتاح على حكمة الأمم من حولنا، وهذا يعود إلى توافر الكثير من المقولات والحكم والأمثال التي أتيحت للقارئ العربي بسبب الترجمة - ما تقدمه مكتبة جرير نموذجًا - وعبر الإنترنت، وإن الناظر في نوعية ما يستشهد به الناسُ من تلك المقولات.. يجد أننا قبل ثلاثين سنة من اليوم كنا شغوفين بتناقل أقوال أئمة السلف في الزهد والعبادة والعلم؛ من أمثال: الحسن البصري والجنيد وسفيان الثوري، وغيرهم كثيرون جدًّا، أما اليوم فإن كثيرًا من الرسائل التي يتم بثها وتداولها عبر قنوات الجوال هو عبارة عن مقتطفات من نصوص لفلاسفة وأدباء وعلماء نفس ورجال أعمال غير مسلمين، ويأتي الغربيون والأمريكيون مَنهم خاصة في رأس القائمة، ولا بد من الإشارة إلى أن هذا المُقْتَـبَس من ثقافات الأمم الأخرى لا يخالف القواعد العامة للشريعة، كما لا يخالف روحها ومقاصدها، لكنه يعبر عن انفتاح كبير لدى أبناء الصحوة على (الآخَر)، كما يعبر عن حفاوة بالغة بالأفكار العملية المعاصرة، لكن تظل له دلالة على نوع من التحول عن أدبيات موروثة كثيرة.

٥ - صحويون من نمط جديد:

ظلت التقنية والأدوات والمنتجات الجديدة والظروف غير المعهودة، على مدار التاريخ قادرة على تطوير اهتمامات الناس وأسلوب معاشهم، ولا استثناء لأي أمة أو أي ثقافة، بل إني أقول أكثر من ذلك؛ إذ ألاحظ أن الأمور التي أشرت إليها لا تطور حياتنا فحسب، ولكن تجعلنا نعيد اكتشاف أنفسنا وعلاقاتنا بالحياة والأحياء، وطالما سألت نفسي: كيف يا تُرى سيكون نمط معيشة التابعين وتابعي التابعين لو كانوا في زماننا، فلو وجدوا - مثلًا - أن التعليم في المدارس الحكومية غير كفء، فإلى أين سيدفعون بأبنائهم للدراسة؟ وهل سيحتفلون بالنجاح والتفوق والإنجاز كما نفعل نحن اليوم،

أم سيؤثرون الرضا بالقليل من كل شيء مما يؤدي إلى أن يعيشوا على هامش الحياة؟ أغلب الظن أنهم سيكونون أبناء البيئة والزمان اللذين وجدوا أنفسهم فيهما، وسيتعرضون لعين الاختبارات التي نتعرض لها اليوم

لم تتبلور بعدُ صورة «الصحوة الجديدة» على نحو نهائي، بسبب استمرار التغيرات الشاملة والكثيفة في كل شيء له صلة بنا، **لكن ما تم تبلوره إلى اليوم يرسم صورة الصحوي الجديد من خلال القسمات التالية:**

أ - مسلم مرن متفتح ذهنيًا يحاول أن يستمع لما يقوله الآخرون، يفاوض، ويركز على الكليات، ويتغاضى عن المخالفات الشرعية الطفيفة، وما كان من قبيل الآداب والسنن، ويهتم أكثر بوزن المصالح والمفاسد، والنظر في الاعتبارات المتعددة المحيطة بالقضية موضع البحث والمعالجة. ولم يكن الأمر على هذه الشاكلة في بدايات الصحوة، ومن المفيد أن أنوّه هنا إلى أنني أحاول هنا وصف ما يجري من غير إصدار أحكام عليه

ب - يميل كثير من شباب الصحوة إلى ممارسة نوع من الانضباط الذاتي، والذي يعني فيما يعنيه الضغط على الرغبات وتأجيلها وتحمل المشاقّ في سبيل التفوق وتحقيق المزيد من النجاح، وقد كان الشباب في بدايات الصحوة مهتمين بالنجاح الدعوي أكثر، أما اليوم فإن الانضباط الذاتي هو من أجل النجاح في الأعمال الدعوية والدنيوية.

ج - لدى الصحويين اليوم تطلع وتشوق كبير للإنجاز في المهمات والارتقاء في الوظائف وتجويد الأعمال؛ وهذا بسبب ما تفرضه الشركات الكبرى من شروط للوظائف والأعمال المرموقة، وبسبب ما تنشره العولمة من أدبيات الإنجاز، وهذا التشوُّق دفع كثيرًا من شباب الصحوة إلى نيل الشهادات العالية واكتساب الخبرات المحترمة،ولو أننا تأملنا في الدورات التدريبية - بوصفها مؤشرًا - فإننا سنجد أن أكثر من (٨٠٪) منها يدور حول تجويد الأداء وتدعيم الذات وحيازة المهارات والخبرات

د - الصحوي الجديد يميل إلى مساعدة الآخرين وتقديم الخبرة لهم، وهو اليوم أكبر قدرة على التفاعل مع الغرباء، وأقل خوفًا منهم، ويتجسد هذا في الحوارات الكثيرة التي يعقدها بعض الصحويين مع من هم خارج إطار الصحوة ومع غير المسلمين أيضًا، كما يتجسد في المشروعات الخيرية والتطوعية التي أخذت وتيرتها في التصاعد في السنوات الأخيرة. لا بد من الإشارة إلى أن ما أشرت إليه يلحظ اليوم لدى الصحويين من سكان

العواصم والمدن الكبرى، كما أنه يكاد يكون محصورًا في الفئة المتعلمة بنسب متفاوتة، لكن هذا الاتجاه يتم تعميمه ليشمل الجميع في نهاية الأمر.

إن ما أوجزته من ملامح المسلم الجديد تكوّن - فيما أظن - بسبب عدد من العوامل، منها: الاحتكاك بالثقافة والتجربة الغربية، ومنها الرد على الإخفاق الذريع الذي مني به طرح الإصلاح الشامل المتكئ على الحصول على تقدم سياسي جيد بالإضافة إلى الرد على الإخفاق الواضح للتيار الذي يرى في ممارسة العنف والاغتيالات وتدمير الممتلكات وسيلة للتغيير والإصلاح.

٦ - التركيز على الاتصال الجماهيري:

في بدايات الصحوة كان التعويل في البلاغ وتوضيح شعائر الإسلام على المنبر والحلقات المسجدية وعلى طرق الاتصال الفردي، ولا يزال هذا موجودًا وسيبقى، لكن الملاحظ اليوم هو التوجه بقوة إلى الإعلام والاتصال الجماهيري؛ حيث إن لدى الصحويين اهتمامًا كبيرًا بمخاطبة الوعي العام للأمة، وإن وجود عشرات الفضائيات ووجود الألوف من مواقع (الإنترنت) الإسلامية - يقدم البرهان على هذا، مع أن استخدام الصحوة للإعلام ما زال أقل مما هو ممكن وأقل مما هو مطلوب.

٧ - وعيٌ أفضل بطبيعة التغيير:

كان وعي الصحوة في بداياتها مفتونًا بالتغيرات السريعة؛ حيث كان لدى كثير من الصحويين إحساس بسهولة تغيير مجتمعاتهم، ومرتكزهم في ذلك هو أن الخلفية الثقافية للناس في مجتمعاتنا هي خلفية إسلامية، كما أن العرف العام قائم على أحكام الشريعة، وهذا الإحساس كان وراء حركات العنف التي انفجرت في العديد من الدول، ولقيت مناصرة واسعة من جميع المسلمين ولا سيما العرب منهم، لكن هذا تغيَّر اليوم؛ حيث أثبتت الأحداث أن تغيير النظم السياسية، بل تطويرها، هو أعقد مما يظن كثيرون؛ ولهذا فإن وعي الصحوة اليوم يحبذ التغيرات البطيئة، ذات الطابع السلمي والقائم على بناء المزيد من المؤسسات وإطلاق المزيد من البرامج والمشروعات، وقد كان الثمن الذي دفعته الصحوة لبلوغ هذه القناعة باهظًا ومؤلمًا

٨ - تركيزٌ أشد على المحلي:

من الواضح أن تفكير الصحويِّين في الطور الأول من أطوار الصحوة كان أمميًّا عابرًا

للقارات، فإذا لقيت جماعة أو دولة إسلامية محنة كبرى كان الجميع يهبون لنصرتها ودعمها بكل أشكال الدعم، والحقيقة أن ذلك كان شاملًا لمعظم المسلمين بقطع النظر عن كونهم منخرطين في عمل دعوي أو لا، وكلنا نذكر الدعم الهائل الذي تم تقديمه في تلك المرحلة لأفغانستان والشيشان، وبصورة أقل للسودان وغيرها، لكن هذا قد تغير اليوم؛ حيث حدث نوع من الانكفاء على الذات ضمن دوائر عديدة: الفرد والمنظمة والجماعة والمؤسسة... وانكفاء أبناء الصحوة على أنفسهم له العديد من الأسباب، أولها: أن الدول العربية من غير استثناء ذي قيمة تشهد انكفاء على الذات، وتستجيب لدواعي المصلحة القُطرية الضيقة، ومن تلك الأسباب وجود وعي جديد لدى الصحويين، وهذا الوعي يقوم على مبدأ تجاري: (فَكِّر عالميًّا وتَصرَّف محليًّا) وعلى: التركيز على دوائر التأثير عوضًا عن التركيز على دوائر الاهتمام. ولست هنا في صدد بيان محاسن ذلك ومساوئه. وهناك إلى جانب هذين السببين سبب ثالث هو قدوم موجة ثقافية عاتية تؤكد على النجاح والخلاص الفردي، وكان من المسوغات الأخلاقية لهذا الاهتمام القول بأن نجاح الفرد حين يتم بطريقة صحيحة هو في الحقيقة نجاح للجماعة والمجتمع والأمة.

إن هذا يقلل بالتالي وعلى نحو مباشر من الاهتمام بالشأن العام المحلي عامة والشأن الدولي للمسلمين خاصة.

٩ - احتفال أقل بالنصوص:

في بدايات الصحوة كان من الواضح الاهتمام بالنصوص ومحاولة فهمها بشكل دقيق وحرفي، وفي تلك المرحلة بُذلت جهود عظيمة وقيِّمة في الحكم على الأحاديث وفي تمحيص نسبة كثير من الأقوال إلى قائليها، وقد كان التيار السلفي هو الذي يتزعم تلك المهمة، وما زال الاحتكام إلى النصوص، والحرص على صحة الدليل واضحًا وقويًّا، لكن ظهر اهتمام آخر بما يسمى(فقه المقاصد) و(فقه المآلات)، وصرنا نسمع عن محاولات كثيرة لتأويل النصوص والعمل على جعل مدلولاتها أكثر مرونة، وإن الذي يستعرض الفتاوى الأخيرة التي أثارت الجدل وينظر في الدراسات التي أنجزها الإسلاميون المغاربة - على نحوٍ خاص - في هذا الصدد، يجد البرهان على ما نقول.

الاهتمام بفقه المقاصد يعني بوجه من الوجوه التخفيف من الالتزام بظاهر النص

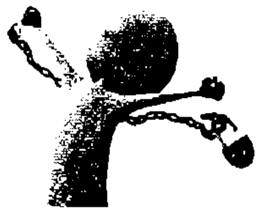
ومن الالتزام بتفسيرات السلف له، بما أن البحث عن مقاصد الشريعة والنظر في مآلات الأحكام عمل كبير ذو طابع جذري، فإن من المتوقع أن يثير الكثير من الخلاف بين علماء الصحوة وشبابها!

١٠ - صحوي واقعي:

ينزع الوعي الصحوي إلى الاعتراف بالواقع والتعامل معه بما يتطلبه من مرونة، كما أنه ينزع إلى التأكيد على النفع العام والمصلحة العامة، وهو منفتح اليوم على التجارب السياسية العالمية، ولعل موقف جمهور الصحويين من تجربة (حزب العدالة والتنمية) في تركيا يعد ترجمة حقيقية لكل ما ذكرناه في هذا السياق، فالحزب لا يدَّعي أنه إسلامي، وهو ينفذ قوانين تستند إلى دستور علماني مغرق في العلمانية، ويسعى إلى أن تكون تركيا جزءًا من الاتحاد الأوربي، كما أن البلد في الأساس حليف قديم لإسرائيل وعضو في حلف شمال الأطلسي... مع كل هذا فالتجربة التركية الأخيرة تعد في نظر معظم الصحويين تجربة ناجحة وفذة، وتستحق التأمل، بل تستحق عند كثيرين التقليدَ والمحاكاة. كل ما ذكرته عن الطور الجديد للصحوة هو عبارة عن قراءة شخصية، اجتهادية تحتمل الصواب والخطأ، ولا تخلو من قصور، لكن أود أن أقول: إنَّ أي صورة نرسمها للصحوة والصحويين هي صورة ذات طابع زمني، أي مؤقتة، فالتطورات التي تطرأ على حياتنا، والظروف المتجددة، تجعل فهمنا لكل شيء وموقفنا من كل شيء متطورًا ومتفاعلًا، ولا تبدو نتائجه للعيان إلا بعد حين.

ولله الأمر من قبل ومن بعد

* * *
* *
*



مقولات مناوئة للصحوة

ليس من عادتي ولا من منهجي الدخول في اشتباك ثقافي مع أي جهة؛ لأنني لا أريد تقسيم المجتمع المسلم وتعميق الشروخ في بنيانه الفكري والنفسي، ولأنني كذلك لا أريد أن أهدر الوقت والجهد في الرد على زيد وعمرو من الناس، فما أمامنا من مشروعات تنتظر الإنجاز، يستحق أن يشغلنا عن أي شيء آخر، لكنني هنا سأخالف ما تعودته، وأنا أحذر كل الحذر من أن تؤدي مناقشة من نختلف معهم إلى وقوع ما أشرت إليه قبل قليل، ويظل الهمُّ الذي يشغلني هو بلورة أرضية مشتركة نقف عليها جميعًا لبلوغ الأهداف والغايات الإسلامية الكبرى. إن من السهل على أي إنسان أن يستمع إلى من ينقده في بعض شأنه، لكن من الصعب جدًّا أن يتقبل كلام من يقول له: أنت من رأسك إلى مفرق قدمك غارق في الأخطاء، وإن عدمك خير من وجودك، ولو لم تكن موجودًا لكنا في ألف خير ... قد يقول القارئ الكريم: وهل هناك مثقف يتحلَّى بشيء من الموضوعية يجرؤ على قول مثل هذا؟! - أقول: نعم مع الأسف الشديد!

أنا هنا سأحاول الاستفادة من مقولات خصوم الصحوة وانتقاداتهم إلى أقصى حدٍّ ممكن، لكن عليَّ أيضًا أن أنافح عن الصحوة المباركة بكل ما أوتيت من قوة في حدود قناعتي وحدود ما تمليه عليَّ الأمانة العلمية، ولعلي أسوق شيئًا من التشكيك في الصحوة والهجوم عليها عبر المفردات التالية:

١ - ما بين النقد والتشكيك:

النقد: هو عبارة عن محاولة لتقييم منتج أو حالة أو ظاهرة.. وفي ذلك التقويم تُذكر المحاسن والمساوئ والإيجابيات والسلبيات، وإن الصحوة والصحويين في أمسِّ الحاجة إلى ممارسة النقد الذاتي والاستماع باهتمام إلى نقد الآخرين والعمل على الاستفادة منه حتى لو كان المنتقدون من الأعداء، أو كانوا يقولون ما يقولونه خدمة لجهة من الجهات.

أما التشكيك - حسب استخدام الكلمة هنا -: فهو عبارة عن موقف جذري يعتقد صاحبه بصواب رؤيته على نحو قطعي وجازم، ومن ثم فإنه يحوِّل خلافه مع الصحويين

إلى نفي للوجود أو إلى وصف الصحوة بأنها غلطة حضارية أو ورطة ثقافية أو غفوة..) إلى آخر ما في جعبة المتشككين من ألقاب.

إن من يعتقد أن الصحوة هي غفلة أو ورطة... يقف على أرضية مختلفة عن أرضية الصحويين؛ لأن للصحوة إنجازات متصلة بقطعيات الدين التي لم يقع فيها أي خلاف بين الفقهاء والمتخصصين بعلوم الشريعة، بل إن بعض المستشرقين لا يرون أنها ليست من الإسلام في شيء، كما يزعم بعض بني جلدتنا، وأذكر أنني كنت في منتدى[1] ثقافي يؤمه أشتات وأخلاط من الناس، وقد تحدثت وقتها عن بعض فضائل الإسلام، وبعد أن انتهيت من حديثي تحدث أحد الكتَّاب المشهورين، وقال: وما علاقة صلاة الجماعة بالتدين؟! قلت: أنا أعرف خلاف الأئمة في حكم صلاة الجماعة، لكن لم أسمع قط بأن فقيهًا أو نصف فقيه يقول: إن صلاة الجماعة، ليست من الدين، أو يقول صلاة الفرد خير من صلاة الجماعة، وحين قمنا إلى الطعام تحدثنا في قضايا شتى ودار الحديث حول بعض ما لدينا ولدى الغرب - كما هو الحال في معظم المجالس - فقال أستاذ جامعي معروف: يا ليت كل ما عند الغرب عندنا!. قلت له: إن الفتاة الغربية تأتي بصديقها إلى غرفة نومها في بيت عائلتها من غير حاجة إلى إذن أو رضا أحد، فهل ترضى أن تفعل ابنتك شيئًا من هذا؟ فسكت الرجل!. إذن مشكلتنا مع خصوم الصحوة تتمثل أساسًا في أنهم ينظرون إلى الصحوة من منظار بعيد عن منظار الشرع جملة وتفصيلًا.

٢ - الصحوة طائفة أو حزب:

من أغرب ما وصِفت به الصحوة الإسلامية أنها عبارة عن فرقة أو حزب أو طائفة متماسكة تسعى إلى أهداف محددة، وقد كتب أحدهم قائلًا: « نتيجة لتحول الصحوة إلى حزب منظم غير رسمي، هدفه المرحلي فرض الوصاية على الحاكم، وهدفه النهائي القفز إلى كرسي السلطة وإعلان ولاية الفقيه السني »، وكتب آخر: « كثيرًا ما يواجهني سؤال مفاده: لماذا تنتقد بحدة الصحوة والفكر الصحوي؟ ».

مباشرة ودونما أية مجاملة أو مواربة أو عبارات اعتذار كما جرت العادة عند التعرض لمثل هذه القضايا ذات الأبعاد الحساسة - أقول: السبب أنني أرى أن هذا الفكر الطارئ أو (الفرقة) التي قامت وانتشرت مؤخرًا، وتسمَّت بهذا الاسم - أي الصحوة - تفترض

---

(١) كثيرًا ما أعرض عن ذكر الأسماء لأنني مهتم بمناقشة الأفكار وليس الأشخاص.

أن ثمة(نقطة) تاريخية فاصلة بين الماضي القريب وبين الراهن الحالي، فما قبل هذه النقطة كان المسلمون في(غفوة) ، وحينما جاءت هذه(الفرقة) أيقظتهم، فعمَّ الإسلام كل أرجاء البلاد الإسلامية...»[١].

والحقيقة أن كثيرًا ممن ينتقدون الصحوة ينتقدونها على أنها هيكل شبه منظم، لها قيادة موحدة، وأهداف واضحة ومحددة، وهذا وهم كبير منهم، فالصحوة عبارة عن كينونة روحية وعاطفية وفكرية تغشى أعدادًا هائلة من المسلمين في كل أنحاء العالم، وأنا أشبِّه الصحوة الإسلامية - في وجه من الوجوه - بالعولمة، فكما أن العولمة ليست فرقة ولا طائفة ولا تنظيمًا، وليس لها قيادة توجه أنشطتها، كذلك الصحوة الإسلامية لا تتمتع بقيادة مركزية، والذين يؤثرون في مسيرتها مختلفون مع بعضهم على مستوى تقدير الواقع وعلى مستوى الأدوات والأساليب التي ينبغي استخدامها في الإصلاح، وهم بذلك مثل المؤثرين في العولمة؛ حيث إن العلاقة بين اللاعبين في أسواق العولمة هي علاقة تنافس وطرد من الأسواق، لكنهم يتحركون وفقًا لقواعد السوق: العرض والطلب والمنافسة وتحسين المنتج وخفض التكاليف..

ولو أنك دخلت إلى أحد المساجد وتأملت في المصلين لوجدت أن الذين على علاقة بجماعة أو تنظيم إسلامي من مجموع المصلين، قد لا يصلون إلى (٢٪)، أما الباقون فإنهم يعيشون أجواء التدين، ويتأثرون بالروح الإسلامية العامة، أما المؤثرون في الصحوة، ومن يعدون قادة لأطيافها فإن مواقفهم من حكوماتهم مختلفة، فمنهم الموالي على نحوٍ تامٍّ، ومنهم من يعمل لدى حكومته بوصفه موظفًا كبيرًا، ومنهم الذين لا يهتمون بالشأن السياسي، ومنهم المعارضون لسياسات حكوماتهم، ومنهم الذين يسلكون سبيل العنف، ويستخدمون القوة لتحقيق رؤيتهم، وهذا كله يؤكد أن من غير الممكن للصحوة أن تكون طائفة أو حزبًا، كما أن من غير الممكن للصحويين أن يكونوا أتباعًا لحزب واحد، وهذا الكلام ينطبق على كثير من بلدان العالم الإسلامي، كما ينطبق على الأقليات الإسلامية في أنحاء العالم، وسوف نرى في حديثنا عن الصحوة والنقد الذاتي كم هو الخلاف بين أطياف الصحوة، وكم يكون من مجافاة الحقيقة والواقع وصف الصحوة بأنها كتلة منظمة أو شبه منظمة.

---

(١) كلا المقالين موجود على (الإنترنت).

إنني في هذا الكتاب وفي كل الخطاب الذي صغته عبر عقدين من الزمان لم أكن أتوجه إلى أهل أي بلد إسلامي بأعيانهم، وهكذا فأنا لا أتحدث عن الصحوة في بلد من البلدان، وإنما أتحدث عنها بوصفها وضعية إسلامية كونية عامة وشاملة.

٣ - الصحوة وَهمٌ:

الصحوة في نظر بعض المثقفين سراب خادع، والأمة لا تشهد لا صحوة ولا نهضة، بل إنها في تدهور وتراجع؛ ولهذا فإن كل ما ينظر إليه الصحويون على أنه إنجاز إما ألا يكون من الإنجاز في شيء، وإما أن يكون مؤشرًا على التدهور، أو سببًا لحدوث تدهور جديد، وفي هذا السياق يقول باهر عبد العظيم في مقال له بعنوان: وهم الصحوة الإسلامية.إن (الحجاب) يستخدم على أنه دليل على وجود الصحوة، مع أنه نتيجة طبيعية لتدني مستوى التعليم والوعي الجمعي، وليس دليلًا على رُقيِّه، ولولا التمويل الخليجي المباشر لنشر الحجاب بأبخس الأسعار وتواجده في أغلب المحالِّ لما انتشر بتلك الصورة المَرَضية، وإذا اعتبر البعض أن الحجاب هو أوضح مظاهر الصحوة الإسلامية، فتلك للأسف خدعة؛ لأن الصحوة الإسلامية تتحقق عندما نتخلى عن التدين الشكلي المظهري الذي لا ينفع، بل قد يضر في سبيل التدين الجوهري..

ويقول أيضًا: إنهم يعدون امتلاء المساجد بالمصلين من مظاهر الصحوة، وإن المنظِّرين الإسلاميين يقارنون أوضاع مصر اليوم بما كان عليه الحال في الخمسينيات والستينيات، وهم لا يذكرون أن الرشوة والعنصرية والاغتصاب لم تكن منتشرة في ذلك الوقت...

ويقول الدكتور فؤاد زكريا: نحن تراجعنا في كل شيء، وعلى الرغم من ذلك يتحدث الناس عن الصحوة، وهذا أمر محيّر: هل من المعقول أن نكون متدهورين في كافة الميادين، ثم تظهر لنا على أوسع نطاق صحوة ويقظة ونهضة في ميدان واحد دون غيره؟!

ويقول د. زكريا أيضًا: إن الصحوة ليست - كما يزعم الصحويون - هي رد مباشر على الهزائم التي نمر بها، مع أنني أرى أن الصحوة المزعومة هي نتائج لتلك الهزائم، ومساهمة في إيجادها !

وأنا أود أن أوضِّح بشأن هذه المزاعم الأمور التالية:

أ - حين نقول: إن مستوى التعليم متدنٍّ، فمن المؤكد أننا لا نقصد أن مستوى كل متعلم عربي متدنٍّ، فهناك - ولا شك - شباب متعلمون على نحو ممتاز، وهناك نسبة جيدة منهم أهل لحًى، كما أن نسبة جيدة من الفتيات المتعلمات تعلمًا جيدًا محجبات، ونحن نلاحظ هذا اليوم لدى المسلمات المتعلمات في الغرب؛ حيث إن كثيرات منهن محجبات، بل إن إحداهن تعمل مستشارة لرئيس الولايات المتحدة (أوباما)، كما أننا لو عدنا إلى بلد كمصر، ونظرنا في أحواله التعليمية في الخمسينيات من القرن المنصرم لوجدنا أن نسبة الأمية تتجاوز الخمسين في المئة، وكان الحجاب في المدن نادرًا، وهكذا نجد ارتباطًا واضحًا بين تراجع نسبة الأمية وانتشار الحجاب على خلاف ما يراه خصوم الصحوة.

ب - إذا كان الحجاب عبارة عن قطعة قماش، لا تقدم ولا تؤخر، وإذا كان الحجاب من الأمور الشكلية في نظر المناوئين للصحوة، فلماذا إذن هذه الحملة العالمية عليه، وهل يليق بالعالم الانشغال بشيء لا قيمة له. إن المشكِّكين في الصحوة يعرفون قبل غيرهم أن الحجاب ليس شكليًّا، نعم إن الحجاب ظل سائدًا في الريف على مدار التاريخ، وما زال، ولم يقم العلمانيون ببذل أي جهد في محاربته؛ لأنهم يعرفون أن حجاب المرأة الريفية يخضع للعادات والتقاليد أكثر من خضوعه للالتزام بالأوامر الربانية، والدليل على ذلك أن كل الريفيات قبل الصحوة كن محجبات، لكن كثيرات منهن مفرِّطات في أهم ركن من أركان الإسلام، وهو الصلاة.

الحجاب اليوم لدى المرأة المسلمة - ولا سيما في المدن - يعبر عن وضعها لنفسها في سياق حياتي عام هو الاستجابة قدر الاستطاعة لأمر اللَّه تعالى والالتزام بشرعه، أي إن الحرب على الحجاب هي حرب على الاتجاه الإسلامي نفسه، هكذا يجب وضع النقاط على الحروف.

ج - من العجيب جدًّا أن يتحدث مثقف عن ارتباط توسع ظاهرة الحجاب الإسلامي بالمال الخليجي، ففي هذا الكلام إهانة للفقراء واتهام لهم بأنهم يلبسون بناتهم وزوجاتهم الحجاب الشرعي بسبب توفره ورخص ثمنه، وليس لأنه يمثل قناعات لهم، ثم إن أي بلد في العالم لم يشهد في أي يوم نقصًا في إمدادات اللباس، كما أن من ثياب

المحجبات والسافرات ما هو رخيص جدًّا، وما هو مرتفع الثمن جدًّا، فلماذا يتم استغفال القراء بهذه الطريقة ؟! وفي الزعم بأن المال الخليجي هو وراء توافر الحجاب الرخيص شيء يدعو إلى الضحك؛ لأنه بعيد كل البعد عن الواقع؛ وأتمنى لو كان ذلك صحيحًا؛ لأنه سيكون مصدر فخر لأهل الخليج، ودليلًا على مساعدتهم في نشر الفضيلة في العالم.

د - يرى د. فؤاد زكريا وغيره من المشككين في الصحوة أن من غير المعقول أن يكون العرب متخلفين في كل شيء، وأن يكون لدينا صحوة في جانب واحد من حياتنا، وهو الدين؛ ولهذا فهو يذهب إلى أن ما يسمى بالصحوة هو نتيجة هزائم العرب، كما أنه مصدر لهزائم جديدة!

إن استغراب د. زكريا في غير محله؛ لأن من المألوف في كل الحضارات التساوق بين نظم حضارية متقدمة وأخرى متخلفة، ففي القرن الرابع الهجري - مثلًا - كان العمران في العالم الإسلامي في قمة ازدهاره، على حين كان النظام السياسي للدولة العباسية على حافة الانهيار، وفي الاتحاد السوفييتي كان المجتمع خاملًا ومعطلًا، لكن البحث العلمي كان مزدهرًا، كما أن الصناعات المدنية كانت متخلفةً نسبيًّا، لكن الصناعات العسكرية كانت متقدمة جدًّا، واليوم النمو الاقتصادي في الصين يثير إعجاب العالم، لكن حقوق الإنسان ومنظمات المجتمع المدني في الحضيض، وفي الغرب عامة هناك ازدهار في عدد من جوانب الحياة، على خلاف ما عليه النظام الاجتماعي والأسري، فإنه يدعو إلى الشفقة. نحن إذن حين نقول: إننا نشهد صحوة دينية لا نعني أننا قد أصبحنا على ما يرام في كل شيء، حتى الصحوة الدينية، فإننا ننظر إليها على أنها صحوة بالنسبة إلى ما كان عليه الحال قبلها، ونحن اليوم نطالب أنفسنا بالكثير من العمل من أجل إيجاد صحوة جديدة حتى يتم تلافي أوجه القصور في الصحوة الحالية.

٤ - هل الصحوة هي سبب انحطاط الأمة؟

ذهب أحد المتخصصين في العلوم السياسية أثناء مقابلة تلفزيونية له أنه مع تصاعد الصحوة ازداد الفساد والاستبداد، وانهارت أخلاقيات العمل، وازدادت التبعية في الغذاء والكساء والدواء والمواصلات... إن هذا الكلام وأشباهه معروف عن عدد من الكتّاب المناوئين للصحوة الإسلامية، والذين يحاولون وضعها دائمًا في قفص الاتهام، وهذا الكلام أيضًا عجيب، والسؤال الذي يطرح نفسه أولًا: ما علاقة من يصبح أكثر محافظة

على الصلاة وعلى ذكر اللَّه، وأفضل سعيًا للآخرة، وأكثر معرفة بالحلال والحرام - بزيادة الاستبداد والرشوة والتبعية للآخرين؟ هل لدى شباب الصحوة سلطة يمارسونها حتى يقال: إنهم يمارسون الاستبداد؟، بل إن - من الملموس أن كثيرًا من شباب الصحوة وشاباتها يتعرضون للاضطهاد بأساليب مختلفة وفي أكثر بلاد اللَّه ادِّعاءً للحرية والتعددية والانفتاح!!. وهل هناك أي مؤشر على أن الإنسان حين يعرف اللَّه تعالى أكثر يصبح أعظم جرأة على دفع الرشوة أو أخذها أو أكثر جرأة على أكل حقوق الناس؟ وهل ثبت أن الشباب غير الملتزم أكثر سعيًا في الخير، وأكثر انخراطًا في الأعمال التطوعية، وأكثر تفوقًا في الدراسة.. من الشباب الملتزم؟ إن كل المؤشرات تشير إلى أن شباب الصحوة مع ما لديهم من قصور هم أنفع لأنفسهم وأهليهم وبلادهم من غيرهم، ويكفي أنهم لا يدخنون، ولا يتعاطون المخدرات، ولا ينشرون مرض الإيدز في البلاد، ولا يسطون على البيوت الآمنة...

إن هذا الكتاب ليس مقصودًا للدفاع عن الصحوة والصحويين، لكن لا بد من شيء من العقلانية وشيء من الإنصاف عند محاولة فهم الأمور. إن كثيرًا من الانحطاط الأخلاقي وكثيرًا من التبعية الاقتصادية يعود إلى أمور غير محلية؛ حيث إن (العولمة) والرأسمالية المتوحشة وحب الدنيا والعبَّ من شهواتها هي المسئول الأكبر عن نشر الفساد في العالم كله، وليس في العالم الإسلامي وحده، ومن المعروف أن الأزمة المالية التي عصفت بالعالم نشأت في أمريكا، وكان أساسها عقودًا وأوعية مالية وتحايلًا وانحطاطًا أخلاقيًا لا علاقة للصحوة به. إننا حين نكون منصفين ومهذَّبين مع خصومنا نترك أرضية مشتركة للتعاون والإصلاح ونترك خطًّا للرجعة، نحن في أمسِّ الحاجة إليه.

٥ - الصحوة وهاجس الهوية:

الصحوة متَّهمة بأنها غارقة إلى الآذان في هاجس الهُوية والعمل على الحفاظ على ما يسميه الصحويون (ثوابت) الأمة، ويرى مناوئو الصحوة أن ذلك يتم على حساب الاهتمام بالنهضة السياسية والصناعية والعلمية والاقتصادية؛ ولهذا فإن الحديث عن وجود صحوة حقيقية في ظل التخلف الحضاري شيء لا معنى له، وبعض الكتَّاب يحذرون (المثقف) من الاستجابة لـ (الفقيه) بسبب ما يمارس عليه من ضغوط، ويقولون: إن ذلك لا يشوِّه دوره في النهضة فحسب، بل إنه يحوِّله إلى عقبة في وجهها، إن المثقف حين يدافع عن سلوكيَّات صحوية، أو يحاول إسباغ بُعد ثقافي فلسفي تجديدي

على مصطلح (الصحوة)، فإنه لا يُربك الاتجاهات الثقافية فقط، بل قد يصل الأمر إلى درجة الإحباط. ويزعم أولئك الكتَّاب أن سؤال التقدم هو الذي يسيطر على المثقف، أما الفقيه فإنه يستغرق في سؤال الهوية، وهذا يجعل همَّ الفقيه هو العمل على صحوة دينية تعني إعادة الأمور إلى نصابها الديني.

إن كثيرًا من كتابات المشككين في الصحوة ودورها الحضاري يحاولون بشتى السبل التدليل على أنه لا شأن للصحويين بالنهضة والحضارة والتقدم؛ ولهذا فإنهم بسبب سيطرتهم على الشارع - الجاهل والسطحي - يعوقون المسيرة الحضارية للأمة... **ولعلي في هذا السياق أحاول توضيح عدد من الأمور المهمة:**

أ - حين انهارت الدولة العثمانية، واستولى العلمانيون على مقاليد الأمور في تركيا سادت في كثير من الدول الإسلامية حالة من الضياع واليأس والخوف من المستقبل، وواكب ذلك، وسبقه في بعض الأحيان احتلال بعض الدول الأوربية لعدد من الدول العربية، وافتتن كثير من الناس بثقافة الغرب وحضارته، بل صار كثير من المسلمين يعتقدون أنه لا سبيل للتقدم والتحضر سوى سبيل التقدم الغربي، هنا وجد كثير من الغيورين على هوية الأمة أنه لا بد من العمل على تأسيس ثقة جديدة للمسلمين بدينهم وتاريخهم، وقد بذلت جهود كبيرة في ذلك، وكانت تلك الجهود تشكل الحاضنة الفلسفية والروحية للصحوة الإسلامية المباركة التي بدأت تظهر بقوة بعد أربعين سنة من سقوط الدولة العثمانية بما تشكله من رمز لوحدة المسلمين على أساس غير قومي ولا عرقي.

ب - في الطور الثاني من أطوار الصحوة صار لدى الصحويين - شعور قوي بأن الأمة بلغت درجة حسنة من الفهم لدينها ولهويتها؛ ولهذا فينبغي الاهتمام بأمور النهضة والتحضر على نحو أوضح مما كان في الطور الأول، وإذا نظرنا إلى نشاط التدريب في العالم العربي - مثلًا - لوجدنا أن معظم المدربين إسلاميون، ولوجدنا أنهم يؤكدون - إلى حد الشطط أحيانًا - على النجاح والإبداع والتفوق وإدارة الموارد بكفاءة والتواصل الاجتماعي وغير ذلك مما يدخل في ثقافة النهضة، ونجد القليل والقليل من الدورات التدريبية التي تهتم بالتثقيف العقدي أو الفقهي... كما أن هموم النهضة باتت تشغل بال كثير من المؤثرين في الصحوة، وتسيطر على أحاديثهم وحواراتهم وكتاباتهم.

وأعتقد أن ما تم كان صوابًا؛ حيث إن الأمم حين ترغب في البدء بانطلاقة حضارية

جديدة تكون في أمسِّ الحاجة إلى التعرف على هوياتها وغاياتها العليا قبل أن تبدأ في مشروعاتها العمرانية والصناعية، وهذا يعود إلى أننا - معاشر الإسلاميين - نرى على نحو قاطع أن التقدم الحضاري ليس غاية، فرفاهية الناس والاستقلال الوطني وتوفر السكن والغذاء والدواء والتعليم الجيد وما شئت من الأبنية والمعطيات الحضارية، كل ذلك عبارة عن وسائل لمساعدة الناس على أن يكونوا في وضعية ثقافية ومعيشية تمكنهم من القيام بحقوق العبودية للَّه تعالى والامتثال لأمره ، وهذا يعني أن الحفاظ على الهوية وجعلها أكثر وضوحًا وحضورًا في حياة الناس هو العمل الذي ينبغي أن نبدأ به كما فعل رسول اللَّه ﷺ بالضبط، وهو العمل الذي يجب أن نستمر فيه في كل مراحل البناء الحضاري.

ج - أنا لا أرى وجود أي فاصل ذي قيمة بين الهوية والنهضة، فالبناء الحضاري له شكل ومضمون، وجسد وروح، وإن المنتجات الحضارية من نظم وأشياء ومرفِّهات... تشكل جسد الحضارة، أما الثقافة فهي روحها، وما قيمة جسد لا روح فيه؟ إذا قلنا: إن أركان الإيمان وأركان الإسلام وكل ما هو من قبيل المعلوم من الدين بالضرورة، وكل ما يدور في فلك ذلك من سنن وآداب وجماليات - تشكل قسمات هويتنا، فإن خدمتها هي شيء مهم في العمل النهضوي؛ إذ كلما أكثر المسلمون من الطاعات وابتعدوا عن المعاصي، وساروا على خطى نبيهم ﷺ كانوا سائرين في طريق النهضة بقوة والعكس صحيح؛ ولهذا فالبحث في العلاقة بين الهوية والمنجز الحضاري هو بحث تقني، يقوم على تلمس أفضل السبل لجعل المسلمين يحافظون على ذاتهم المعنوية، كما يحافظون على استقلال بلدانهم في ظل تلبية متوازنة لحاجات الروح وحاجات الجسد.

د - لدى بعض المثقفين العلمانيين نوع من الهلع من توبة بعض زملائهم أو ملايينتهم للإسلاميين؛ لأنهم يريدونها حربًا لا هوادة فيها، وهم يظنون أنهم بذلك يحمون الجهود التنويرية التي يبذلونها من الارتباك والنكوص ، وأنا أستغرب كيف يمكن لمثقف منصف أن يتنكر لاجتهادات الآخرين وجهودهم الإصلاحية؛ لأن هذا التنكر سيدفع خصومه إلى مثل ذلك، وبهذا يكون المثقفون كمن يخرِّبون بيوتهم بأيديهم! ما المشكلة في أن يسمع الفقيه من المفكر والفيلسوف والمثقف... وما المشكلة في أن يسمع كل هؤلاء من الفقيه ما دمنا ننتمي إلى حضارة واحدة، ولدينا الكثير من الهموم والتطلعات المشتركة؟

إن إنتاج الأفكار النهضوية ووضع الخطط الإصلاحية ليس من مهمات الفقيه، كما أنه

ليس من مهمات المثقف بيان أحكام الشريعة، أو إصدار الفتاوى، لكن كلًّا من المثقف والفقيه مطالب بفهم الدور الذي يقوم به شركاؤه في قيادة الجهود النهضوية،وعلى سبيل المثال فإنه ليس من شأن الفقيه وضع خطة للنهضة بالمجتمع؛ لأنه ليس عالم اجتماع، ولا وضع خطة لتنمية اقتصاد البلد؛ لأنه ليس عالم اقتصاد، لكن من حقه أن ينظر في أي خطة في البلد ليتأكد من خلوها من المخالفات الشرعية؛ لأن المطلوب ليس تحقيق أي نوع من النهوض وإلا كانت النهضة غاية في حد ذاتها، وهذا مجافٍ لمنطق الإيمان باللّٰه واليوم الآخر

٦ - الصحوة قامت بتقسيم المجتمع:

من الاتهامات الموجَّهة إلى الصحوة أنها قامت بتقسيم المجتمع إلى مسلم ملتزم ومسلم عادي، وللصحويين تعبيرات عديدة عن هذا التقسيم، وهذا أدى إلى تأزم المجتمع واحتقانه؛ حيث صار الملتزم أو المتدين يشعر بالتميز على غيره، وأن له عليه نوعًا من الولاية في النصح والإصلاح والتوجيه، وهذا أدى إلى شعور المسلم العادي - على حد قولهم - بنوع من الاضطهاد والرهبة من سلطة المتدينين، ولم يكن المجتمع كذلك قبل ولادة الصحوة. وكثير من الكتَّاب والمتعلقين بالعربة الأخيرة من قطارهم يقولون: نحن لم نكن في حاجة إلى الصحوة، فنحن جميعًا مسلمون، وإخوة، ومن الطبيعي أن يكون مستوى الالتزام بأحكام الدين متباينًا بين شخص وآخر...

أنا أعتقد أن الصحوة فعلًا أدخلت على المجتمع مصطلح المسلم الملتزم والمتدين ومصطلح المسلم العادي والمنحرف والمقصِّر... هذا حدث فعلًا، لكن السؤال الذي يُطرح علينا هو: هل هذا الأمر طبيعي أو هو غير طبيعي؟ بل هل يمكن ألا يكون ذلك؟

في البداية أود أن أقول: إن بعض الصحويين قد يبالغون في التصنيف، وقد ينسبون لأنفسهم فضائل ليست لهم، وقد يسيئون إلى غيرهم من خلال عبارة غير مناسبة، أو حكم قاسٍ، أو تصرف غير مهذَّب، كل هذا وارد ومألوف، فالصحوة تيار عريض جدًّا فيه الراشد وغير الراشد، والمتعلم وغير المتعلم؛ ولهذا، فإنني لا أدافع عن الممارسة والموقف والتطبيق...

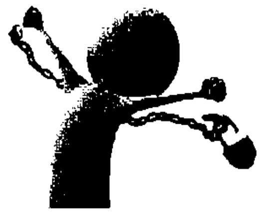
أما على مستوى التنظير، فإن من المعروف أن الأمم حين تكون في حالة بداوة أو تخلف أو أمية، فإن الناس يكونون شديدي الشبه ببعضهم؛ حيث تحكم العادات

والتقاليد، وحيث يكون من هموم الثقافة الشعبية السائدة السيطرة على العنف أو إدارته، وتكون تقوية التلاحم والتضامن الأهلي هي الوسيلة المفضلة لبلوغ ذلك، وهذا كثيرًا ما يكون على حساب الحقيقة الموضوعية التي يجب أن تكون واضحة، وحين يبزغ فجر حركة علمية أو إصلاحية يبدأ ذلك التشابه في الاضمحلال لينقسم الناس إلى فرق شتى، بعضُها يناصر الأوضاع السائدة، وبعضها يمضي مع الجديد، وبعضها يمسك بالعصا من الوسط، ولعل مما يُستشهَد به في هذا الشأن قول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾[البينة: ٤]. قال بعض المفسرين: ما زال أهل الكتاب مجتمعين على الإيمان بمحمد ﷺ حتى بُعث، فاختلفوا، وتفرقوا في شأنه. نعم إن بعثته ﷺ أوجدت حراكًا ثقافيًّا هائلًا، وأثارت ما لدى أهل الكتاب من معارف ومعتقدات، وكانت نتيجة ذلك انقسامهم تجاه الإيمان بمحمد ﷺ، ولماذا نذهب بعيدًا واللَّه تعالى يقول في هذه الأمة: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[فاطر: ٣٢]. وقد رجَّح بعض المفسرين أن المقتصد هو من امتثل الأمر، واجتنب النهي، ولم يزد على ذلك، وأن السابق بالخيرات هو من زاد على ذلك بالتقرب إلى اللَّه تعالى بالنوافل والتورع عن بعض الأمور المباحة، أما الظالم فهو من خلط عملًا صالحًا بآخر سيئ. إذن تقسيم الناس أمر لا بد منه، والمطالبة بإلغائه مطالبة بشيء عسير أو غير ممكن، لكن كما أشرنا من قبل لا بد من الرفق والرحمة والتهذيب والمراعاة في كل ذلك.

لا أريد أن أسترسل في مقولات المناوئين للصحوة، فهي كثيرة وما سقته يشكِّل نموذجًا لها، وإن من منهجيتي عدم التركيز على الفروق والخلافات بين أبناء الأمة عامة والمثقفين خاصة، وذلك لاعتقادي بأن الضرر الذي يترتب على ذلك كثيرًا ما يكون فادحًا، لكن أود أن أقول هنا: إن بعض ما يُتَّهم به الصحويون صحيح، وإن كان لا يصدُق على الجميع، وعلى الصحويين الاستفادة منه بقطع النظر عن انتماء قائله أو قصده، فنحن نريد للصحوة أن ترتقي، وتتقدم ونريد للصحويين أن يحسِّنوا أسلوب أدائهم، وأن يبصروا جوانب التقصير في حياتهم بشكل أفضل.

وعلى اللَّه قصد السبيل

* * *



الصحوة:
نقد ومراجعة

ذكرت فيما مضى أن الصحوة الإسلامية ليست عبارة عن هيكل أو جسم منظَّم، يتمتع بروح وعقل واحد، أو يمضي على منهج موحَّد؛ ولهذا فإن من المهم دائمًا الإشارة إلى أن النقد الذي نوجهه للصحوة لا يصدق على جميع أطياف الصحوة، فنحن إذا قلنا: إن الصحويين قصَّروا في تحسين الوعي السياسي أو الاجتماعي - مثلًا - لا نقصد جميع الصحويين، فهناك من بذل جهودًا مقدَّرة في ذلك، وهناك من الفصائل الإسلامية من تكمن مشكلتهم الأساسية في التعويل على السياسة بوصفها الرافعة الأساسية في مجال التغيير. إذن كل ما يقال في نقد الصحوة قد يصدق على بعض تياراتها وفصائلها وأفرادها، ولكنه لا ينطبق بالتأكيد عليهم جميعًا، لكن حين ننظِّر لمستقبل الصحوة، فإن ذلك التنظير محتاج إلى إصغاء الجميع، الذين يمكن أن يستفيدوا منه، والذين يمكن أن ينقدوه، ويطوِّروه. إن هذا الحراك الهائل في مراجعة إنجازات الصحوة وإخفاقاتها من قِبَلِ أبنائها وخصومها يشير على نحو جدِّي إلى ما تتمتع به الصحوة من ثقل ومركزية في الحياة العامة، وليست دلالات نقد خصوم الصحوة أقل وضوحًا من نقد محبيها وحماتها، وقد صدق من قال: إذا رأيت الناس يرمونك بالحجارة من الخلف، فاعلم أنك في المقدمة !.

لا بديل عن النقد:

على مدار التاريخ كان النقد بالنسبة إلى من يمارسه شيئًا مغريًا؛ لأنه يمنحه تفوقًا، وتميزًا فوريًّا، وعلى مدار التاريخ كان النقد بالنسبة إلى من يمارَس ضدهم شيئًا غير مرغوب، ويجب أن نعترف أن كثيرًا من الصحويين؛ ولا سيما من لهم اتجاه روحي وتربوي منهم، يضيقون بالنقد، وينظرون إلى من يمارسه من الأتباع أو البعيدين على أنهم خصوم أو جهلة أو عملاء، أو حاسدون...، ولهذا فإن عملية النقد عملية حسَّاسة، ولا تنبع حساسيتها من هذا فحسب، بل لا بد من إدراك التوازن في المسألة، فالإسراف في النقد قد يصبح مصدرًا للإحباط والقنوط، وقد يجعل صاحبه يظهر في مظهر الذي لا يحسن سوى الكلام مع الغفلة عن الصعوبات التي تواجه العاملين في الساحة. وقد

مضت سنة اللّـه تعالى في الناس أن ينفروا من النقد في حالات النصر والتمكن، ربما لأنهم لا يريدون لاستمتاعهم بالمنجزات أن يتكدر بأي شيء، لكن الناس ينسون أن النجاح والتغلب على المنافسين من الأشياء التي تُغري بالوقوع في الخطأ من خلال ما توفره من قوة، ومن خلال ما تفرزه من قيادات تاريخية قد تصبح عند بعض الجماعات أهم من المنهج وأهم من الجماعة نفسها؛ ولهذا فإننا نحتاج إلى المراجعة ونحن في قمة نجاحنا؛ لأننا بالمراجعة نوفر وقودًا جديدًا لاستمرار المسيرة، وضمانات جديدة لصواب الاتجاه.

نحن في حاجة إلى النقد حتى نكتشف ما لدينا من أفكار معطوبة، وحتى نضع أيدينا على التطبيقات الخاطئة، ونحن في حاجة إلى النقد كي نفهم عصرنا وما يمليه علينا من تكيف وتطوير، ونحن في حاجة إلى النقد كي نكبح نزوات نفوسنا وتطلعاتنا غير المشروعة؛ وذلك لأن من السهل أن يستولي بعض الناس على مقدرات الدعوة وإمكاناتها، فتصبح في خدمة مصالحهم عوضًا عن أن تكون في خدمة الدين والأمة.

في الفلسفة اقترن العقل بالنقد، وحظيت المهمة النقدية للعقل بالكثير من الإجلال والإكبار؛ ولهذا فإن المتخصص مهما بلغ من التبحر في تخصصه فإنه يظل أقل شأنًا من الفيلسوف ومن المفكر ما لم يمتلك رؤية نقدية للمجتمع والواقع، وما ذلك إلا لأن العلم يساعدنا على أن ننفِّذ الأشياء بطريقة صحيحة، أما النقد، فإنه يدلنا على المجال الصحيح الذي يجب أن نبذل فيه الجهد، وقد قالوا: إن الإنسان بالعلم عرف كيف يصنع السلاح، وكيف يقتل به، لكن الحكمة هي التي تجعلنا نعرف متى نقتل، ونعرف من الذي يستحق القتل

إن النقد عبارة عن عملية جراحية ذات بعد شعوري وفكري، وهو حين يكون جذريًّا، - أي موجَّهًا إلى أصول وكليات واتجاهات عامة - يكون أشبه بجراحة قلب مفتوح أو استئصال ورم سرطاني أو زراعة كبد... ومن ثم فلا بد من ممارسته بكثير من الاحتياط والأناة حتى لا يؤدي إلى تدمير الرؤية العامة للمجتمع، فالقفز في الهواء سهل جدًّا، لكن لا بد من أن نحسب حساب ما قد يترتب عليه من الارتطام بالأرض أو السقوط على جسم حاد، إن النقد يمكن أن يصبح أداة تخريب إذا تحوَّل من وسيلة إلى غاية؛ إذ إن حالنا حينئذ تشبه حال الطبيب الذي يُجري لمريضه عملية جراحية من أجل المال الذي سيحصل عليه، وليس من أجل مصلحة المريض!

في حالات (الركود الحضاري) تذبل ملكات النقد حيث يسود التقليدُ وتجميدُ ما هو حاضر، أما في حالات (الفوران النهضوي) فإن المجتمع كثيرًا ما ينقسم إلى فئتين: فئة خائفة من عواقب التطورات السريعة؛ ولهذا فإنها تنزعج انزعاجًا شديدًا من ممارسة النقد، ومن الطروحات الفكرية الجديدة.. وفئة تمارس التغيير بشيء من الغلو والهيجان، إنها تريد لكل شيء أن يتغير دون أدنى اهتمام بما يترتب على ذلك من تفسخ أخلاقي وفقدان للتوازن الاجتماعي العام. وتدل تجارب كثيرة على أننا في حاجة إلى الكثير من الإخلاص والوعي حتى نجعل من التزاوج بين أنشطة ومواقف هاتين الفئتين شيئًا منجبًا ونافعًا، إن الإخلاص يجعلنا نتحرَّى الحق، ونسعى إلى اكتشافه، كما يجعلنا نرضخ له عند العثور عليه، أما الوعي، فإنه يحملنا على تلمس الحد الذي يجب أن نتوقف عنده في حالة الميل إلى المحافظة على الأوضاع القائمة، وفي حالة الرغبة في التخلص منها، ومن المؤسف أن عقولنا ليست مهيَّأة على النحو المطلوب لإدراك الحد الذي تتحول الفضيلة بعد تجاوزه إلى رذيلة، والصواب إلى خطأ، وهذا يدعونا إلى أن نخفف من حماستنا لآرائنا وطروحاتنا في حال ممارسة النقد وفي حال تلقيه من الآخرين.

أمور تستحق المراجعة:

لا أستطيع في كتاب كهذا الكتاب أن أتحدث عن كل ما أعتقد أن على قيادات الصحوة الإسلامية مراجعته أو تغييره؛ فالتنوع الموجود في تيارات الصحوة يفتح أبوابًا واسعة جدًّا للاختلاف والتباين، وما يترتب عليهما من ممارسات نقدية كثيرة؛ ولهذا فلا بد من الاقتصار على ما نعتقد أنه يتمتع بأهمية خاصة من ذلك، لكن أود أن أؤكد وأوضح دون ملل أن معظم ما نأخذه على الصحوة لا ينطبق على كل تياراتها، وهو حين يصدق على تيارين أو ثلاثة لا يصدق عليها بدرجة واحدة، فحين نقول: إن عند الجماعة الفلانية والفلانية قصورًا في تدعيم الجانب الروحي، فإن كلامنا لا يصدق عليهما بدرجة واحدة، فهناك دائمًا قصور دون قصور

١ - الاستخفاف بالتنظير:

لدى جمهور الصحويين ولع بالعمل والحركة وولع بكثرة الكلام، ولديهم زهد واضح في الأعمال العقلية والثقافية الراقية، ولديهم زهد في التحليل: تحليل الأحداث التاريخية وتحليل الواقع وتداعياته وتشابكاته، ولديهم القليل من الاحتفاء بالكتب والبحوث

العميقة، وهذا كله لا يعني أن غير الصحويين هم أحسن حالًا منهم، فنحن لسنا في سياق التحدث عن الآخرين،وإن كان النظر المدقق يفضي بنا إلى أن معظم الكتَّاب الصحفيين ومعظم الروائيين الكبار، كما أن معظم الذين ينظِّرون للنهضة والتقدم الاجتماعي ليسوا من الصحويين، مع أن حصة الصحوة بين طلاب الجامعات وبين الشرائح الثقافية الدنيا أكبر من حصة أي اتجاه آخر ، وهذا حمل بعض المناوئين للصحوة على القول: إن الصحويين غير مثقفين بالقدر الكافي، بل إنهم يضمرون نوعًا من العداء للثقافة الراقية. وأنا ألمس الاستخفاف بالفكر المتقدم لدى كثير من الصحويين من خلال ما نشر لي من كتب ومقالات، فإذا كانت لغة الكتاب أو المقالة تميل إلى شيء من الصعوبة، قلَّ الذين يطالعونه، وإذا طالعوه على(الإنترنت) لم يعلقوا عليه، أو شككوا فيه بسبب عدم استيعابهم له، وإذا كانت لغته تميل إلى السهولة والبساطة كثر القراء والمعلقون. ادخل إلى المكتبات الإسلامية، وانظر إلى ما تقدمه دور النشر الإسلامية وقارنه بما تمت ترجمته من كتابات المستشرقين وغيرهم من الغربيين لترى صدق ما أقول. وإذا كان هذا ثابتًا فعلًا، فما الأسباب التي ولَّدت هذه الظاهرة المحزنة ؟

في ظني أن لهذه الظاهرة عددًا من الأسباب، منها:

أ - لدى كثير من الشباب المسلم اعتقاد بأن ما لدينا من آراء ونظريات وتحليلات في مجال الدعوة والإصلاح ومقاومة الشرور كافٍ بل فائض عن الحاجة؛ ولهذا فإنهم يتضايقون من التحليل والتفلسف وذكر الأسباب والعلاقات بين الظواهر المختلفة، وبعضهم يقولون: إن أسلافنا أسسوا حضارة ونشروا العلم في العالمين، ولم يكن لديهم إلا قدر يسير مما لدينا من أفكار ومقولات إصلاحية.

والحقيقة أن ما لدينا - على الصعيد الإسلامي العام وعلى صعيد الصحوة - من رؤى ومفاهيم أصيلة وعميقة ومتقدمة في مسألة الإصلاح أقل بكثير مما لدى غيرنا، وهذا يعود أساسًا إلى قلة أعداد الباحثين والكتَّاب في مسألة النهضة، كما يعود إلى ضعف تأهيلهم العلمي وتدريبهم العملي، وهذه حقيقة واضحة وضوح الشمس.

ب - لدينا ألوف الكتب التي تعرض معلومات مكررة وجزئية في مختلف العلوم الشرعية والإنسانية،لكن ليس لدينا إلا القليل جدًّا من الكتب الجيدة التي تتحدث عن سنن اللّـه تعالى في الخَلق وعن الطبائع التي فطر الأشياء عليها، والقليل جدًّا من الكتب

التي تتحدث عن تحليل كارثة توقف الحضارة الإسلامية عن العطاء، والكتب التي تتحدث عن حكمة التشريع وتاريخه، والقليل من الكتب التي تحلل تحليلًا عميقًا بعض الظواهر الخطيرة التي تعصف بالأمة اليوم؛ كظاهرة الاستبداد وتبعاته الجسام وظاهرة استخدام السلاح وسيلةً للإصلاح والتغيير..، إن الصحوة متهمة بأنها هي التي أفرزت ظاهرة العنف، كما أن الصحويين هم أكثر من اكتوى بنارها على مستويات مختلفة، ومع هذا فلم نبذل جهدًا ذا قيمة في استكناه جذور هذه الظاهرة وأسبابها ومراحل تطورها وكيفية العمل على عزل الذين يعملون على استمرارها.... السبب في هذا هو سهولة الحديث في الأمور الجزئية، وصعوبة صياغة الرؤى والنظريات الكلية، وصعوبة فهم الظواهر المعقدة والمتداخلة، وهذا غير مستغرب في ظل وجود تعليم عام ضعيف يكيل الدرجات، ويمنح الألقاب العلمية الكبيرة دون أي شعور بالمسؤولية!

ج -أذكر أنه عند بدايات الصحوة كانت هناك مقولات شعبية سائدة، تصور أهل الدين بأنهم لا يصلحون لدراسة التخصصات العلمية الراقية؛ كالطب والهندسة، وهذا طبعًا في بعض البلدان، وكان الرد من الصحويين الأوائل سريعًا؛حيث اتجهت أعداد كبيرة من الشباب للالتحاق بالكليات العلمية، كما أن سوق العمل لا يحتاج إلا إلى القليل من ذوي التخصصات الأدبية والإنسانية، والحاصل هو انصراف أصحاب المواهب الفذة والهمم العالية من شباب الصحوة عن دراسة العلوم الشرعية والإنسانية، وهذا أدى إلى قلة الباحثين الممتازين في هذه المجالات، مع أن النبوغ في العلوم البحتة أسهل من النبوغ في العلوم الإنسانية؛ إذ إن في الإمكان الحصول على جراح ممتاز جدًّا وهو في سن الخامسة والثلاثين، لكن العثور على مؤرخ أو فيلسوف أو مفكر ممتاز لا يكون – في العادة – قبل بلوغ سن الخمسين.

العلوم البحتة بالنسبة إلى بناء الحضارة أشبه باليد التي تعمل، أما العلوم الشرعية والإنسانية عامة، فهي أشبه بالدماغ الذي يفكر؛ ولهذا فإذا أردنا للصحوة أن تصبح غنية بالمفكرين والنهضويين الكبار، فلا بد من توجيه أنبه أبنائنا وأعظمهم همة إلى الانخراط في الدراسات النظرية أنا لا أعمم، ولا أرتضي التعميم، لكن قصور التنظير والتحليل يشكل ظاهرة واضحة لدى الصحويين، وإن عليهم العمل على معالجتها.

٢ – الارتباك في التعامل مع التيار العنيف:

المراد بالعنف باختصار هو الاستخدام غير المشروع للقوة المسلَّحة، وهذا يعني

إخراج مقاومة المحتل والغاصب من المسألة؛ لأن حماية الأوطان وتحريرها والذود عن الحقوق واسترجاعها مطلوبة شرعًا. الصحوة متَّهمة بأنها هي التي بذرت بذور العنف في المجتمعات الإسلامية، ومن محاضنها التربوية تخرَّج كثير من الذين مارسوا العنف، وما زالوا يمارسونه في عدد من البلدان الإسلامية، ويبدو أنني أظل مضطرًا إلى القول: إن كلامي لا ينطبق على كل الصحويين، فنحن نعرف أن هناك من استنكروا كل الأنشطة العنيفة من أول يوم، لكن هؤلاء لا يشكِّلون الشريحة الكبرى من أبناء الصحوة. الأكثرية كانت ما بين صامت عن التصرفات الغالية والعنيفة، وبين مجامل للشباب وخائف من انفضاضهم عنه، وهناك من قيادات الصحوة من ساهم في قيادة بعض الأعمال العنيفة، كما أن في الصحويين من كان يبدي نوعًا من الشماتة بأولئك الذين مُورس - ضدهم العنف من قِبَل بعض أبناء الصحوة. ولعلي أشير في هذه القضية المهمة إلى بعض الأمور الأساسية:

أ - علينا ونحن نتحدث عن العنف أو ما صار يطلق عليه اليوم (الإرهاب) أن نكون حذرين من أن نرسل رسالة خاطئة إلى أولئك الذين يمارسون العنف، ففهم العلل والأسباب والظروف التي تحيط بهذه الظاهرة، لا يهدف إلى تسويغها أو إبراء ذمة المتورطين فيها، إنهم مخطئون بكل المقاييس وكل الاعتبارات، وهم يستخفون بدماء الأبرياء من شيوخ وشباب وأطفال ونساء، ولو وعوا الإنذار الرباني لمن يستبيح الدماء البريئة لفكَّروا ألف مرة قبل أن يُقدموا على ما يقدمون عليه، وإن رسول اللّـه ﷺ قد وضَّح بجلاء شديد أن قتل الناس يتربع على قمة الموبقات الخطرة حين قال: « لن يزال المؤمن في فُسحة من دينه ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا »[1]. يقول ابن العربي: « الفسحة في الدين: سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت؛ لأنها لا تفي بوزره ». وقد سمعت من يقول: إن الشباب الذين يستخدمون السلاح في التغيير أو في محاولة إقامة الدولة الإسلامية مستعجلون، فالظروف لم تنضج بعد، وهذا في نظري خطأ، فطريق العنف طريق مظلم ومسدود ولن يكون في يوم من الأيام غير ذلك.

ب - العنف شيء لصيق بحياة الكائنات الحية عامة؛ حيث لا تمر ثانية واحدة دون أن يُلتهم كائن حي من قبل كائن آخر، وإن المجازر الرهيبة التي وقعت في رواندا والبوسنة

(١) رواه البخاري.

والعراق والصومال وأفغانستان وغيرها - تدل دلالة واضحة على أن الرقي والتقدم الحضاري الذي أحرزه الإنسان في القرن العشرين ليس سوى قشرة رقيقة، وتحت تلك القشرة يكمن وحش كاسر، ينتظر الفرصة حتى يكشف عن طبيعته؛ ولهذا فيجب أن نتعامل مع العنف على أنه الشيء الذي يجد بنو الإنسان الإمكانية المستمرة لتسويغه وإضفاء المشروعية عليه.

الصحوة في حاجة ماسَّة إلى أن تحصن أتباعها من الانخراط في دوامة العنف من خلال العلم الصحيح والتربية الراشدة. وما أجمل قوله ﷺ: « **يا عائشة! إن اللَّـه رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه** »[1]، وقوله: « **إن اللَّـه ﷻ يحب الرفق، ويرضاه ويعين عليه ما لا يعين على العنف** »[2].

ج - لا تستطيع الصحوة التبرؤ من الشباب الذين يمارسون العنف، فهم محسوبون عليها، وإن كانوا لا يشكلون واحدًا في الألف من الصحويين، لكن علينا أن نقول أيضًا: إن (العنف) من الظواهر الكبرى الموجودة لدى المسلمين ولدى غيرهم، والظواهر الكبرى لا تُفسَّر بعامل واحد، وإذا أردت أن تعرف أين يترعرع العنف، فانظر إلى الأماكن الذي يترعرع فيها الفساد المالي والإداري، والأماكن التي تسود فيها الرشوة مع غياب العدالة الاجتماعية. العنف يترعرع حيث يسود الاستبداد، وحيث يحصل انسداد في الأفق السياسي، وحيث يصبح الكلام عن الأخطاء جريمة كبرى.. **إن هناك نقطة مهمة جدًّا، هي أن (العقيدة) وحدها غير كافية لتأجيج حركة احتجاجية عنيفة، يعرِّض فيها المحتج حياته لهلاك مؤكَّد، لكن العقيدة الدينية يمكن أن تكون الأساس لحركة احتجاجية، ولهذا فإن الإصلاح وتوسيع دوائر النقد وحرية التعبير من الأمور التي تخفف من التعانف الاجتماعي**، وكلما وجدَت المنافذ والآليات المشروعة للتغيير والإصلاح تراجع استخدام العنف، وإذا وجد في المجتمع طائشون أو مأجورون من أجل تعكير صفو الأمن العام، فإن المجتمع يرفض التستر عليهم وتقديم الدعم لهم.

د - العنف نوعان: معنوي ومادي، وإن العنف المعنوي هو الأساس الذي يمهد الطريق للعنف المادي، والسلام - كما يقال - والحرب يبدآن في عقول الناس أولًا، وينتهيان في عقولهم أولًا، ومن هنا فإن على الصحوة أن تحذر من التأسيس للعنف

---

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح الترغيب والترهيب للشيخ الألباني.

الرمزي والمعنوي، وذلك من خلال الرؤية الحولاء للواقع ومن خلال التربية الخاطئة. حين تقوم جماعة بإفهام شبابها بأنهم الشباب الأتقى والأصلح، وأن منهجها هو أفضل المناهج، وأن اجتهاداتها هي الأقرب إلى الصواب، وأن العالم كله يتآمر على المسلمين... وأن علماء الشريعة هم عبارة عن عملاء للحكومات أو أصحاب أهواء... إنها حين تفعل ذلك أو شيئًا منه، فإنها تهيِّئ أتباعها لممارسة العنف المادي، والذي يعني استخدام وسائل مادية لحل الخلافات وتغيير الأوضاع السائدة. إن كثيرًا من الشباب يستخدمون العنف لأنهم يظنون أنه الطريق الأقصر لتحقيق الأهداف الإسلامية الكبرى، وهم بذلك واهمون، والتاريخ يشهد لذلك، فطريق الإصلاح بطبيعته طريق طويل؛ لأنه يقوم على التربية والتعليم والدعوة وتحسين المناخ العام على الصعيد الاجتماعي والاقتصادي، ومن المعروف أن الأفكار تحتاج إلى ثلاثة أجيال حتى تنزل من أعالي النظر لتتجسد في السلوك اليومي للناس.

هـ - لدى الناس أهواء وأفكار ومصالح متضاربة؛ ولهذا فإن اجتماع الإنسان مع الإنسان يولِّد الكثير من التوتر والنزاع، ومن هنا فإن براعة الصحويين تظهر في الطريقة التي يتبعونها في إدارة العنف والسيطرة على النزعة العدوانية التي قد تنشأ لدى بعض الشباب الملتزم أو في المجتمع على نحو عام، وأعتقد أن توضيح الحقوق والواجبات الاجتماعية على نحو جيد - بالإضافة إلى إشاعة روح التفاوض والحوار وروح العفو والتسامح - من الأمور المهمة في كبح جماح العدوانية، كما أن التسليم لأهل الاختصاص من الفقهاء وعلماء الشريعة فيما يقولونه، وتوفير فرص للتعبير عن الذات والطموحات وتوسيع مساحات النقد الاجتماعي والسياسي ومواجهة الفساد بقوة.. إن كل هذا سوف يقلل من الدوافع إلى ممارسة العنف، كما أنه سيسحب من ممارسي العنف ما حصلوا عليه من مشروعية أخلاقية وثقافية في المرحلة الماضية

٣ - تراجع في الجهد التربوي:

هل نستطيع أن نقول: إن الصحويين كانوا في بدايات الصحوة أكثر اهتمامًا بتربية الناشئة والأتباع منهم اليوم؟

نحن في الحقيقة لا نعرف الكثير عن حال التربية في أماكن عديدة من العالم الإسلامي، ومن الصعب التحدث حولها، لكن أعتقد أن المنطقة العربية - على الأقل - قد شهدت فعلًا تراجعًا ظاهرًا في الحماسة لبذل الجهد التربوي، وفي درجة فاعلية المحاضن التربوية،

وحين أعود بذاكرتي إلىّ السبعينيات من القرن الميلادي المنصرم أشعر بقوة بذلك، فقد كان هناك ما يشبه الرهان غير المكتوب على أنه يمكن للجهود التربوية المكثفة أن تغير مزاج المجتمع وتحدث فيه انقلابًا سلميًّا؛ ولذلك فقد كانت المساجد تعج بالأنشطة التعليمية المحمَّلة بأشكال من العناية التربوية، كما أن ما لا يحصى من اللقاءات الأخوية كان يتم في البيوت، وكان لذلك كله أثر كبير في إعداد نماذج رفيعة من الشباب المستقيم الملتزم في سلوكه الخاص، **لكن هذا كله قد تراجع لدى كثير من الجماعات والتيارات الإسلامية، وأعتقد أن ذلك التراجع يعود إلى عدد من الأسباب، منها:**

أ - عند بدايات الصحوة كان كثير من الشباب يشعرون وكأنهم في بدايات ثورة نبيلة، فترى الحماسة للعطاء، والألفة بين أفراد مجموعات تشعر بضغوط الغربة عن المجتمع، إنهم يرون أن لديهم شيئًا فريدًا وقيِّمًا يستحق التضحية، وكان من الطبيعي أن لا تستمر هذه الفورة المشاعرية بعد أن كَثُـرَ المهتدون، والملتزمون بما تدعو إليه الصحوة، وقد كان الفتور أحد النتائج السلبية التي ترتبت على نجاح الصحوة. فتور المشاعر يؤدي قطعًا إلى تراجع الجهد التربوي الذي يحتاج إلى الكثير من الحماسة والصبر؛ وذلك لأن التربية مثل الحرب تحتاج إلى الرجل المكِّيث.

ب - كانت الجماعات الإسلامية على اختلاف مشاربها هي التي تتولى تربية الشباب، ويشاركها في ذلك طبعًا مشايخ وطلاب علم وأئمة مساجد ودعاة لا ينتمون إلى أي جماعة، وكان من السائد الاعتقاد بأهمية تلقي العلم والتربية عن شيخ أو مربٍّ، وكانت هذه الفكرة - وما زالت - أصيلة لدى الجماعات الصوفية، لكن المصادمات التي وقعت بين بعض الجماعات الإسلامية وبين حكوماتها جعلت الانتماء إلى جماعة أو التردد على مسجد بعينه أو حضور دروس منتظمة فيه.. شيئًا مكلفًا أو خطيرًا، وهذا قلَّص الحماسة للانتماء إلى الجماعات والتلمذ على المشايخ، مع أن تغيير الأخلاق والعادات يحتاج إلى احتكاك ومعايشة، ويحتاج إلى بيئة وجوٍّ تربوي، وهذه هي أزمة التربية على مدار التاريخ؛ لأن التربية تحتاج إلى أعداد هائلة من المربِّين بخلاف التعليم، وعلى كل حال فقد صار لدينا أعداد هائلة من الشباب المتعلم الملتزم بالإسلام والمحب له، لكنهم لم يتعرضوا لأي تربية روحية أو دعوية، ولا يخفى أيضًا أن كثيرًا من الجماعات فقدت لأسباب مختلفة جاذبيتها التنظيمية مما أدى إلى عدم مواكبة نموها للزيادة السكانية في بلادها.

ج - لدينا معاناة قديمة لا علاقة لها بالصحوة، وتلك المعاناة أننا إذا نفرنا من اتجاه أو علم نفرنا منه بالكلية غير مهتمين بالبحث عما قد يكون فيه من خير وصواب، ونحن نعرف - على سبيل المثال - أن الوعي الإسلامي جفل من(الفلسفة) في وقت مبكر من تاريخ الأمة بسبب تجاوز بعض الفلاسفة المسلمين لبعض الأصول والعقائد، وقد كان الجفول عامًّا، وقد فاتنا بذلك الكثير من الخير حيث صارت رؤانا لكثير من الأمور تميل إلى السطحية، كما صارت تحليلاتنا فجة ومستعجلة؛ وذلك لأن من الفلسفة فهم السنن الربانية في الخلق وفهم طبائع الأشياء وخفايا النفس البشرية وفهم العلاقات بين الأسباب والمسببات والتفكر في فقه المآلات...

وهذه أمور ضرورية جدًّا للتنظير وتحليل أسباب المشكلات وبلورة الرؤى الجديدة، وهذا ما حدث مع الاتجاه السلفي بالنسبة إلى (التصوف)؛ حيث إن السلفية قامت على تمحيص الأدلة وتخليص الأمة من البدع والخرافات والشوائب وقد قدَّمت بهذا وغيره للأمة والمنهج الإسلامي شيئًا كبيرًا ومهمًّا، لكن يلاحظ جفول الوعي السلفي من (التصوف) بقضِّه وقضيضه، حيث صارت هذه الكلمة لدى كثير من شباب السلفية من الكلمات التي لا ينبغي ذكرها إلا في مقام الذم، ومع أن لدى كثير من الجماعات الصوفية شيئًا من الانحراف على مستوى العقيدة والتصور، وعلى مستوى السلوك - بدرجات متباينة جدًّا - إلا أن من المهم ألا ننسى أن للصوفية عناية فائقة بأمور جوهرية تتصل بالتربية الروحية والتي تكتسب اليوم أهمية إضافية بسبب ما تحدثه العولمة من تخريب للقيم وبسبب التيار الشهواني الهائل الذي يجتاح كل شيء.

إن الصوفية يهتمون بأمور مثل محاسبة النفس والتوبة والإكثار من ذكر اللّـه تعالى وترسيخ الحب والشوق إليه والخوف والحياء منه، كما يهتمون بمعانٍ مهمة، مثل: التوكل والرضا بالقضاء والقدر والصبر والتربية الإيمانية عامة... وقد أدى هذا النفور من التصوف عامة إلى أننا نجد اليوم درجة عالية من الجفاف الروحي لدى كثير من شباب الصحوة ذوي النزعة السلفية، وهذا الجفاف على خطورته يؤدي إلى شيء آخر أيضًا خطير وهو الحرص على المظهر في أمور التدين وإهمال الباطن والجوهر، مع أن كل العبادات في الإسلام تهدف إلى تقوية الصلة باللّـه تعالى وإجلاله والفرح بقربه.. ولا ننسى إلى جانب هذا أن أكبر عالِمين نالت أقوالهما وأدبياتهما رضا السلفية المعاصرة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، كان موقفهما من (الصوفية) موقفًا تفصيليًّا،

وليس مجملًا، كما أن كِلَا الرجلين كان على مستوى السلوك الشخصي شديد الاهتمام بالمعاني التي يهتم بها المتصوفة.

وقد حدث لكثير من الصوفية مثل ما حدث لجمهور السلفيين، لكن على نحو معاكس؛ حيث صار ذم السلفية (أو ما يطلقون عليه « الوهابية ») لديهم جملة وتفصيلًا وإلحاق شتى التهم بها شيئًا معتادًا ومألوفًا، وقد حرموا أنفسهم بذلك من أمور جوهرية جدًّا في التدين واتباع المنهج الرباني القويم، وأعتقد أنه قد آن الأوان لأن يقوم أولو البصيرة والرؤية النافذة من كلا الاتجاهين بمراجعة تامة لذلك؛ كي تستعيد السلفية ما فقده كثير من شبابها من الألق الروحي والاهتمام بتزكية النفس، وكي يستفيد الصوفية من الإضافات الكبيرة التي قدمتها السلفية للأمة على مستوى العقيدة وتمحيص الأدلة والالتزام بالأصول واحترام قول الفقيه

د - إذا عدنا إلى الوراء عشرين سنة، فسنرى أن النشاط التربوي كان هو النشاط الفطري والمباشر الذي يمكن لأبناء الصحوة القيام به إلى جانب النشاط المسجدي، أما النشاط الإعلامي فقد كان محدودًا بسبب قلة المتخصصين فيه من الإسلاميين وبسبب تكلفته العالية، والأهم من هذا وذاك صعوبة الحصول على أذونات بإنشاء جرائد أو مجلات، وقد تغير هذا اليوم، فقد صار النشاط الإعلامي على (النت) شبه مجاني، وهناك إمكانية كبيرة لإنشاء إذاعات وقنوات فضائية بتكاليف ليست باهظة، وهذا - في نظري - أثَّر كثيرًا في الأنشطة التربوية؛ حيث إن من الملاحظ انصراف أعداد كبيرة من مشاهير الدعاة إلى الاهتمام بالخروج في الفضائيات، كما نرى كثيرًا من مشاهير الصحويين اتجهوا إلى العمل في المؤسسات الإعلامية الإسلامية الناشئة، وصرنا نسمع في بعض أوساط الصحوة عن (صناعة النجوم)، فالذين يظهرون في الفضائيات، ويتحدثون في الإذاعات يحصلون على شهرة سريعة وواسعة، ولا يملك العمل في المجال التربوي ذلك.. كما أن ثمار الجهد التربوي قد لا تظهر إلا بعد حين على خلاف ما يتم في المجال الإعلامي.

إنني لا أخفي ابتهاجي بالتقدم الذي يحدث في مجال الإعلام الإسلامي والمحافظ، لكن علينا أن نتذكر أن الإعلام ينشر المعرفة ويحسِّن وعي الجماهير، لكنه لا يحسِّن السلوكيات، ولا يغير العادات، ومن ثم فإن ازدهار الإعلام لا يجوز أن يكون على حساب التربية في حال من الأحوال.

هـ - يلاحظ على نحوٍ عامٍّ تراجع الاحتساب في الجهد المبذول من أجل الدعوة والتربية والتعليم، فقد نحتاج إلى من يشرف على تربية عشرة من أطفال الحي، ويكون لدينا طلاب في الجامعات ومدرسون ومتعلمون ممن يصلحون لذلك، ثم لا يتقدم منهم أحد لذلك مع أهميته وعظم المثوبة عليه، وهذا قديعود إلى ضغوط العيش المتزايدة، وحاجة معظم الناس إلى الوقت كي يعملوا في شيء يوفرون من خلاله مصروفات لأسرهم، وهذا تعليل جزئي في الحقيقة؛ إذ ينبغي أن نعترف أن العولمة قد زادت في طموحاتنا، وجعلتنا بالتالي أكثر دنيوية، وحين تصبح الطموحات واسعة جدًّا، فإن الفقراء والأغنياء يستوون في شدة طلب المال والعزوف عن التطوع !

الخلاصة:

نحن الصحويين مطالبون أكثر من أي وقت مضى بالاهتمام بالتربية الروحية والاجتماعية، وإعداد الجيل الجديد للحياة من أفق رؤيتنا الجديدة للفرص المتاحة والتحديات الماثلة.

٤ - قصور في فهم الواقع:

لا ريب أن لدينا مثقفين ممتازين واعين بتعقيدات الواقع الإسلامي ومدركين لما يجب القيام به، لكن هؤلاء لا يشكِّلون سوى نسبة ضئيلة بين صانعي الخطاب الإسلامي والساعين في طريق الدعوة، ومن واجبي قبل كل شيء أن أقول: إن فهم الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي لم يكن في يوم من الأيام سهلًا، وكل ما يقال في ذلك عبارة عن اجتهادات، ووجهات نظر، ولا أريد أن أتوسع في شرح الأسباب التي تجعل من فهم الواقع تحديًا قائمًا ومستمرًّا، لكن أود أن أقول: إن الخطأ في فهم الواقع وتحليله شيء مشترك بين الصحويين وغيرهم، لكن بما أننا نتحدث عن الصحوة، فإننا نفرد الحديث لقصورنا وخطأنا.

وقد يقول قائل: إذا كان فهم الواقع صعبًا فلماذا نلوم أنفسنا؟

الجواب هو: أن لدينا صورًا صارخة من الجهل بالواقع، على الرغم من أن المنهج الرباني الأقوم قد ملَّكنا الكثير من الأدوات التي تساعدنا في ذلك.

وقبل أن أتحدث عن قصورنا في فهم الواقع أود أن أقول: إنه كلما كانت الظاهرة التي نريد فهمها أكبر كانت المهمة أصعب، ففهم الواقع السياسي والاجتماعي... لمدينة

أسهل من فهم واقع دولة، وفهم واقع دولة أسهل من فهم واقع منطقة أو قارة؛ ولهذا فإننا حين نتحدث عن الواقع الإسلامي العام نقع في الكثير من التعميم، والكثير من الوهم والخلط

ومن وجه آخر فإن ثورة الاتصالات الحديثة وتداخل مصالح الأمم والدول جعل عزل ما هو محلي عما هو إقليمي وعالمي أمرًا في غاية الصعوبة، وقد دلت الأزمة المالية التي ضربت العالم مؤخرًا، كما دلَّ ما يسمى الحرب على الإرهاب وتجفيف منابعه على شيء واحد هو ضرورة فهم المحلي في ضوء العالمي، وضرورة حساب تأثير الإقليمي والعالمي عند الإقدام على أي عمل كبير أو خطوة حاسمة، وإن تجاهل هذا المعنى سيعني دائمًا القليل من الإنجازات والكثير من المآسي.

من مظاهر قصور فهم الواقع:

لا أستطيع في كتاب يراد له أن يظل متوسطًا في حجمه تناول كل ما أظن أنه يشكِّل قصورًا في إدراك الواقع وتحليله، **مما يدفعني إلى تقديم بعض النماذج عبر المفردات التالية:**

أ - **التخمين عوضًا عن البحث:** حتى لا نقسو على الصحوة فإن عليَّ أن أشير إلى أن هذه المشكلة موجودة لدى معظم الشعوب الإسلامية؛ لأنها مشكلة مرتبطة بالتخلف؛ حيث إن البلاد المتخلفة تدرك مشكلاتها عن طريق التخيُّل والتخمين، أما البلاد المتقدمة فإنها تدرك مشكلاتها عن طريق البحث والإحصاء والاستقصاء المنهجي لكن بما أن المؤسسات الصحوية والجماعات الدعوية أخذت على عاتقها النهوض بالأمة، فإن عليها أن تمتلك من الأدوات والمنهجيات ما لا تملكه الأمة، وإلا فكيف ستقوم بدورها؟!

الأرقام تتحدث دائمًا عن الواقع بلغة أوضح وأدق من الكلام الإنشائي الذي نستخدمه في المناسبات العامة، ولكن الأرقام تظل قابلة للتزوير دون أن يشعر أحد؛ ولهذا فلا يكفي أن تستخدم أرقامًا ينتجها الآخرون، وإنما عليك أن تقوم بالمسوحات الإحصائية التي توفر لك الأرقام التي تحتاجها في عملك، وهنا تكمن مشكلة كثير من الجمعيات والجماعات والمؤسسات والدوائر الإسلامية الرسمية والشعبية؛ إذ إن من المتوقع أن يكون لها مراكز بحوثها الخاصة التي تقوم بالدراسات والبحوث التي

تمكِّنها من تصور الواقع على ما هو عليه، ولا سيما ما يتصل ببؤر اهتماماتها وأنشطتها، فالجمعيات الخيرية - مثلًا - تحتاج إلى أرقام معبرة عن حجم مشكلات الفقر والبطالة والمرض، والمؤسسات الدعوية والثقافية تحتاج إلى أرقام تكشف لها واقع الاستقامة والانحراف في المجتمع، وما يكشف عن مشكلات الشباب، وما يتصل بالقراءة والكتابة والأمية... كما تحتاج إلى أن تقيس التطورات الثقافية المتصلة بالطموحات الجديدة وبالعادات والتقاليد الموروثة...

لكن من المؤسف أن نقول: إن معظم المؤسسات الصحوية ليس لديها أي باحثين، ولم تقم بدراسات توفر لها أي معطيات رقمية موثوقة؛ ولهذا فإن خبراتها بالواقع واتجاهات الناس والتطورات التي تطرأ على أخلاقهم وسلوكياتهم... مضطربة وغائمة، وصارت التصورات تابعة للأمزجة، فالمتفائلون من أبناء الصحوة يرون الجوانب المشرقة من حال الأمة، ويتحدثون عنها باستفاضة، والمتشائمون يرون نقاط الضعف والانكسار ويبثون من خلال الحديث عنها اليأس والقنوط ! المطلوب من كل مؤسسة صحوية أن يكون لديها مركز بحوث يقوم بخدمة أنشطتها، ولو كان ذلك المركز مكونًا من موظف متفرغ وموظفين متعاونين أو عاملين بدوام جزئي، وإلا فإننا نظل كمن يسدد على هدف متحرك، أو كمن يرمي دون أي تسديد!

ب - الانشغال بإنجازات السلف: نحن نحترم كل جهد يُبذل في خدمة هذا الدين وهذه الأمة، لكن علينا أن ندرك أننا أبناءُ القرن الخامس عشر الهجري، وأن الناس قد ملُّوا من الحديث عما قام به الآباء والأجداد، كما ملُّوا من الحديث عن الخصائص والميزات التي حصلنا عليها بسبب أننا مسلمون، الناس في الداخل والخارج يتحدثون، أنهم جميعًا يريدون أن يروا إنجازات المنهج الرباني على أيدي أبناء الصحوة المعاصرة، ويريدون لمس المكاسب التي يوفرها التدين لأبنائه في عصرنا الحاضر، وفي هذا السياق نجد - مثلًا - أنه كلما تطرق الحديث إلى (المرأة)، وما يتصل بها من شؤون وشجون قام من يدبِّج لك خطبة عصماء عن أحوال المرأة في الجاهلية وكيف حررها الإسلام، وأعاد إليها كرامتها المسلوبة، وكلما قام من يتحدث عن حقوق الإنسان المصونة لدى الأمم الصناعية المتقدمة؛ قام من يحدثك عن حقوق الإنسان في الإسلام، وكيف أنه هو الذي وضع أسس التفكير بتلك الحقوق، وأن تلك الحقوق أوفر وأعظم من الحقوق التي بلورتها هيئات الأمم المتحدة..

إن مناوئي الصحوة ينظرون إلى تناول الأمور بهذه الطريقة على أنه نوع من الهروب إلى الأمام من أجل تجاوز واقع إسلامي رديء المطلوب اليوم ليس التحدث عن تكريم الإسلام للإنسان، فهذا من المسلَّمات التي ينبغي أن نفرغ من الحديث عنها، وإنما المطلوب التحدث بوضوح وقوة عن حال حقوق الإنسان في العالم الإسلامي والتحدث عما يتعرض له الإنسان المسلم من إهانة بالغة وظلم شنيع في بلده، وعلى أيدي أبناء جلدته . إن الآخرين يقولون: إن المرأة في العالم الإسلامي اليوم تذوق الويلات بسبب تعسف الآباء والأزواج، وبسبب التقاليد البالية التي لا يقول بها عقل ولا نقل، وإن علينا أن نصغي إلى ذلك، ونحدد موقفنا منه سلبًا أو إيجابًا، ثم نبادر إلى عمل ما يجب عمله.

ج - **رجال إطفاء يقولون**: إن البنية العميقة لعقلية الإنسان البدائي (الخام) تقوم على الحذر من الأمور الطارئة والحادة، وحين يرتقي الإنسان فإن التدريب العقلي الذي يظفر به يحفزه على الحذر من المشكلات المستمرة والتغيرات البطيئة، وإذا كان هذا الكلام صحيحًا - وأعتقد أنه صحيح - فإن كثيرًا من أنشطة الصحوة مرتبط بالأمور الصغيرة الطارئة، فأنت ترى أن (إعلام الصحوة) كثيرًا ما يكون مشغولًا برد الفعل على قرار اتخذته الجهة الفلانية، أو تصريح صدر عن المسؤول (الفلاني) أو مقال كتبه العلماني الفلاني، أو فتوى شاذة منقولة عن فلان من العلماء، ومع أن مجابهة الشرور مطلوبة؛ لأن السكوت عنها يشجِّع على المزيد منها، لكن علينا أن نسأل أنفسنا عن مواقفنا ومبادراتنا تجاه القضايا الكبرى في المجتمع وتجاه التغيرات البطيئة التي تفتك به، وهذه القضايا والتحديات منها ما هو ظاهر للعيان، ومنها ما هو دقيق، **ولعل منها الآتي**:

- انتشار الكذب والرشوة والتحايل على النظم السارية.
- الاهتمام الزائد بالشأن الشخصي لدى معظم الناس، وانحسار نسبة المهتمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- اتساع الفجوة بين الأغنياء والفقراء وتضاؤل مساحة الطبقة الوسطى.
- انخراط المزيد من الناس في طريقة العيش التي يتبعها الغرب دون تمييز بين الجيد والرديء.
- تجذر معنى الاستمتاع إلى ما لا نهاية في نفوس كثير من الناس وميل الطموحات والتطلعات إلى أن تصبح أكثر دنيوية.

- انتشار العنف في صفوف بعض الصحويين وعدم القدرة على اتخاذ موقف واضح وقوي منه من لدن الباقين.

- تعثر عمليات الإصلاح السياسي في معظم البلدان الإسلامية.

- تفكك الأسر وارتفاع نسبة الطلاق.

- تدهور التعليم في كل مراحله.

- تراجع الاهتمام بالعربية ونشوء أجيال لا تحسن استخدامها، وتنامي ضغوط اللغات الأجنبية والعاميات عليها.

- ارتفاع نسبة العداء للإسلام والمسلمين في الغرب وصدور المزيد من القوانين الضاغطة على الجاليات الإسلامية هناك... أنا لا أريد حصر كل التحديات والهموم، كما لا أريد أن أقول: إن الصحويين غافلون عن كل هذه الأمور، لكن الذي أريد قوله بالتحديد: إننا نتكلم في هذه الأمور كلامًا عائمًا يفتقر إلى الفهم العميق وإلى التركيز، وإنني أعتقد أن الكلام عن كل شيء يشبه عدم الكلام؛ ولهذا فإنه لا بد من ترتيب المشكلات وتحديد ما يمكن تسميته (المشكلات المفاتيح) أي المشكلات التي يساعد حل كل واحد منها على حل عدد من المشكلات المرتبطة بها ، إننا حين نستجيب بحماسة بالغة للرد على مقال مغرض أو قرار متعسف.. نصبح ألعوبة في يد الآخرين؛ حيث إنهم مع الأيام يعرفون كيف يجعلوننا نستهلك طاقاتنا في أمور فرعية، مما يجعلنا ننصرف عن الخطوط الاستراتيجية التي نعمل عليها.

وسيكون لنا عودة إلى هذه المسألة، بعون اللّـه تعالى.

د - التنافس على النفوذ: من الثابت أن الناس حين يعيشون في مكان واحد، فإنهم يكونون في حاجة إلى شيئين: التعاون والتنافس، والحد الأدنى منهما يتوافر في العادة بشكل طبيعي وعفوي من جراء تراكم الخبرة الاجتماعية، أما الصحي والمثمر منهما فيحتاج إلى وعي إضافي وإلى هندسة ومتابعة، وقد وضَّح لنا ربنا - جل شأنه - أن (التدافع) عامل في إشاعة التوازن والصلاح ودرء الفساد، فقال سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

مشكلة كثير من الصحويين أنهم لا يشعرون أنهم منخرطون في عمليات من التنافس والتدافع المستمر على عدد من الصعد، وبالتالي فإنهم لا يهتمون بفهم أبعاد ذلك التنافس

وتحليله وإدارته، وهذا يجعلهم يخسرون الكثير من المنافسات التي يمكن أن يربحوها بسهولة

في البداية يكون من المهم أن ندرك أنه لا مجال للتخلص من التنافس والصراع بين الدعاة أنفسهم، وهذا من سنن اللّـه تعالى في الخلق، فأبناء المهنة الواحدة، والنشاط الواحد يتنافسون فيما بينهم على كسب الزبائن والأسواق، والدعاة أيضًا يتنافسون على كسب قلوب الناس وعلى الاستحواذ على المساجد والمنابر وبعض مناصب القضاء والفتيا، بالإضافة إلى التنافس على كسب قلوب الأثرياء الذين يمكن أن يموِّلوا المشروعات الدعوية... إن عدم إدراك هذا جعل كثيرًا من قيادات الصحوة والدعاة يقعون في غيبة إخوانهم وفي تزهيد الناس بهم من حيث لا يشعرون، بل إن بعضهم يستعين بالحكومات على إخوانهم وزملائهم في العمل الدعوي، ولو أنهم كانوا على وعي بأنهم فعلًا متنافسون فيما ذكرناه لتحرز كثير منهم عن ذلك.

الصحويون في صراع وتنافس أيضًا مع الاتجاهات الأخرى من علمانيين وليبراليين ويساريين وقوميين... وهذا التنافس طبيعي جدًّا، لكننا لا نديره بطريقة صحيحة في كثير من الأحيان.

ملاحظات في هذا الشأن:

- اعتماد سوء الظن أساسًا في التعامل مع بعض الأشخاص الذين عُرفت عنهم أقوال أو مواقف منافية للشريعة أو معادية للصحوة، مما يجعل شباب الصحوة يسقطونهم إسقاطًا تامًّا، ويتخذونهم عدوًّا دائمًا.

- تشويه الخصوم ووصفهم بما ليس فيهم، ويتم هذا من خلال التعميم في الوصف، فتجد من الصحويين من يجعل اليساري مثل الشيوعي.

- الاستعانة على الخصوم بالحكومات في بعض الأحيان، وهذا غير سديد، فشرف الخصومة الثقافية يقضي أن نقارع الحجة بالحجة والبحث بالبحث والمقال بالمقال... وبعض المعادين للصحوة يستعدون أيضًا الحكومات على رجال الدعوة، وهو أيضًا خطأ.

- بعض الصحويين لا يعرفون روح العصر الذي يعيشون فيه، وبعضهم يتكلم وكأنه الوحيد في الساحة، وبعضهم يتحدث بمصطلحات غير مفهومة، لكثير من الناس، ولعل الفتاوى الشاذة تشكل نموذجًا صارخًا على كل ذلك.

إن المتربصين بالصحوة كثر، وإن أي كلمة تقال تنتشر وتشيع على نحو يجعل تفسيرها أو تصحيحها أمرًا في غاية الصعوبة، وكما قال أحد الباحثين، من أن (الإنترنت) جعلت التوبة غير ممكنة؛ حيث إنك إذا تراجعت عن رأي أو فتوى، فإنك لا تستطيع إسقاطه من الشبكة.

الصحويون في صراع وتنافس مع حكوماتهم، والحقيقة أن هذا ليس خاصًّا بهم؛ حيث إن العلم يؤسس لصاحبه سلطة، كما يؤسس النجاح الإعلامي والدعوي والاقتصادي لأصحابه سلطات جديدة، وهذه السلطات تدخل في كثير من الأحيان في نوع من المنافسة مع (السلطة الزمنية) وهذه المنافسة نابعة من أن من طبيعة الحكومة - أي حكومة - السعيَ إلى الاستحواذ على الفضاءات، والتسيير لكل ما يمكنها تسييره؛ ولهذا فإن تاريخ كل الأمم مشحونٌ بأشكال من النزاع بين أهل العلم وكل من له علاقة بالإصلاح وكل ساعٍ إلى التغيير وبين كل أو بعض المسؤولين عن تدبير أمور البلاد والعباد، **ويتجلى عدم وعي أعداد غير قليلة من الصحويين بطبيعة المدافعة على هذا الصعيد في عدد من الأمور، منها:**

أ - بعض المنتسبين للصحوة يستغربون من وجود أي مساحة فاصلة بين مواقف الدعاة والمثقفين عامة وبين مواقف حكوماتهم؛ لأنهم يعتقدون أن على الجميع أن يكونوا يدًا واحدة وعلى قلب رجل واحد، ما داموا يعبدون ربًّا واحدًا، ويؤمنون بنبيٍّ واحد... وهذا من عدم إدراكهم لروح التنافس وحتميات الصراع التي أشرنا إليها، **لا شك في أن علينا جميعًا التأسيس لإجماع وطني حول كل الثوابت الوطنية وكل ما يساعد على رعاية المصالح العامة، ولكن من وجه آخر لا ينبغي أن يُظن أن كل شكل من أشكال التنافس بين قيادات الأمة ينطوي على شر، فهذا ليس بصحيح؛ حيث لا يكون الوضع صحيًّا إذا ساد الوفاق التام في أي بلد؛ لأن ذلك الوفاق يكون مزيَّفًا وغير معبِّر عن الواقع**

ب - قسم آخر من الصحويين جعلوا علاقاتهم مع حكوماتهم في غاية التوتر؛ وذلك لأنهم جعلوا من أنفسهم ما يشبه الحزب المعارض، فهم يذيعون الأخطاء، ويغضون الطرف عن الإنجازات والأشياء الجيدة، وهذا ينافي الحرص على استقرار البلاد، كما ينافي القيام للّٰه تعالى بالقسط والعدل.

ج - فريق ثالث من الصحويين وقفوا موقفًا مضادًّا حين جعلوا من أنفسهم أبواقًا في الثناء على كل ما تقوم به حكوماتهم ناسين الميثاق الذي أخذه اللّـه على أهل العلم من تبيان الحق، وناسين ما على المسلمين عامة من واجب النصح ونشر الخير ومحاصرة الشر.

إن العالِم والداعية والمصلح والمثقف يفقد معناه وتميزه حين يصبح أداةً في يد هذه الجهة أو تلك.

د - لا يخفى أخيرًا أن بعضًا ممن يُحسَبون على الصحوة استخدموا السلاح في تغيير الأوضاع في بلادهم، وهذا خطأ كبير للغاية، وعواقبه وخيمة على الجميع، ولن يؤدي إلى أي نتيجة، كما أشرت من قبل.

٥ - عقدة المؤامرة:

يؤسفني القول: إن الصحويين أكثر التيارات الإصلاحية والاجتماعية إيمانًا بنظرية المؤامرة، فمجالسنا تعج بالشكوى من تآمر العالم علينا، ولا سيما الغرب، وتشكل أمريكا وإسرائيل رأس الحربة في ذلك.

أنا ابتداءً لا أنفي أن هناك من يمكر بنا، ومن يعمل من أجل إضعافنا، لكن مساهمة ذلك في تخلفنا لا تزيد على(٢٠٪) ، لكن بعض الصحويين بلغ بهم عدم فهم الواقع مبلغًا جعلهم يظنون أن كلَّ أو جلَّ مآسينا هو بسبب الجهود الجبارة التي تُبذل في الخفاء من أجل أن نظل متخلفين ومنقسمين وفقراء... ولديهم دائمًا شواهد تاريخية بعيدة وقريبة، ولديهم مقولات منقولة عن بعض سياسيِّي الغرب تؤيد ما يعتقدونه، وهذا من ضعف التحليل للواقع، ومن ضعف الفهم لسنن اللّـه تعالى في الخلق. قد يعتقد بعض الأعداء فعلًا أن زوالنا من فوق الأرض هو حلم جميل لكنهم لا يملكون الأدوات لتحقيق ذلك الحلم، وأنا أريد من الذين يرون أننا ضحايا مؤامرة كبرى أن يجيبوا على هذه التساؤلات: ما علاقة الغرب والشرق بانهيار الدولة العباسية؟

ما علاقة الأعداء بأعداد هائلة من المسلمين لا يصلُّون صلاة الفجر في وقتها، وأعداد هائلة لا يقرؤون في السنة كلها ولا آية واحدة من كتاب اللّه؟ وما علاقتهم بمدرس لا يحضِّر درسه، كما ينبغي، وبتاجر يكذب في تجارته، أو يغش السلعة التي يعرضها للبيع؟

إن من سنن اللّـه تعالى في الخلق أنه لا يستطيع أحد أن يفعل بالآخرين أسوأ مما

يمكن أن يفعلوه بأنفسهم، وقد ألح القرآن الكريم على هذا المعنى إلحاحًا شديدًا؛ حيث قرَّر في مواضع كثيرة أن الأمم التي أُبيدت لم تتم إبادتها بسبب غزو أو عدوان خارجي، وإنما أبيدت بسبب تراكم أخطائها وخطاياها، وهذا ما يحدث لنا بالضبط، وما أجمل قول اللّـه تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وقوله: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

٦ - الإسراف في استخدام المقولات الجاهزة:

تحاول عقولنا دائمًا التشبث بشيء يسعفها في التفكير، وتشكل النصوص والأمثال والحكم وأقوال أهل العلم العمود الفقري لذلك، والمشكل الذي يواجهنا هو ما سماه الأصوليون (تحقيق المناط) أي تنزيل المقولات والحِكَم على الواقع المعيش؛ لأن الصواب في ذلك يتطلب معرفة جيدة بالواقع، وبما أن الواقع شديد التعقيد، فإن المقولات الجاهزة - والتي تتمتع في الأصل بإحكام شديد - تبدو وكأنها تبسِّط الأمور إلى حدِّ التسطيح، ولو أردنا استعراض تلك المقولات لطال بنا الكلام، لكن حسبي أن أستعرض بعضها، وذلك من نحو:

- لو تركَنا الغربيون وشأننا لكنا بألف خير.
- لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.
- العمل الجماعي هو الذي يثمر، والعمل الفردي تضييع للوقت.
- بلاء المسلمين في حكامهم.
- أعطني ما يكفي من المال، وخذ ما شئت من التحضر.
- إذا لم يتحد المسلمون، فلن يحققوا أي نصر.
- لا مستقبل لنا إلا إذا ظفرنا بقائد كصلاح الدين.
- الإسلام هو الحل.
- لن يتركوك تفعل ما تريد.

يزدهر الاتكاء على المقولات الجاهزة في حالات الركود الحضاري لدى الأمة، وفي حالات الكسل الذهني لدى الأفراد، كما يزدهر الاستناد إليها لدى الذين يخضعون

للرؤية الأحادية؛ حيث إن إصلاح أحوال أمة كبيرة كأمتنا لا يمكن أن يتم من خلال توجُّه دولة أو حضور قائد... كما أن الذين يُكثرون من ترديد تلك العبارات يريدون للتاريخ أن يعيد نفسه، ومن هو بفاعل بسبب التغيرات الفيزيائية والكيميائية والتغيرات النفسية، والاجتماعية التي تعتري الناس والمحيطَ الذي يعيشون فيه

هذه المقولات تنقسم إلى قسمين:

- قسم منها صحيح المعنى في المجمل وذلك مثل: (الإسلام هو الحل) ومثل (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) .

- وقسم خاطئ في مجمله، ويمكن أن يصدق على حالات معينة، وذلك مثل باقي المقولات التي سقتها.

وسأحاول تحليل مقولة واحدة من كل قسم حتى يتضح ما أريده:

أ - يقول الإمام مالك بن أنس - رحمه اللّـه -: « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها» . وأعتقد أن معنى كلام الإمام هو أن إصلاح حال أمة الإسلام في أي زمان ينبغي أن يستند إلى عين الأصول التي كانت سائدة وقت نشوء الأمة، وإلى عين المبادئ والقيم التي تمسك بها الناس في صدر الإسلام من قوة الإيمان والصدق والأمانة في التعامل والتراحم والتسامح والاحتكام إلى شريعة اللّـه تعالى في المنشط والمكره... وأعتقد أننا لا نختلف في أهمية وجود هذه الأمور في حياتنا اليوم، لكن كل ما ذكرناه هو في نهاية المطاف عبارة عن مبادئ وأخلاق وسلوكيات، وليست أساليب وأدوات، تتطلبها معالجة ظروف في غاية التعقيد، وعلى سبيل المثال، فإن بعض المجتمعات المسلمة قد فسد كثير من أبنائها بسبب ارتفاع نسبة البطالة فيهم حتى تجاوزت الستين في المئة، كما أن كثيرًا منها تعاني من الاستبداد والجهل وضعف التصنيع والاحتكام إلى السلاح في فضِّ النزاعات.. هذه المشكلات لم تكن في حياة سلف الأمة بالحدة الموجودة اليوم، فكيف يمكن أن نقتبس من تجارب حياة بسيطة للغاية لإصلاح حياة معقدة للغاية، ونحن نعرف أن من سنن اللّـه تعالى في الخلق أنه لا تتسع مرحلة سابقة لمرحلة لاحقة ؟

ب - إذا لم يتحد المسلمون فلن يحققوا أي نصر، هذه المقولة تتردد على أفواه كثير من المتحمسين للوحدة الإسلامية، فهم يرون أن تفرق المسلمين وعدم ظفرهم بقيادة سياسية واحدة هو سبب هزائمهم أمام أعدائهم، وهو سبب انكسارهم الحضاري...

نحن في البداية نؤمن بأن الوحدة خير من الفرقة، وأن تعاضد المسلمين على الخير مطلب شرعي، لكن من المهم أن ندرك الآتي:

عدد الدول الإسلامية يتجاوز الخمسين، ونحو من ثلث المسلمين يعيشون بوصفهم أقليات في دول غير الإسلامية، والوحدة بين هذه الدول المنتشرة في أنحاء الأرض شبه مستحيلة من الناحية العملية.

في صدر الإسلام كان وجود (الإمبراطوريات) أمرًا مألوفًا، أما اليوم فإنه غير وارد إطلاقًا، ونحن نشاهد مدى ارتباك أمريكا اليوم في انسحابها من العراق وأفغانستان بعد أن سعت إلى تثبيت نفوذها في هاتين الدولتين، ثم إن بين الدول الإسلامية تباينات ثقافية واقتصادية كبيرة مما يجعل دمج شعوبها في كيان واحد شيئًا كالخيال.

إن المشكل الأساسي الذي يعاني منه المسلمون ليس التفكك السياسي على مستوى العالم، وإنما المشكل هو التخلف الضارب أطنابه في كل مكان، وفي كل المجالات.

لا ينبغي أن نتوهم أن الصراع الأساسي بيننا وبين الآخرين هو صراع عسكري، ولهذا فإنه يحتاج إلى حشود من الجيوش الجرارة... إن جوهر الصراع حضاري، وإن في إمكان دولة صغيرة متحضرة ومتعلمة ومستقرة أن تعيش بسلام وبكرامة، وهذا ما نلمسه في دولة مثل ماليزيا

التفكير بالوحدة الإسلامية الكاملة - شبه المستحيلة عمليًا - صرف أذهاننا عن التفكير فيما هو ممكن من تعاون الدول الإسلامية مثل إقامة سوق إسلامية مشتركة، ومثل تفعيل الاتحادات والمؤسسات الإسلامية القائمة، ومثل توسيع التشاور بين القيادات السياسية.

إذن العبارة التي ناقشناها تميط اللثام عن سذاجة شديدة في فهم المعوقات الجاثمة أمام الوحدة السياسية للعالم الإسلامي. أنا لست ضد رفع الشعارات، كما أنني لست ضد الاستئناس ببعض المقولات، لكنني ضد السطحية في تنزيلها على الواقع.

٧ - التضامن الآلي:

على مدار التاريخ كان ولاء الفرد المسلم لمجموع أمة الإسلام، وكان شعوره بمصائب إخوانه المسلمين في أنحاء الأرض واضحًا، فعقيدة الإسلام تُوحِّد مشاعر المسلمين حول الكثير من الأمور؛ ولهذا فإنه لم يكن مستغرَبًا أن يهب كثير من الشباب لنصرة

إخوانهم في أفغانستان والشيشان والبوسنة وغيرها... ويمكن القول: إن جماهير عريضة من أبناء الصحوة قد قدَّموا أشكالًا من الدعم - وبعضهم لا يزال يفعل ذلك - للحركات الجهادية التي قامت في تلك البلاد، وكان الدافع الأساسي لأولئك الداعمين هو تبرئة الذمة والخوف من خذلان إخوة الدين وهم يواجهون أشكالًا من الظلم والعسف...

- **والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: هل كلما اشتبكت مجموعة إسلامية مع حكومتها الملحدة أو العلمانية أو المدعومة من عدو خارجي، ثم طلبت النصرة من المسلمين، كان على المسلمين المجاورين لها أن يهبُّوا لنصرتها بأنفسهم وأموالهم، وإذا تقاعس المجاورون انتقل التكليف إلى من يليهم مهما بعدت ديارهم، وإلا أثموا جميعًا؟**

-ثم هل يجب على كل من غزا العدو ديارهم أن يستخدموا على نحو فوري السلاح لصده وإلا أثموا، أو أن ذلك يخضع لتقدير ما يترتب على المقاومة من مصالح ومفاسد، كما لو غلب على ظن المدافعين عن البلد أن مدافعتهم ستؤدي إلى استئصالهم أو إلحاق أفدح الأضرار بهم وبذراريهم دون أن يتمكنوا من صد العدو أو إيقاع النكاية به؟

هاتان المسألتان تتطلبان من أهل الاجتهاد والفتيا الإجابة عليهما؛ لأنهما تشكلان شيئًا مهمًّا في القضية التي نتحدث عنها، وإن كنت أميل إلى عدم تأثيم الممتنعين عن تلبية نداء إخوانهم وعدم وجوب صد العدو على نحو مباشر إذا كان الصد سيؤدي إلى ما أشرنا إليه، ويظل على أهل البلد أن يعدُّوا العُدَّة لإخراج العدو، وأن يبحثوا عن الأدوات المجْدِية التي يمكن أن تساعد على ذلك. وبناءً على هذا فإني أرى أن الذين جنَّدوا الشباب وأرسلوهم إلى المناطق الساخنة في العالم الإسلامي لم يكونوا على صواب؛ لأنهم زجوا بهم في ساحات لا يعرفون عنها شيئًا، كما أن قتال الأعداء من غير رؤية سياسية واضحة كثيرًا ما يؤدي إلى مآسٍ عظيمة، وقد حدث شيء من ذلك في المناطق التي أشرت إليها، فقد قُتل كثير من الشباب المسلم، وأُتلف الكثير من الأموال، ولا يعرف أحد المكاسب التي حصل عليها المسلمون من وراء ذلك، وفيما حدث للمجاهدين العرب في أفغانستان والبوسنة عبرة لمن يعتبر.

حين يستنجد المسلمون في بلد، فإن علينا أن نقدم لهم النصح والمشورة، وربما كان علينا أن ندعم التعليم لديهم، أو نرعى الأيتام، والأرامل... أما إرسال الشباب والسلاح،

فهذا في نظري يحتاج إلى الكثير من الأناة والتمحيص، وسيختلف الأمر لو أن حاكمًا مسلمًا قرر خوض الحرب إلى جانب إخوانه، وحبذا أن تكون هناك مرجعية إسلامية عُليا تجمع بين الشرعيين وأصحاب الخبرة السياسية والاستراتيجية لتقديم الفتوى والمشورة في مثل هذه الأمور حتى يكون الناس على بيِّنة من أمرهم.

٨ - المبالغة في تقدير المظهر:

يظل الوعي في حالة من الارتباك المستمر تجاه اتخاذ موقف معتدل في مسألة الشكل والمضمون والمظهر والجوهر، وعلى مدار التاريخ كان الميل إلى المظهر أو الشكل هو الغالب؛ وربما كان ذلك لأن إدراك قيمة المظهر تتم بطريقة أوضح وأسرع من إدراك قيمة الجوهر، فهل جنحنا معاشر الصحويين إلى المظهر واحتفلنا به أكثر مما فعلناه مع الجوهر، هذا ما أراه، **وهذا توضيح سريع لهذه القضية:**

أ - اللحية وقصر الثوب وغطاء الوجه للمرأة، والتحرز من اختلاط النساء بمن لا يحلون لهن، والحرص على صلاة الجماعة، وما شاكل ذلك من الأمور الشكلية في نظر بعض الناس وتُتهم الصحوة بأنها اهتمت بها اهتمامًا يزيد على اهتمامها بالعديد من الأمور الجوهرية، وأنا أقول: إن كل ما تعلق به حكم شرعي فإنه لا ينبغي وصفه بأنه من القشور أو الشكليات أو الهامشيات، ولكن يعطى من التركيز والاهتمام ما أعطته الشريعة الغراء؛ إذ من الواضح أن أركان الإسلام ليست على درجة واحدة، ويقال مثل ذلك في الكبائر والمحرمات، فهناك حرام دون حرام، بل هناك كفر دون كفر، وشرك خفي وشرك ظاهر...

ب - من الواضح أن الصحوة قد ركَّزت فعلًا على مسألة المظهر تركيزًا ظاهرًا؛ حيث إن كثيرًا من الدعاة يتخذون من اللحية والتردد على المسجد - مثلًا - مؤشرًا قويًا على التزام المدعو وتحسُّن تدينه، كما أن الدعاة والداعيات يجعلون من ارتداء المسلمة للحجاب فاصلًا قويًا بين مرحلتين: مرحلة الغواية ومرحلة الهداية، وبعض الداعيات يُقمن الحفلات ابتهاجًا بتحجب بعض الفتيات، وتثبيتًا لهن على الحجاب، ويذكِّرني هذا بما يفعله كثير من العامة في بلاد الإسلام حين ينظرون إلى ذهاب أي مسلم إلى أداء فريضة الحج على أنه بداية لحياة جديدة، حيث يستنكرون من أخطائه بعد حجه ما لم يكونوا يستنكرونه من قبلُ، ويطالبونه بالاتصاف بفضائل لم يكونوا يطالبونه بها!

إذا نظرنا في البحوث والدراسات الإسلامية المتصلة بالارتقاء بالمرأة - مثلًا - فإننا نجد أن ما يزيد على(٧٠٪) منها يركِّز على أمور محددة مثل الحجاب وشروط عمل المرأة ومسألة اختلاط الرجال بالنساء،أما الكتب والدراسات التي تهتم بكيفية الارتقاء بالمرأة لتكون زوجة مثالية ومربية فاضلة وداعية ناجحة وقائدة كبيرة في العمل الخيري والتطوعي.. فإنها قد لا تصل إلى (٣٠٪) وهذا يعني أن الصحوة فعلًا قد أعطت لبعض الأمور المتعلقة بالمظهر من الاهتمام أكثر مما ينبغي، وكان ذلك على حساب أمور جوهرية

ج - إننا حين نبالغ في تقدير المظهر نقع في عدد من الأمور غير الجيدة، منها:

- حدوث نوع من التقسيم للمجتمع على أساس غير جوهري، هذا ملتحٍ وهذا غير ملتح، وهذه محجبة، وهذه غير محجبة..، وبناءً على هذا التقسيم يحدث نوع من التعاطف بين المتشابهين، ونوع من النفور بينهم وبين غيرهم، مع أن لدى بعض غير الملتحين في بعض الأحيان من الورع والاستقامة والخيرية، ما لا تجده عند بعض من أطلقوا لحاهم، ويقال مثل هذا في الحجاب.

- تقديرنا المبالغ فيه للمظهر جعل المدعوين يتناغمون مع اهتمامنا؛ حيث صاروا يهتمون بالمظهر أكثر من الاهتمام بالجوهر، ونحن نعرف أن الآثار الواردة في تعظيم أمور مثل: خشية اللّـه تعالى والصدق والأمانة والكرم والرحمة والحرص على الكسب الطيب... كثيرة للغاية، وهي تحتاج منا تركيزًا شديدًا؛ لأنها تمثِّل أمورًا مهمة للغاية في تدين المسلم وسلوكه الشخصي، وإن شباب الصحوة يحتاجون إلى من يرسِّخ هذه المعاني في نفوسهم حتى يركزوا عليها في خطابهم لعموم المسلمين.

- الاهتمام بالمظهر يجعل الذين تحلوا به يتكئون عليه في إظهار تميُّزهم على غيرهم، مما يدفعهم إلى إهمال بعض الأمور الجوهرية، وهذا ما لمسناه، فقد ترى ممن سمتهم التدين من لا يحضر إلى عمله في الوقت المحدد، ومن يسيء إلى زوجته ويظلمها، ومن يتعامل مع الناس بغلظة وخشونة، ومن يخون الأمانة.. بل قد رأينا ما هو أكثر من هذا، فنظرًا لأن اللحية - مثلًا - صارت رمزًا للتدين، فقد صار بعض أصحاب الأعمال يبحثون عن أصحاب اللحى كي يوظفوهم من أجل كسب ثقة الناس، وهذا موجود في الأعمال التي تعتمد على الثقة مثل تجارة العود والعسل وغيرها، وهذا من سنن اللّـه تعالى في الخلق؛ إذ إن الشيء إذا اشتد عليه الطلب كثر استغلاله وتوظيفه بأشكال مختلفة

الخلاصة:

الاهتمام بالمظهر مطلوب، والاهتمام بالجوهر مطلوب، وحين نزن بموازين اللّـه تعالى فإننا سنعطي كلًّا منهما ما يستحقه من التركيز والمتابعة.

٩ - العمل الجماعي: هل هو غاية؟

أنا هنا لا أتحدث عن العمل الجماعي المؤسسي، أي الجمعيات الخيرية والنقابات والاتحادات المهنية، وما شاكل ذلك، فهذه لا تثير في العادة أي جدل، وإنما أتحدث عن الانتماء إلى جماعة أو فئة لها اتجاه دعوي محدد، ولها شيخ أو رئيس، وبين أتباعها نوع من الترابط العاطفي الخاص، حيث رأينا من حماسة بعض الشباب والشيوخ لجماعاتهم ما يوحي بأن العمل مع جماعة هو فرض، ورأينا من حماستهم أيضًا لجماعاتهم ما يوحي أن العمل الجماعي هو شيء تعبدي لا تصح مناقشته مهما كانت أوضاعه، مما يعني أنه قد صار غاية في حدِّ نفسه بقطع النظر عن الظروف المحيطة به، وعن الآثار والعواقب التي تترتب عليه ! وأود هنا أن أوضِّح الأمور التالية:

أ - القول بحرمة الانتساب إلى أي جماعة إسلامية مهما كان وضعها بحجة أن ذلك يفرِّق كلمة المسلمين، وينشر بينهم التحزب والتعصب... قول غير معتمد عند أهل العلم، ولك أن تقول مثل هذا فيمن يرى أن العمل مع جماعة لنصرة الإسلام واجب شرعي، ولا أود مناقشة هذين القولين هنا .

ب - ابتليت الصحوة الإسلامية بالكثير من الأتباع الذين يتعصبون لجماعاتهم ويعطونها ما لا تستحقه من المديح والتعظيم، وقد وصل الأمر في بعضهم إلى حدِّ الادِّعاء بأن جماعتهم هي جماعة المسلمين، مما يعني أن من لم ينتسب إليها آثم بسبب مفارقته للجماعة! وهذا من الجهل بدين اللّـه وبمدلولات النصوص، ومن الجهل كذلك بالواقع. في بعض الأحيان لا تجرؤ الجماعة على قول ذلك، فتقول: إنها ليست جماعة المسلمين، ولكنها الجماعة الأكثر أهلية لأن توصف بجماعة المسلمين، وهذا يعطيها المشروعية الأدبية لأن تلوم من لا ينتسب إليها، أو تنظر إلى موقفه على أنه نوع من الخطل في الرأي، وهذا أيضًا غير صحيح، فالعمل لدين اللّـه أرحب من أن يُحصر في اجتهادات فئة أو جماعة.

ج - مما ابتلي به كثير من الناس المنتمين إلى جماعات وأحزاب(وهذه تشمل

الإسلاميين وغيرهم) التهوينُ من شأن العمل الفردي ولمز أصحابه، وهذا لا ينبغي، فقد رأينا من أفراد المسلمين من أحدث من التأثير الإيجابي في الحياة العامة ما يفوق ما أحدثته جماعة بأسرها.

د - بعض الدعاة وطلاب العلم كان لهم ارتباط بشيوخ وجماعات في مرحلة من المراحل، ثم انفصلوا عنهم، فولَّد ذلك لديهم نوعًا من الحساسية من كل الأعمال الجماعية، وصاروا يميلون إلى تمجيد العمل الفردي، وهذا غير سديد، **فمع اعتقادي أن العمل الفردي هو الأصل، إلا إن الجماعات الإسلامية قدمت - وما زالت تقدِّم - لأمة الإسلام خدمات عظيمة، وغيابها عن الساحة سوف يترك فراغًا هائلًا، وإذا وقعت مشكلة بين شخص وبين جماعته، فهذا لا يعني ضرورة أنه على الحق، وهي على الباطل، ثم إن من الظلم وضع كل الجماعات الإسلامية في كفة واحدة، فبينها تباين واضح على مستوى الالتزام بالضوابط العقدية والشرعية وعلى مستوى الأداء والنفع للناس**

هـ - الأساس في التكاليف الشرعية أنها تكاليف فردية، ولا يتحول التكليف الفردي إلى جماعي إلا بدليل واضح، وقد وجدت من يقول: إن مغالبة الجهد المنظَّم الذي يبذله أعداء الإسلام تتطلب جهدًا منظمًا مماثلًا له، وبما أن الدفاع عن الإسلام والمسلمين مطلوب شرعًا كان على الناس أن ينضموا إلى جماعات منظَّمة؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهذا في نظري من التوسع في تطبيق هذه القاعدة العظيمة؛ حيث تم نقلها من أمور محدودة واضحة إلى أمور واسعة وعائمة، وعلى سبيل المثال فإنه إذا تصدى شخص لإنقاذ غريق، ووجد أنه لا يستطيع إنقاذه إلا بمساعدة ثلاثة أو عشرة من الناس كان على من حضر واستطاع المساهمة أن ينضم إلى ذلك المُنقِذ، ولكن لا يصح أن تطبق هذه القاعدة على نطاق واسع، كأن يقال: إن الأعداء قد أنشأوا مئات القنوات الفضائية التي تُفسد المسلمين وتسيء إلى عقيدتهم، وإن علينا أن ننشئ ما يكافئها من القنوات، وبما أن هذا يحتاج إلى جهود جماعية كبرى، فإنه يجب على الإعلاميين وأهل الثراء أن يتعاونوا للقيام بذلك وإلا أثموا؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، **إن هذا يوقع الناس في الحرج، ويجعل رؤية الشخص الواحد واجبة التنفيذ من قبل ألوف الأشخاص مع أن رؤيته اجتهادية تقديرية؛ حيث إن بعض المصلحين قد يرون أن مقاومة الغزو الفضائي قد تكون بمقاطعة قنواته، أو بتحصين الأُسَر والأفراد ضد التأثر به**

و - قد لا يكون في البلد المسلم سوى جماعة إسلامية واحدة، وقد يكون لدى بعض الشباب ملاحظات على قيادتها أو على منهجها، وقد يرى بعض الشباب أن الانتساب إلى تلك الجماعة يسبب له مشكلات لا يستطيع تحملها... بل إن هناك جماعات إسلامية لا تقبل بانتماء بعض الناس إليها بسبب ضعف حسِّهم الأمني، أو بعض مواقفهم، أو بسبب انتسابهم إلى أسرة معينة.. فهل نقول لمن ترفض الجماعة ضمهم إليها: عليكم أن تؤسسوا جماعة حتى لا تعملوا بشكل فردي، أو نقول لهم: هاجروا من تلك البلدة إلى بلدة فيها عمل جماعي؟

الخلاصة:

إن كل ما أشرت إليه - وغيره كثير - يؤكِّد شيئًا مهمًّا، هو أن العمل الجماعي وسيلة لتحقيق غايات نبيلة، فإذا رأى بعض المسلمين أنه يستطيع تحقيق الأهداف التي يتطلع إليها أو سد الثغرات التي يقوم على حراستها دون الانتماء إلى جماعة، فلا حرج عليه في ذلك؛ لأن العمل الفردي هو الأصل كما ذكرت قبل قليل.

إن القول بأن العمل الجماعي غاية قد أدى إلى شيء سلبي، هو أن كثيرًا من الشباب ظنوا أنهم بانضمامهم إلى جماعة يكونون قد وضعوا أنفسهم تحت تصرفها؛ ولهذا فقد شعروا براحة الضمير، وصاروا ينتظرون الأوامر من الجهات العليا، ولن تكون هناك مشكلة إذا تأخرت الأوامر، أو لم يكن هناك أي أوامر، على حين أننا حين نقول: إن العمل الجماعي وسيلة، فإننا نضعه تحت طائلة المساءلة ونعرِّضه للتقويم كما هو الشأن مع كل الأساليب والوسائل والأدوات

١٠ - خطاب متشائم:

الخطاب الإسلامي هو الفكر الإسلامي مجسَّدًا في رسالة، وهذه الرسالة قد تكون كتابًا أو خطبة أو درسًا أو رواية... والحقيقة أنه ليس لدينا خطاب واحد، وإنما عدد من الخطابات، هناك الخطاب السلفي، وخطاب الدعوة والتبليغ، والخطاب الصوفي، والخطاب الإخواني وخطاب التنوير، وخطاب المهتمين بالشأن الحضاري... ويمكن أن نرى في الخطاب الواحد، من هذه الخطابات تمييزات وتلوينات تفتُّ في وحدته، وتجعله أقرب إلى التشعب والتعدد. ومن الواضح هنا أنه لا ينبغي وصف كل الخطابات الإسلامية بالميل إلى التشاؤم، لكن يظل من المفيد تسليط الضوء على هذه الظاهرة

المهمة حتى نطوِّر وعيًا جديدًا حولها، **وهذه بعض الملاحظات الموجزة:**

أ - الأصل في رؤيتنا الإسلامية هو تشجيع التفاؤل ومحاولة رؤية الوجه المشرق للأشياء ولدينا العديد من النصوص التي تدل على حبِّ نبينا ﷺ للتفاؤل وتوسيع مجال الأمل، ونحن نلاحظ في السنوات الأخيرة، ولادة تيار جديدة يحث الشباب على التفكير الإيجابي وعلى تلمس جوانب القوة في حياتهم، وهذا شيء جيد، وآمل أن تتسع مساحة هذا التيار.

ب - لدينا صحويون كثيرون قد أضفوا على خطابهم وعلى جلسات مسامراتهم مسحة تشاؤمية داكنة، تصل في بعض الأحيان إلى حدِّ العدمية واليأس الكامل، إنك تشعر وأنت تسمعهم أننا أسوأ شعوب الأرض، وأننا على حافة الانهيار، كما تشعر أنه لا أمل في معالجة مشكلاتنا، وليس أمامنا أي أفق... **وأظن أن هذا يعود إلى أمرين أساسيين:**

الأول: هو مقارنة أحوالنا بأحوال أسلافنا، ولا سيما رجالات القرون الثلاثة المفضَّلة؛ حيث إن كثيرًا من خطبائنا ووعَّاظنا قد اعتادوا حين يتحدثون عن فضائل السلف أن يتحدثوا عن الوجه الآخر للعملة، وهو دائمًا سلبياتنا ونقائصنا، وهذا ولَّد شعورًا بالمرارة لدى كثير من المخاطبين؛ حيث صار الواحد منهم يردِّد دائمًا في داخله: أين نحن منهم؟ والمشكلة - في نظري - تتمثل في وجود خلل في المقارنة؛ وذلك لأن المتحدثين والوعَّاظ يسوقون في أحاديثهم أخبار صفوة الأمة على أنهم نموذج بياني للأجيال التي عاشوا فيها، وحين يسمع عامة الناس ذلك يقارنون أنفسهم بهم، فيصيبهم الإحباط، وإن في استطاعتي القول: إن الرجال الذين نستشهد بهم على أنهم في القمة من الورع والاستقامة والتعبد والجدية والعظمة... لا يزيد عددهم على ثلاثة آلاف أو أربعة، وإذا بحثت في أهل زماننا عمن يقترب منهم في فضله... فإنك ستجد مثل ذلك العدد، بل أكثر؛ ولهذا فإن المقارنة الصحيحة هي أن نقارن خاصة بخاصة وعامة بعامة، ولو فعلنا ذلك لذهب عنا الكثير من التشاؤم والإحباط اللذين يشعر بهما كثيرون منا.

ثم إن من المهم أن ندرك أن الابتلاءات والإغراءات التي يواجهها المسلم اليوم تجعلنا نُجِلُّ صمود شبابنا، ونحيي ثباتهم، ونقدِّر ما في قلوبهم من يقين ومن حب للخير، وقد ورد عن النبي ﷺ ما يشير إلى هذا المعنى: « ... **فإن من ورائكم أيامًا الصبر فيهن**

مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عملكم »[١]. وفي رواية: قيل يا رسول اللَّـه أجر خمسين منا أو منهم؟ قال: « **بل أجر خمسين منكم** »[٢].

الثاني: ما يُظهره الكتَّاب والمثقفون والمفكرون المهتمون بالنهضة والبناء الحضاري في حثِّ الناس على الإبداع والتجديد والعمل الجاد... حيث إنهم - وما أبرئ نفسي - كثيرًا ما يستبطنون المعايير السائدة في الدول الصناعية المتقدمة، وكثيرًا ما يستخدمون الأرقام الواردة من هناك، ويجري كل ذلك في سياق المقارنة بيننا وبينهم، مما جعل المسلم يشعر بوجود فجوة حضارية كبيرة بين الأوضاع والظروف التي يعيش ويعمل فيها، وبين الأوضاع والظروف المتوفرة للناس في الدول المتقدمة. فهل ما نفعله هو شيء مفيد أو ضار؟

أعتقد أننا لا نستطيع فهم ما نحن فيه بدقة من غير فهم وعرض ما لدى الآخرين؛ إذ طالما كان الوعي بالذات فرعًا عن الوعي بالآخر، لكن علينا ونحن نقارن أن نذكر للناس أن أمة الإسلام تملك الرؤية الاستراتيجية للنهوض والتقدم، وهذه الرؤية مستمدة من المنهج الرباني الأقوم، فنحن قد نضعف، وقد نتوقف، ولكننا نظل بحول اللَّـه سائرين على الطريق، وتظل أهدافنا الكبرى واضحة ومتألقة، ثم إن علينا أن نذكِّر الناس بالإمكانات الهائلة المذخورة في عقولهم ونفوسهم، وأن ندرِّبهم على كيفية استثمارها.

ج - شيء جيد أن ندرك أن الإنسان في بنيته العميقة ميَّال إلى التشاؤم، فعقولنا تدرك السلبيات بطريقة أفضل من طريقة إدراكها للإيجابيات، ويشير بعض الدراسات إلى أن الإنسان يتحدث مع نفسه في اليوم قرابة خمسة آلاف مرة، وإن(٨٠٪) من تلك الأحاديث يميل إلى التشاؤم، أحاديث داخلية تدور حول الخوف من الفشل، والخوف من المرض، ومن الخذلان، ومن المستقبل، وخوف من العجز عن تحقيق الأحلام ورفض الآخرين، وخوف من المفاجآت غير السارَّة... ولهذا فإن علينا دائمًا أن نبث معاني الثقة بمعونة اللَّـه تعالى والرضا بقضائه وقدره، إلى جانب تشجيع الناس على تذكر ما هم فيه من خير ونعمة.

د - المشكل في الخطاب الإسلامي لا يتمثل في جنوح بعضهم إلى التشاؤم فحسب، وإنما هناك شكل آخر، هو جنوح بعض المتحدثين إلى (تفاؤل) ليس له أي مسوغ،

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢) رواه الترمذي وغيره.

وطالما سمعت من بعض العاملين في حقل الدعوة أن هذا العام سيكون عام نصر وخلاص من الضغوط التي يعانون منها في بلادهم، وحين تسألهم عما يدعوهم إلى ذلك لا تجد لديهم سوى أحاسيس غامضة أو معطيات واهية جدًّا لا تعني أي شيء، وينقضي العام، ولا يتحسن شيء، ويتحول(التفاؤل) إلى مخدِّر يصرف الناس عن الأخذ بالأسباب وبذل الجهد المطلوب!

إن التفاؤل من غير أسباب واضحة وقوية يظل موصولًا بالسذاجة، ولا يليق بالدعاة والمصلحين شيء غير النباهة والتفكير المنطقي...

١١ - الوصاية على المدعوين:

أود في البداية أن أوضِّح ما لا أريده في هذه المسألة، وهو ما يدعيه بعض الناس من أن العلماء والدعاة جعلوا من أنفسهم أوصياء على الذين يدعونهم، ويوردون هذا في سياق الذم،مع أنني أرى أنه من المديح، فأهل كل تخصص هم أوصياء عليه، يقومون بتنميته وتبصير الناس بقضاياه، ويحمونه من الاستغلال السيئ وإلصاق ما ليس منه به.... وعلماء الشريعة والدعاة مكلفون بهذا بالنسبة إلى رسالة الإسلام وعلوم الشريعة، ولم لا والعلماء هم ورثة الأنبياء

أما ما أريده هنا في مسألة الوصاية على المدعوين، فيتمثل في شيئين أساسيين:

عور أبناء الصحوة في بواطنهم بالتميز على الناس ومخاطبة الناس بأسلوب مشحون بالتعالي والخشونة.

وعلينا أن نقول أولًا: إن هذه الملاحظة تظهر في خطاب شريحة من خطباء الجمعة وشريحة ممن يمارسون الوعظ في المساجد والفضائيات، ولا شك أن لدينا دعاة وشبابًا كثيرين يُظهرون في أساليبهم الدعوية الكثير من التواضع والدماثة واللين، ولكننا لا نتحدث عن هذا هنا.

الدعوة إلى اللّـه تعالى والالتزام بأمره بما ينطويان عليه من الاحتساب وكبح النفس عن الشهوات والمضيّ في طريق الفضيلة... يولِّدان لدى كثير من الصحويِّين الشعور بالتفوق والتميز على الآخرين، وهذا شيء لا يمكن دفعه، لكن إذا تذكرنا أن العمل من أجل الدين والالتزام به نعمة من أجلِّ النعم التي حبانا اللّـه تعالى إياها، كان علينا أن ننشغل بحمد اللّـه وشكره عوضًا أن نتلمس الميزات التي حصلنا عليها. إننا إذا

لم نستحضر هذا المعنى فقد تنشأ في نفوسنا حواجز نفسية دقيقة تجعل اندماجنا مع الناس واندماجهم معنا على غير ما يرام، ومن الواضح أن لدى بني الإنسان حاسَّة قوية في إدراك مثل هذه الأمور.

الأمر الثاني الذي يشكل مأخذًا جديًّا على كثير من الدعاة والوعَّاظ - ويمكن بسهولة إلصاقه بالصحويين عامة - هو مخاطبة الناس بأسلوب لا يخلو من شيء من الخشونة والعتاب وأحيانًا التقريع والتوبيخ، وهذا يكون عادة في الأرياف أكثر منه في المدن، **وأود في هذا السياق توضيح الأمور الآتية:**

أ - الطرح المثالي يتيح للإنسان أن يقسو في حديثه على الآخرين، وأشعر أحيانًا أن لدينا معاشر المتحدثين والكتَّاب سذاجة تُشبه سذاجة الأطفال؛ إذ نظن أن الناس مستعدون لأن يقوموا بكل أو جُلِّ ما نطلبه منهم، وهذا يفسر لنا لماذا نطلب منهم أمورًا نحن لا نقوم بها، وننهاهم عن أمور ربما وقعنا فيها، ولا يتوقف الأمر عند الطلب، بل يتجاوزه إلى الإلحاح واللوم والتعنيف ووضع المخاطبين في موضع المتهَم!

ب - من المهم أن ندرك أن الناس اليوم أكثر حساسية للنقد مما كانوا عليه قبل ثلاثين سنة، وهذا بسبب اتساع مساحة الحرية الشخصية وشعور الناس بأن كثيرًا مما يقال يقبل الجدل، وشعورهم أيضًا بأن الذين يعظونهم قد لا يكونون في كثير من الأحيان أفضل حالًا منهم، وهذا كله يجعل الناس لا يقبلون التعبيرات التي تضع المتحدث أو الكاتب في جهة، ومن يتفاعلون معه في جهة أخرى، كما تجعلهم لا يقبلون التعبيرات التي تضخِّم آثار الأخطار التي يقعون فيها، ولا يقبلون الاتهام الواضح بالتقصير... إنهم يرفضون كل ذلك؛ لأنهم يشعرون أن قائله أو كاتبه يمارس نوعًا من الوصاية عليهم، وتلك الوصاية قائمة على اعتقاده بتميزه أو تفوقه على مخاطبيه، وقد كان من شأنه ﷺ أنه لا يذكر في سياق الموعظة أسماء الأشخاص أو القبائل، وإنما يقول: « **ما بال أقوام يقولون كذا، وما بال أقوام يفعلون كذا وكذا** »[1]. حتى لا يثير حفائظ المعنيين بكلامه، وفي هذا درس لنا كي نكون حريصين على احترام مشاعر المستمعين والحذر من التشهير بهم.

من المقبول اليوم أن نعبِّر عن ملاحظاتنا بتعبيرات من نحو:

- نحن نلاحظ اليوم أننا نحرص على...

---

(١) أخرجه أبو داود وغيره.

- لا يستطيع أحد أن يقول: إنه لم يتأثر برياح العولمة.

- تعالوا لنتأمل في أسباب الجفاء الاجتماعي في البلدة.

- أظن أننا لا نختلف في أهمية تقليص ظاهرة التدخين في الحي.

وهكذا ففي التلميح ما يغني عن التصريح، وفي العبارات الدالة على المشاركة ووحدة الرؤية والاتجاه ما يسهِّل اندماج المخاطبين مع صانع الخطاب.

ج - لو عدنا خمسين سنة إلى الوراء لوجدنا أن الجهل والأمية كانا مسيطرين على نسبة عالية من المسلمين، ومن المعروف أن الناس حين يكون مستواهم الثقافي متدنيًا، فإنهم يتلقون الآراء ووجهات النظر على أنها حقائق ثابتة، وهذا من سنن اللّـه تعالى في الخلق، وحين يذيع العلم، ويسود الثراء الثقافي يصبح الناس قادرين على التمييز بين الحقائق المتفق عليها وبين ما هو من قبيل الآراء والاجتهادات الشخصية القابلة للنقاش والجدل، وهذا ما نلمسه اليوم. من المؤسف أن بعض الصحويين يطرحون آراءهم - ولا سيما ما يتصل بانتماءاتهم الدعوية - على أنها أمور قطعية متعالية على الخلاف غير مدركين أن ثورة الاتصالات والإنترنت والبث الفضائي قد جعلت شريحة كبيرة من الناس تتضايق ممن يفرض عليها رأيه، أو يسوق شيئًا من أمور الدين أو من أمور الحياة، هو موضع خلاف، على أنه القول الوحيد الصحيح؛ لذا كان من اللائق اليوم أن نبسِّط الآراء المختلفة في أي مسألة مع براهين وحجج كل رأي، ثم نترك للناس مجال النقاش ومجال الاختيار لما يرونه صوابًا، ولا شك أن من حق المتحدث أن يرجِّح ما يراه الأصوب. هذه المسألة ليست ثانوية - كما نظن لأول وهلة - لأنها تمس عمق منهج تداول الأفكار والآراء في العصر الحديث.

١٢ - هل وحدة العمل الإسلامي مطلب ؟

هذه المسألة من المسائل التي تحتاج إلى مراجعة؛ حيث إن كثيرين من شباب الصحوة يعتقدون أن الخلاف بين أهل العلم والدعاة والمصلحين وعموم الصحويين هو سبب من أكبر أسباب تخلف الأمة، ومن أسباب ضعف تأثير الجهود الدعوية في الناس... وسبب حديثي عن هذا الموضوع ما أعرفه عن جهود هائلة تُبذل في كل بلد من بلدان العالم تقريبًا من أجل توحيد كلمة الدعاة أو دمج بعض الحركات الإسلامية في بعضها... والمشكل هو أنك حين تحاول تحقيق شيء يستحيل، أو يصعب تحقيقه،

فإنك تكون كمن سار خمسمائة ميل على أمل الوصول إلى شيء مهم جدًّا، ثم وجد في آخر الطريق لوحة كُتب عليها: عفوًا الطريق مغلق! ثم إن من مساوئ السعي إلى شيء مستحيل التقاعسَ عن البحث عن بديل، والتقاعس عن السعي إلى التخفيف من سلبيات الحالة الراهنة. إذا أردنا أن نعرف: لماذا لا يمكن دمج الجماعات والحركات الإسلامية في بعضها، ولا يمكن توحيد أنشطتها أو التنسيق بينها على نحو كامل... فإن علينا أن نعرف أسباب وجودها، أي لماذا نجد في كل بلد إسلامي - تقريبًا - عددًا من الجماعات والأنشطة الإسلامية المتعددة والمتباينة وأحيانًا المتنافسة والمتصادمة؟

لدينا قاعدة فكرية ومنهجية عامة تقول: كلما اتجهنا نحو الأصول والكليات وجدنا أن الخلاف نادر أو معدوم، وكلما اتجهنا صوب الفروع والجزئيات وجدنا أن الاتفاق نادرٌ أو معدومٌ، وبناءً على هذا نستطيع أن نعرف لماذا اتفق الفقهاء على أن الظهر أربع ركعات، ولماذا اختلفوا في وضع اليدين أثناء القيام، ولماذا اتفقوا على أن الحج فرض، ولماذا اختلفوا في حكم طواف القدوم وطواف الوداع والمبيت في منى... **العاملون في حقول الدعوة والإصلاح مثل الفقهاء تمامًا في أحوال اتفاقهم واختلافهم، إن العمل الدعوي والإصلاحي يقوم على الاجتهاد وتقدير المصالح والمفاسد؛ ولهذا فإن من الطبيعي أن يكون للصحويين في كل بلدة اجتهادات مختلفة، تجعل عملهم في فريق واحد أمرًا غير ممكن. إذا أردنا الخوض في الأسباب المؤدية إلى اختلاف الدعاة، فإنه يمكن لنا أن نعدَّ منها الآتي:**

أ - النشأة والخلفية الثقافية تؤثران تأثيرًا كبيرًا في الاهتمامات؛ ولهذا فإن الذي ينشأ في رعاية أحد الفقهاء يتأسس وعيه على الاهتمام بتفقيه الناس، وكثيرًا ما يجد نفسه زاهدًا في الانخراط في عمل ذي طابع حركي أو إغاثي....

ب - الاختلاف في تقييم الواقع وتحديد الأساليب والأدوات الدعوية المناسبة، فهناك من يعتقد بأن العمل في مجال السياسة هو الأكثر جدوى، وهناك من يعتقد أن التعليم وإلقاء الدروس هو الأَولى...

ج - التكوين الحزبي القائم على التعصب وإحسان الظن بالذات وتخطئة الآخرين، مما يصرف النظر عن التفاهم والتعاون.

د - وراثة المكانة الدعوية؛ حيث نجد في أنحاء عديدة من العالم الإسلامي من

ورث مشيخة الطريقة الصوفية عن أبيه أو بعض شيوخه، ومن ورث رئاسة جماعة معينة بوصية من أبيه أو شيخه، وهكذا يجد نفسه مسؤولًا عن الحفاظ على تلك الجماعة وعلى منهجيتها في العمل، ويرى أن الاندماج مع جماعة أخرى يضر بذلك.

هـ - بين بعض القائمين على الجماعات الدعوية تحسس نفسي وشيء من التنافس على امتلاك منابر التأثير أو على الاستيلاء على قلوب الجماهير، وهذا يجعل التلاقي صعبًا.

ما العمل؟

إذا كان الحال على ما وصفنا فهل، يكمن الحل في بقاء أمورنا على ما هي عليه، أو أن هناك أشياء يمكن القيام بها؟

في اعتقادي أن هناك أمورًا كثيرة يمكن القيام بها لتحسين العلاقة بين الصحويين في البلد الواحد، ومنها الآتي:

١ - الإقرار بمشروعية الخلاف في الفروع وأساليب العمل في إطار أصول أهل السُّنة والجماعة وفي إطار النصوص القطعية.

٢ - يمكن رفع شعار يقول: أبقى في جماعتي وعملي، وتبقى في جماعتك وعملك، ولكن نتعاون إلى أقصى حدود التعاون، ودائمًا شيء خير من لا شيء.

٣ - إذا لم يحدث تعاون فهذا لا يعني أن الأمة إلى بوار، حيث إن المهم هو عدم التناحر، ونحن نعرف أن كثيرًا من الأعمال الدعوية والخيرية والتربوية تحتاج إلى اهتمام أصحابها بها، ولا تحتاج إلى الاندماج والاتحاد مع أي أعمال مشابهة أو مغايرة.

٤ - من الحيوي أن لا يعكِّر الانتماء على الولاء؛ حيث إن الانتماء إلى جماعة يتطلب السمع والطاعة لقيادتها، وحفظ أسرارها... وينبغي مع هذا أن يظل الولاء لعموم المسلمين، ولو كانوا فُسَّاقًا، فالولاء للمسلم لا يسقط إلا بذهاب أصل الإسلام والخروج من الملة، إن له حق النصح والمناصرة والعدل وعدم إسلامه للعدو، وله حق المعاونة على ما يُصلح أمور دينه ودنياه.

٥ - ينبغي أن يكون موقف الصحوي من الجماعة التي يعمل معها مثل موقف الفقيه النبيه من المذاهب الفقهية، فهو يعرف أن في كل مذهب من المذاهب المعتمدة أقوالًا وأدلة قوية، وأقوالًا وأدلة ضعيفة، وهو يعبد اللّـه تعالى ويفتي في ضوء تلك المعرفة،

إن الداعية حين يعرف المآخذ على جماعته يصبح أبعد عن التعصب لها، ويجد مجالًا للتعاون مع غيرها.

٦ - طرح المشروعات المشتركة يشكل لونًا من ألوان الوحدة؛ حيث يمكن للعديد من الجماعات أن تدعم مشروعًا دعويًّا أو خيريًّا كبيرًا يعجز في العادة أي منها عن إقامته بمفرده، وذلك مثل إنشاء جامعة كبيرة، أو تدريب خطباء القطر، أو ترتيب بعثات للشباب النابه...

٧ - إن كثيرًا من آثار الفرقة والتشتت يصبح ألطف وأخف في حالة التزام الأدب الإسلامي الرفيع بين الفرقاء والمجموعات ذات الانتماء المختلف والقيام ببعض المبادرات، ومن تلك الآداب:

- إنصاف أبناء الجماعات لبعضهم وإظهارهم لمحاسن المخالف وإيجابياته.

- فهم منهجية الجماعة المخالفة والظروف التي تمر بها، والضغوط التي تتعرض لها قبل إصدار الحكم عليها؛ وذلك لأن الظروف الصعبة تدفع دفعًا إلى القيام بإجراء موازنات رديئة.

- التثبت والتأكد من الأقوال التي تنسب إلى الجماعة المباينة.

- اغتنام كل فرصة ممكنة للتضامن والتعبير عن الاحترام والتحاور والتشاور فيما يعود بالخير على الجميع.

- تغليب حسن الظن عند غموض الأمور.

١٣ - خطورة التنظيم السري:

هذا عنوان لافت، وقد يستغرب بعض القراء الكرام منه، فالذين يُنشئون التنظيمات يفرون من المخاطر ومن الملاحقات التي يتعرضون لها بسبب أنهم يقومون بأنشطة يحظرها القانون في بلادهم، أو هي محظورة لأنه ليس هناك أي قانون، فكيف يكون التنظيم السري خطيرًا؟!.

أقول: إذا كان القيام بأنشطة محظورة يشكل في أحيان كثيرة خطورة على القائمين بها، فإن التنظيمات السرية تشكل خطرًا معنويًّا على القائمين بها وعلى كفاءة الأنشطة نفسها.

أنا أعرف أن كثيرًا من الشباب يقولون: إن من حقنا الدعوة إلى العمل في الخفاء؛ لأننا لا نستطيع أن نتخلى عن واجباتنا تجاه ديننا وأمتنا، وهذا الكلام واضح وقوي، **لكن ينبغي أن أشير إلى الأمور التالية:**

أ - التنظيم السري يتناسب مع الفكر الانقلابي الذي يعتمد مبدأ قلب الطاولة مرة واحدة من خلال استخدام القوة؛ وذلك لأنه يؤمِّن درجة عالية من الانضباط ووحدة الصف وقلة الاعتراض على قرارات القيادة وسرعة الاستدعاء، وحسن أداء المهام القتالية، وبما أن العمل العسكري يشتمل على درجة عالية من الخطورة، فإنه لا يُقدِم على الانتساب إليه إلا أناس جادون وقادرون على التضحية، لكن علينا أن لا ننسى أن لدى معظم القيادات الإسلامية والمفكرين الإسلاميين قناعة راسخة بعقم الانقلابات العسكرية وعقم استخدام القوة في الإصلاح، وبذا يكون التنظيم السري قد فقد أهم دعائم وجوده ومسوغات مشروعيته، ونحن نستثني بالطبع الحركات التي تقاوم المحتل؛ حيث إن شرف المهمة يدعو إلى تحمل سلبيات العمل السري مهما كانت.

ب - قالوا: إن المتكبر يؤسس للاحتقار المتبادل، لأنه يرى الناس صغارًا، ويرونه صغيرًا، ويمكن أن أقول: إن العمل السري يؤسس للخوف المتبادل، فالذي يعمل في منظمة سرية يخاف من الناس حتى لا يكتشفوا أمره، ويخاف منه الناس حتى لا يُحسَبوا عليه، ويُصنَّفوا على جماعته، وفي هذا خسارة كبيرة؛ لأن تربية الناس على الفضيلة تحتاج إلى احتكاك واسع بهم، والعمل الدعوي عامة يحتاج إلى مبادرات إصلاحية والانخراط في تحركات جماهيرية كبيرة من أجل نشر الخير ومحاصرة الشر، وهذا كله يحتاج إلى اختلاط بالناس، وبعضهم يختلط بالناس فعلًا لكن من غير هوية واضحة، فهو كمن يكتب في الصحافة تحت اسم مستعار، وهذا يجعل من العسير عليه تكوين تيار شعبي واضح المعالم والأهداف.

ج - يُضَّطر الذي يخفي هويته الدعوية وانتماءه إلى الكذب في العديد من المواطن، ونحن نعرف أن منهم من حلق لحيته، ومنهم من يتخلف عن صلاة الجماعة، وبعضهم يدخن... وكل ذلك من أجل التخفي والتمويه، وهذا يؤثر كثيرًا على الجانب الروحي لدى الإنسان، ويؤسس للازدواجية في شخصيته.

د - لو رجعنا إلى التاريخ لوجدنـا أن كل المذاهب والأفكار المنحرفة نشأت

في أجواء السرية والكتمان، والحقيقة أن العقائد والأفكار تحتاج - حتى لا تتعفن وتتأسن - إلى الهواء والضوء، وهواؤها وضياؤها هو النقد والنقاش والحوار، ولو نظرت إلى وضعية خلية سرية لوجدت أنها تجتر الأفكار التي لديها اجترارًا، بسبب الانغلاق الذهني الذي ابتليت به، وفي هذه الحال تنمو الأخطاء وتكبر الانحرافات دون أن يشعر أحد.

هـ - من طبيعة التنظيم السري إضعاف ولاء المنخرطين فيه لكل التكوينات الاجتماعية المحيطة، وتقوية الولاء للقيادة، وتظهر المشكلة عند الاختلاف مع القيادة أو مع التنظيم؛ حيث يتحول الولاء الشديد إلى نوع من المفاصلة الشديدة، ومن المألوف حينئذ أن يصاب من يتركون تنظيماتهم بالكثير من الإحباط واليأس، فيتحولون إلى أشخاص سلبيين، وهم مع هذا يجدون صعوبة كبيرة في العودة إلى المجتمع والجماعة الأرحب بسبب ما سبق من نفور وقطيعة، وهذا مشاهَد بكثرة.

و - إن التنظيم السري يحرم أصحابه من الدفاع عن أنفسهم ضد الذين يتهمونهم بشتى التهم؛ وذلك ببساطة لأنهم لا يملكون الوسائل الإعلامية التي تمكِّنهم من ذلك، كما أن التنظيم السري يحرمهم من الدعم المادي الذي يمكن أن يقدمه المسلمون للدعوة، ونحن اليوم في عصر محوره المؤسسات، وتشييد المؤسسات يحتاج إلى المال، فمن أين يأتي المال لمن يتحرك باسم مستعار وقد غطَّى وجْهَه بالعديد من الأقنعة؟

إن خسارتك لمناصرة الناس لقضيتك لا تعدلها أي خسارة أخرى؛ لأن تخلي الناس عن مساندة أي قضية يعني خسارتها على نحو مؤكد.

ز - العمل الدعوي المعلن قد يلقى بعض التضييق، وقد يجد أصحابه أنهم مكبَّلون، على عكس ما يجده الذين ينطلقون في أنشطة سرية؛ حيث إن عدم تفكيرهم في الحصول على إذن لأنشطتهم يجعلهم يشعرون بنوع من حرية الحركة، وهذا في الحقيقة قد يكون صحيحًا على المدى القصير، أما على المدى المتوسط والبعيد فإن العمل العلني هو الذي يربح؛ لأن النشاط العلني يكون في مأمن من الضربات القاصمة، وهو من خلال مبدأ: (إذا عملنا ما هو ممكن اليوم صار ما هو مستحيل اليوم ممكنًا غدًا) يوسع مجالاته باستمرار، ويفتح لنفسه حقولًا جديدة، من خلال اكتساب أصحابه للخبرات وكسبهم لمزيد من الأنصار. تتلخص التجربة التي لمسها كثير من الخبراء في جدوى التنظيمات

السرية في كلمات قليلة، هي أن التنظيم السري لا ينفعك وقت الشدة، ولا تحتاج إليه وقت الرخاء

إني أرجو أن ينظر شباب الصحوة إلى العمل السري على أنه أشبه بأكل الميتة، يلجأ إليه الإنسان عند الضرورة، ويأكل منه على مقدار ما يساعده على أن يبقى حيًّا.

١٤ - الجماعات الإسلامية وضعف الإدارة:

ليس من الإنصاف وضع الجماعات الإسلامية في سلة واحدة، لكن يمكن القول: إن الجماعات الإسلامية التي تدار بطريقة ممتازة وبكفاءة عالية - قليلة جدًّا، وإذا طبقت معايير الجودة التي تضعها الشركات الكبرى لنفسها على معظم المؤسسات والجمعيات والجماعات الإسلامية، فقد لا تنطبق إلا على النزر اليسير منها؛ ولهذا فإن في إمكاننا القول: إن ضعف التنظيم الإداري يشكِّل ظاهرة واضحة لدى الجماعات والمؤسسات الإسلامية، ومن المؤسف القول: إن المؤسسات الإسلامية الحكومية والرسمية ليست بأحسن حالًا من نظيرتها الشعبية، مع أنها تملك إمكانات كبيرة!

السؤال هو: أين مكمن الخلل في الجماعات الإسلامية على الصعيد الإداري؟

في مقاربة سريعة أود الإشارة إلى الآتي:

أ - تم وصف عصرنا بصفات عديدة، منها وصفه بعصر الإدارة؛ وذلك لأن الإدارة باختصار شديد هي: **الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة من أجل تحقيق الأهداف المرجوة**، وقد ثبت أن مشكلة العالم على مدار التاريخ لم تكن في شح الموارد والحصول على موارد جديدة، وإنما في مدى كفاءة استثمار الموارد المتاحة، وهذا **ينطبق على كثير من الجماعات الإسلامية؛ حيث إن لديها الكثير من الشباب المخلص والراغب في تقديم شيء نافع لكن لم يجد الأطر التي يعمل فيها، ولا المهمات التي تستنفد طاقته. وتتأكد قيمة هذا الملحظ إذا تذكرنا أن عصرنا هذا ليس عصر الأعداد الكبيرة والأشياء المكدَّسة، وإنما هو عصر الإبداع وعصر الفاعلية والتفوق والإنجاز**

ب - شيء جيد أن ندرك بأن المنتمين إلى جماعة إسلامية ليسوا متفرغين لتنفيذ أوامر قيادتها، وليسوا موظفين لديها؛ ولهذا فلا يصح أن نطلب منهم من الإنجاز والعطاء ما نطلبه من الموظف المتفرغ الذي يتقاضى مرتبًا على عمله.

ج - قد يقول قائل: لماذا نحاسب الجماعات الإسلامية على تقصيرها في ترتيب

شؤونها ونحن نعرف أن القيادات والأفراد يقومون جميعًا بعمل تطوعي واللّـه تعالى يقول: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١].

الجواب هو أن الانتماء إلى مؤسسة دعوية أو إغاثية يوفر لصاحبه نوعًا من الشعور بإبراء الذمة وأداء الواجب، وهذا يجعله راضيًا عن نفسه، ويُفقده الكثير من روح المبادرة؛ لأنه ينظر إلى نفسه على أنه جندي تنفيذ، ونحن نعرف أن من النادر أن نرى شابًّا أو كهلًا يعمل مع جماعتين أو أكثر، مما يعني أن انتماءه إلى جماعة لا توظف إمكاناته على نحو جيد يجعله أشبه بقماش نفيس دفعنا به إلى خياط غير ماهر؛ حيث نجد أنفسنا وقد خسرنا القماش، ولم نحصل على ثوب يُلبَس، لكن علينا أن نعترف أيضًا أننا لا نستطيع محاسبة من لا يتقاضى أجرة على عمله كما نحاسب موظفًا وقّعنا عقدًا واضحًا معه، وهذا يعني أن أداء كثير من الذين يقومون بأعمال احتسابية سيكون أقل من غيرهم.

وإذا تذكرنا ما أشرنا إليه من تراجع المعاني الروحية والحوافز الإيمانية لدى كثير من الناس، فإننا سنعرف أن كثيرًا من الجماعات الإسلامية تعاني من نقص في أعداد الذين يُظهرون استعدادًا للعطاء المجاني الكثيف والمتقن، مما يعني وجود صعوبة في العثور على ما يكفي من الأشخاص الذين يستطيعون قيادة مؤسسات دعوية ممتازة وناجحة

د - يعاني معظم الجماعات الإسلامية من أن هياكلها الإدارية هي هياكل تقليدية بسيطة، ومعظم المشرفين على تلك الهياكل لم يتلقوا أي تعليم أو تدريب يمكّنهم من تطوير تلك الهياكل أو وضع هياكل جديدة بديلة عنها، بل إن بعضهم لم يألف خلال عمله شيئًا اسمه التحديد الفني للأهداف، ولم يَخْبَر شيئًا، اسمه التخطيط الاستراتيجي الدعوي، أو كيفية المواءمة بين الأهداف الآنية العاجلة وبين الأهداف بعيدة المدى... وكل هذا بسبب أن معظم الجماعات لا تستطيع - لأسباب عدة - إنشاء بيئة حيادية، يمكن لشخص كفء أن يدير بعض أنشطتها دون أن يكون منتميًا إليها، كما هو الشأن في المؤسسات التجارية، وهذا يجعلها مضطرة إلى ترقية أشخاص كثيرين إلى وظائف ومسؤوليات عليا لا لشيء إلا أنه ليس هناك غيرهم!

هـ - الإنسان مفطور على جعل أنشطته ذات غايات محددة، لكنه يجد نفسه مرتبكًا أشد الارتباك في التفريق بين الأحلام والأمنيات وبين الأهداف.. **الأمنية** عبارة عن ثمرة لانطباع شعوري أو نزق عاطفي أو الحدس بشيء من الأشياء، أما الهدف فله شأن آخر؛

حيث إن على من يسعى إلى وضع أهداف حقيقية أن يعرف الكثير من الأمور، منها: المعطيات المتوفرة في البيئة التي يعمل فيها، وأن يعرف كذلك ما لديه من موارد وإمكانات معنوية ومادية، وهذا يتطلب درجة حسنة من الوعي والمعرفة بالذات والمحيط.

أما الهدف فينبغي أن يكون واضحًا ومحدودًا حتى يمكن قياس ما تم إنجازه منه وتحديد مؤشرات التقدم نحوه، وهذا يتطلب خطة لبلوغه، وذلك كأن تقول جماعة دعوية: إننا نستهدف أن تصبح نسبة الذين يقيمون الصلاة في المنطقة الفلانية (٧٠٪) من البالغين خلال عشر سنوات، ويكون هناك تفصيل لما يمكن إنجازه من ذلك خلال السنوات الثلاث الأولى - مثلًا - وتفصيل ما يمكن إنجازه خلال السنوات الثلاث أو الأربع التي تليها مع توضيح الأساليب والأدوات التي ستستخدم في ذلك. هذا مع الأسف غير متوفر لدى معظم الجماعات الإسلامية؛ ولهذا فإنها لا تعرف على أي شيء ستحاسب مسؤوليها، بل إن بعضها لا يعرف: هل الجماعة في تقدم أو في تقهقر؟!

و - عدم وجود قيادات ذات كفاءة عالية، وعدم وجود خطط عملية جيدة، وعدم وجود أهداف واضحة ومحددة... إن عدم وجود كل هذا لدى كثير من الجماعات الإسلامية أدى إلى شيء خطير جدًّا هو ضعف إنتاجية الأفراد الذين ينتمون إلى تلك الجماعات، بل أستطيع القول: إن كثيرين منهم مصابون بنوع من البطالة، فهم لا ينجزون أي شيء، ولو سألتهم عما يقدمونه للمجتمع وللناس من خدمات، وما يبذلونه من جهود على صعيد الدعوة والبلاغ المبين، لم تجد لديهم ما يتحدثون عنه، ولهذا عاقبة خطيرة حيث إن كثيرًا من القيادات يبثون الحماس في نفوس الشباب، ويشحنونهم عاطفيًّا لكنهم لا يوفرون لهم الأطر والبرامج والأنشطة لتفريغ تلك الطاقات، وهذا يؤدي - كما أشرنا - إلى عدم وجود نتائج ملموسة، ويدفع بأولئك الشباب إلى الالتحاق بمنظمات تمارس العنف والإرهاب باسم الإسلام، وفي هذا جناية على أولئك الشباب وجناية على الأمة أيضًا، وعلى سمعة الإسلام العالمية.

إن الجماعات الإسلامية تشكل العمود الفقري للصحوة، وإن القصور في قياداتها والضعف في هياكلها الإدارية، يخفض سقف إنجازات الصحوة، ويولِّد الكثير من المشكلات.

أتمنى أن يكون لدينا مؤسسة خيرية كبرى تكون مهمتها تدريب الناس على قيادة

الأعمال الخيرية والدعوية والتطوعية، كما تقوم بإعادة هيكلة المؤسسات الخيرية والدعوية... ومساعدتها على رسم خططها وأهدافها، كما تقوم بمنح الجماعات والمؤسسات الدعوية شهادات الجودة والإتقان التي تستحقها على غرار ما هو معمول به في الشركات والمصانع والمؤسسات التجارية.

إن هناك الكثير من الأمور التي أظن أن على الصحويين أن يراجعوا مواقفهم منها وأساليبهم في التعامل معها، لكن المقام لا يتسع لذكرها هنا، وأعتقد أن السياقات القادمة ستساعدنا على الحديث عن بعضها، بل ربما أحوجتنا إلى إعادة الحديث عن شيء مما ذكرناه.

* * *
* *
*



الصحوة والآخرون

مضت سُنة اللّـه تعالى في أن تكون (العلاقات) بين الناس بعضهم مع بعض، والعلاقات بين الناس والأشياء - موضعًا للارتباك في الفهم والتفسير وموضعًا للمشقة على مستوى التعامل والإصلاح، وقد تعودنا من قديم الاهتمامَ بالأشياء وغضَّ الطرف عن العلاقات بينها، مع أننا كثيرًا ما نرى أن الشيء هو هبة علاقاته. الحديث هنا موجَّه لكل أولئك الذين يعرفون القيمة التي أضافتها الصحوة الإسلامية إلى حياة المسلمين، وكل أولئك الذين يجعلون من الإسلام عقيدةً وشريعةً منطلقًا لإصلاح الواقع والنهوض بالأمة. الآخرون في هذا الحديث هم أولئك المثقفون الذين يختلفون مع الصحويين في طروحاتهم، والذين لهم رؤى واجتهادات ومواقف غريبة عن منطق الشريعة وعن أدبياتها. كما أنني أشعر أن عليَّ أن أقول شيئًا حول علاقة الصحويِّين بالشعوب والدول غير الإسلامية، فنحن اليوم منخرطون في علاقات واسعة مع كل أمم الأرض، وفي أوربا وحدها نحو من ثلاثين مليون مسلم يواجهون اليوم موجات من العداء، وهم في أمسِّ الحاجة إلى رؤية تساعدهم على إدارة تلك المواجهات بحكمة وبصيرة.

الآخرون في الداخل والخارج درجات عدة، فمنهم من هم قريبون جدًّا من الصحوة، لكن لديهم اعتراضات على اجتهادات أو سلوكيات بعض رموز الصحوة، ومنهم من يهاجمون الصحوة بضراوة استنادًا إلى بعض النصوص الشرعية، ومنهم من يهاجم الصحوة بسبب سوء الفهم أو الجهل، كما أن منهم من يضمر عداوة شديدة للإسلام والمسلمين، لكنه يهاجم طلاب العلم والدعاة والصحويين عامة؛ لأنهم يشكِّلون رأس الحربة... هؤلاء جميعًا موجودون داخل المجتمعات الإسلامية وخارجها والحديث بالتفصيل عن العلاقة التي ينبغي أن تقوم معهم قد يحتاج إلى عدد من الكتب، بل قد كتب في ذلك عشرات الكتب ومئات البحوث؛ ولهذا فإني سأذكر أهم الركائز التي ينبغي أن يقوم عليه موقف الصحويين من المختلفين معهم والمعادين لهم، وذلك عبر المفردات التالية:

١ - لا تشوِّه الآخر:

إذا كان الاختلاف بين الناس سنة من سنن اللّـه في الخلق، فإن علينا ألا نستهجن

وجوده، وإنما علينا أن نقوم للَّه تعالى فيه بالقسط والعدل، وقد أمرنا ربنا بذلك في العديد من الآيات القرآنية، منها قوله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[المائدة: ٨] أي اعدلوا في الشهادة، ولا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم؛ لأن العدل مطلوب مع العدو والصديق. ومنها قوله: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥] والأشياء تشمل جميع ما لدى الناس من أمور مادية، وجميع ما يتصل بهم من أمور تاريخية وأخلاقية بالإضافة إلى ما لديهم من رؤى وأفكار.. حين يدخل الواحد منا على النت، ويطَّلع على تعليقات كثير من شباب الصحوة على مقالات كتَّاب نختلف معهم، نجد كثيرًا من الاتهام والبغي والتوبيخ... بحق وبغير حق، حتى إنني أشعر أن من كتب تلك التعليقات لم يتلقَّ في التربية المنهجية والخلقية أي درس من الدروس، وهذا محزن للغاية!

الآخر قد يكون عدوًّا، وقد يكون شيئًا مؤذيًا وخطيرًا بالنسبة إلينا، لكن يظل علينا أن نعامله بإنصاف، حتى لو لم يقابل ذلك بمثله، فالمسألة مسألة مبدأ قبل كل شيء، ثم إن (الآخر) قد يكون في منزلة مرآة نطالع فيها محاسننا وعيوبنا، ومن المهم أن لا نشوِّه تلك المرآة حتى لا نحرم أنفسنا من الاستفادة منها. ولدى الآخر - بعد هذا وذاك - جزء من الحل للمشكلات التي أعاني منها، ولديَّ جزء من الحل لمشكلاته أيضًا، وإن المصلحة تقتضي بأن نترك دائمًا مساحة لتلاقح الأفكار وتبادل المنافع، وهذا يتنافر مع تشويه الخصوم وطمس معالمهم وملامحهم. إنك تجد لدى المفكر والفيلسوف والكاتب الواحد مئات الأفكار، وبين تلك الأفكار ما هو صواب ومفيد قطعًا، وينبغي أن لا نحرم أنفسنا منه.

إن كثيرًا من تشويه الخصم يأتي من خلط الأفكار والاتجاهات بالسلوكيات والمواقف، حيث تجد كثيرًا من شباب الصحوة لا يهتمون بالنقد المنهجي والعلمي لأفكار المخالفين، وإنما يركِّزون على ما يسمعونه أو يعرفونه عنهم من تقصير في أداء الشعائر أو انحراف في السلوك الوظيفي أو السيرة الذاتية... وهذا شيء عانينا منه عبر التاريخ، وما زلنا نعاني، إننا طلاب حق، ودعاة إلى الوئام والمصالحة، وإن اللمز بخصوصيات الناس يُلحق أفدح الأضرار بذلك، وينطوي أحيانًا على ظلم لأسر من نختلف معهم، كما يجرُّنا إلى الاعتماد على الدسائس والشائعات، وكل هذا من البغي والشر.

٢ - القياس على الذات:

صح عنه ﷺ أنه قال: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»[١]، وقد انبثق من هذا المفهوم العظيم قاعدة ذهبية لو تم تطبيقها بين الناس لزال الكثير من المشكلات التي نعاني منها، هذه القاعدة هي قولهم: (عامل الناس كما تحب أن يعاملوك) إذا أردنا أن نعرف ما الذي يريده منا الناس، فلنسأل أنفسنا عن الأشياء التي نريدها منهم، وحين نفعل ذلك نكون في غاية الإنصاف وغاية الفهم لمن حولنا، ولعل من جملة ما نريده نحن من خصومنا، وما يريده خصومنا منا الأمور الآتية:

أ - التثبت:

صفة التثبت من الصفات المهمة جدًّا في زماننا؛ حيث إن هناك من يتعمد تشويه أقوال وآراء أهل العلم والمثقفين لخدمة جهات بعينها، كما أن وجود (الإنترنت) أتاح لملايين الأشخاص أن يتبادلوا المعلومة والفكرة الواحدة؛ والشيء إذا كثر تداوله كثر فيه التحريف والتخليط؛ لهذا فإن علينا أن نتثبت، ونبالغ في التثبت قبل أن نحكم على ما نسمعه أو نقرؤه، وإلا فقد نتهم بريئًا ونحن لا نشعر، وقد نبَّهنا اللَّه تعالى إلى هذا حين قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. صحيح أن إمكانات التزييف زادت، لكن أيضًا صارت إمكانات التحقق أكبر بسبب ثورة الاتصالات الهائلة.

ب - النظرة الشاملة:

قد تعودنا منذ زمن بعيد أننا إذا نفرنا من كلمة قالها شخص أو من موقف غير لائق وقفه فلان من الناس... أن نعرض عنه بالكلية، ونسقطه من حسابنا بشكل نهائي، وحين أكون أنا، أو تكون أنت ذلك الشخص، فإننا نشعر بالظلم، وهذا هو شعور باقي الناس.

إن المرء قد يقول الفكرة الخاطئة، ويتشبث بها، لكن يكون منهجه العام صحيحًا، كما أن الإنسان قد يقف في قضية ما موقفًا غير حميد بسبب طمع أو غلبة شهوة أو سوء تقدير... ولكن سيرته العامة مرضية أو مقبولة؛ ولهذا فإن علينا أن نقوِّم الخصم تقويمًا شاملًا، حتى لا نرسم صورة ذهنية سوداء عنه بسبب غلطة أو هفوة أو موقف فذ، وأظن أن كثيرًا من القرَّاء الكرام شعروا في العديد من المواقف بأنهم ظُلِموا بسبب شيء مما أشرنا إليه

---

(١) متفق عليه.

إن اللّــه تعالى هو الحكم العدل، وقد أخبرنا أنه لا يضيع مثقال ذرة من خير أو شر، وعلينا أن نتخلق بأخلاق اللّه.

ج - عدم نزع الفكرة من سياقها:

يشكو بعض من يوصفون بأنهم ليبراليون أو يحملون فكرًا غير إسلامي من أن الصحويين يعمدون إلى كلامهم، فينزعون منه بعض الجمل أو التعبيرات، ثم يشهِّرون بهم من أجلها على المنابر وعلى الشبكة العنكبوتية... ولا شك لديَّ في أن من يفعل ذلك مخطئ وظالم؛ لأن من طبيعة النظام اللغوي عدم تمكن جملة أو تعبير مختصر من نقل كامل المعنى الذي يريده المؤلف، وهذا موجود في الكتاب العزيز، كما في قوله سبحانه: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ [الماعون: ٤ - ٦] فمع أن ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ جملة مفيدة إلا أن الاقتصار عليها يفيد عكس المراد، بل إن الدقة في فهم النصوص تتطلب أحيانًا التدقيق في الوقف على الكلمات حتى لا يختلف المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٣٦] حيث ينبغي الوقف على ﴿ يَسْمَعُونَ ﴾ لأن عدم الوقف يفيد مشاركة الموتى في الاستجابة، وهذا غير المعنى المراد. ومثله قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٦٥] حيث إنه يُطلب الوقف على ﴿ قَوْلُهُمْ ﴾ حتى لا يتوهَّم أن ما بعدها من كلام المشركين. **مسألة الاهتمام بالسياق مهمة جدًّا، فما يقال في سياق المجاملة وفي سياق الرد على المخالف، وفي سياق النقد كثيرًا ما يفتقر إلى الدقة وينبغي التعامل معه بحسب الظرف والسياق الذي قيل فيه، أليس هذا ما نريده من الآخرين عند مناقشتهم لمقولاتنا ؟.**

د - الحكم على الظاهر:

الحكم على النيات والسرائر من أكثر ما يعكر الأجواء بين الناس، وما ذلك إلا لأن اللّـه تعالى وحده هو الذي يعرف بواعث الناس على الأعمال ومقاصدهم منها، وإن البحث عنها والمبالغة في ذلك من الخروج على المنهج العلمي الصحيح، كما أنه يؤدي إلى الوقوع في سوء الظن في الناس وهذا محرَّم. طالما سمعنا من يقول: فلان يبحث من وراء مقاله عن الشهرة، وفلان يريد الحصول على منصب، وفلان عميل للجهة الفلانية، وفلان يتكلم بدافع الخوف أو التملق... ومع أن بعض المثقفين هم قطعًا كذلك، لكن هذه الأصناف من الناس موجودة بين الصحويين وغيرهم بنسب مختلفة، والمشكل

دائمًا في التعيين والتحديد. ويتصل بمسألة الحكم على البواطن ما يطلقه بعض الناس على بعض ما يسمعونه من أنه (كلام تكتيكي) أي أن قائله لا يعتقد به، وإنما يقوله لظرف طارئ، أو بسبب ضغط معين، ونحن نعرف أن الاستراتيجية مهما كانت جيدة، فإنها لا تستغني عن بعض المواقف (التكتيكية)لكن الحكم على كلام أو موقف بذلك صعب ومعقد، ولا يخلو من التخمين وسوء الظن؛ ولهذا فإن الأَوْلى عدم الإسراف فيه مهما كانت الأسباب حتى لا تفقد الأفكار والأقوال والمواقف مصداقيتها، وحتى لا تضعف ثقة المثقفين بعضهم ببعض.

٣ - إشعار الخصم بوجود فرصة للمراجعة والتراجع:

نحن مع المواقف الواضحة ومع وضع النقاط على الحروف، لكن من المهم أن يتعامل الصحويون مع الذين يعدونهم خصومًا لهم على أساس أنه ليس هناك خصومات دائمة، فقد يتراجع الخصم عن بعض أقواله وبعض مواقفه - وهذا يحدث بكثرة - ومن واجبنا أن نقدِّر ذلك، ونشيد بأي موقف معتدل أو منهجي يقفه باحث أو قائد أو منافس... إن لدى كثير من الناس ضمائر حرة وعقولًا منفتحة تجعلهم يراجعون مقولاتهم، وإن تعامُلنا معهم بإنصاف وتهذيب ولطف يشجعهم على تلك المراجعة، وكلي أمل أن تؤكد الجماعات الإسلامية على أتباعها، ويؤكد المثقفون المسلمون عامة على هذا المعنى، فما نقرؤه على النت من تعليقات على أطروحات بعض العلمانيين والليبراليين ينشر روح الحزبية في المجتمع، ويرسخ الانقسام. الداعية الحقيقي يخاصم ويجادل، ويدافع عن مبادئه ومنهجيته... لكنه يظل يتطلع إلى رجوع خصومه إلى الحق وإلى استجابتهم لداعي الخير، فالمسألة ليست صراعًا ومغالبة أو استمتاعًا بالنصر، وإنما هي جهود تُبذَل من أجل هداية الخلق وإرشادهم إلى الطريق الصحيح

٤ - الحذر عند تصنيف الخصوم:

أستطيع القول: إن مما ابتلي به كثير من الصحويِّين المسارعة إلى تصنيف القريبين والبعيدين: هذا سلفي منغلق، وهذا سلفي منفتح، وهذا إخواني، وذاك سلفي حركي، وهذا تنويري وفلان عقلاني، أما فلان فنصوصي... ويسلكون المسلك نفسه مع من ينظرون إليهم على أنهم خصوم للصحوة من اليساريِّين والليبراليِّين والعلمانيِّين... والعجيب أن ذلك التصنيف يتم عند توفر أي إشارة دالة، فإذا كتب المرء في مجلة

يصدرها سلفيون صار سلفيًّا، وإذا قدَّم برنامجًا في قناة يمتلكها الإخوان صار إخوانيًّا، وإذا قدَّم بحثًا إلى مؤتمر نظمه ليبراليون صار ليبراليًّا... وهذا باب عظيم من أبواب الوهم والظلم والقول من غير علم،فنحن نعرف أن اتجاهًا معينًا قد يدعو شخصية كبيرة للكتابة أو لحضور مؤتمر، لا لأنه من أتباع ذلك الاتجاه، ولكن من أجل كسب متعاطفين وجذب قراء جدد - مثلًا - وقد يدافع المرء عن فكرة من أفكار الصوفية، وهو على خلاف معهم لأنه يوافقهم في تلك الفكرة، أضف إلى هذا أن المرء في شبابه قد ينتسب إلى مجموعة أو جماعة ثم بعد مدة يبتعد عنها، لكن من المؤسف أن مدمني التصنيف لا يعرفون شيئًا عن كل هذه الأمور ! ومن وجه آخر فإنك لو سألت أحد هؤلاء عن معنى طالب علم منفتح، أو سلفي منغلق... فإنه لا يستطيع تحديد مراده وشرحه.

نحن نعرف أن الفكر الليبرالي تَشَكَّل في أوربا من أجل كسر هيمنة رجال الكنيسة على الحياة العامة، وكانت الحرية وحق الاختيار هما أساس ذلك الفكر، لكن نعرف أيضًا أن (الليبرالية) تتكيف مع المجتمع الذي تكون فيه؛ ولهذا فليس هناك ليبرالية واحدة وإنما هناك ليبراليات كثيرة، وقد نجد ممن نُطْلِق عليهم هذا الوصف من يصلي ويزكي ويحج لكنه يرى أن الدعاة أو المحتسبين يمارسون نوعًا من الهيمنة والسيطرة على المجتمع، أو أنهم يخطئون في ممارسة مهامهم وأداء أعمالهم، أو يرى أن المزيد من الحرية أصلح للناس، وأعون على النهضة... فهذا يختلف كثيرًا عن الذي يُضمِر نوعًا من العداء والمقت للإسلام ودعاته، ويختلف عمن يرى في أسلوب عيش الغربيين مرجعًا معتمدًا في التنظير لحياتنا، ويختلف عن(الأجير) الذي اتخذ من مهاجمة الصحوة والدعاة بابًا يرتزق منه... المهم أن ندرك أن الذين نختلف معهم أصناف عدة، كما أن الذين نعدهم صحويين ليسوا في صواب المنهج والرؤية في مرتبة واحدة.

٥ - وضوح الأفكار:

يظل الوضوح فضيلة من أعظم الفضائل، وأنا أشعر أن كثيرًا من خصومنا يتضايقون منا لأننا لا نكون واضحين بما فيه الكفاية، بل إننا متَّهمون بأننا نمارس نوعًا من(الغمغمة) المقصودة في بعض الأحيان، وأنا أعتقد أن هذا ليس بعيدًا عن الواقع، لكنني في الوقت نفسه أقول: إن الآخرين ليسوا أشد وضوحًا منّا، فهم أيضًا يتهرَّبون من الإجابة عن كثير من الأسئلة، ويطرحون كثيرًا من المسائل بطرق لا تخلو من الغموض،وعلى كل حال

فإن علينا أن نحرر عباراتنا بشكل جيد، وأن نزيل اللبس والإبهام عن طروحاتنا؛ لأن في هذا خدمة للدعوة والأمة وللسجال القائم في الساحة الثقافية

أنا ألاحظ أن كثيرًا من الدعاة يحسنون الاعتراض على الآخرين ويُطيلون في تفنيد آرائهم، لكنهم لا يوضحون وجهات نظرهم الخاصة، وهذا واضح في أحاديثنا عن الإصلاح وعن العلاقات الدولية وعن أمور المواطنة والمعايشة لغير المسلمين داخل البلاد الإسلامية... إن كلام الخصوم قد يكون فعلًا غير مقبول؛ لأنه مصادم لبعض النصوص الشرعية ولبعض الأحكام الفقهية، لكن قد يصبح مقبولًا إذا اتكأنا في الاجتهاد على (المصالح المرسلة) - مثلًا - لكن هذا لا يتضح على النحو المطلوب إذا لم نطرح للنقاش وجهة نظرنا الخاصة.

هناك شيء آخر يشوبه الغموض في طروحاتنا الإصلاحية، وهو ما يمكن أن أسميه (معقد الرهان) في جهودنا الإصلاحية؛ إذ إن كثيرًا من منظِّرينا ودعاتنا يطرحون قائمة طويلة جدًّا بما يحتاج إلى إصلاح وبأسلوب شديد العمومية، وهذا يثير الكثير من البلبلة، فالذي يتحدث عن كل شيء يشبه الذي لا يتحدث عن أي شيء؛ ولهذا فإن مما يقلِّل النزاع داخل الصف الإسلامي وخارجه التحدثَ بوضوح عن معقد الرهان أو عن أولوياتنا في الإصلاح: هل ننظر - مثلًا - إلى إصلاح التعليم على أنه البوابة التي سندخل منها على إصلاح باقي المجالات، أما أن البداية يجب أن تكون بإصلاح الاقتصاد أو السياسية أو التربية أو نشر العلم الشرعي...؟ .

إن الوضوح في هذا الموضوع يساعدنا جميعًا على حشد الطاقات وإجراء البحوث والدراسات وتنظيم الجهود... من أجل ما نعتقد أنه يشكل أولوية الأولويات وبداية البدايات.

٦ - بناء قاعدة ثقافية مشتركة:

لدى معظم الناس نوع من البراعة في إدراك السلبيات والتدقيق في أوجه التباين بينهم، مع أن الإنصاف والمصلحة يتطلبان إدراك الإيجابيات لدى الآخرين وإدراك القواسم المشتركة التي تجمع بيننا، إن مثقفي كل بلد يتحملون عبء مسؤولية هداية الناس وتثقيفهم وحمايتهم من الأفكار الهدامة، ويتحملون عبء شرح ثقافة أمتهم للعالم الخارجي وتقديمها بصورة إيجابية وجذابة، وهذا يتطلب من المثقفين وصُنَّاع الرأي والخطاب أن لا يستهلكوا طاقاتهم في الردِّ على بعضهم، وفي التنافس على

كسب الجماهير، فعامة الناس في حاجة إلى من يعلِّمهم، ويرفع مستوى وعيهم، لا لمن يستغلهم، ويحقق مصالحه على حسابهم، وأنا من وجهٍ آخرَ شديدُ اليقين بأن بين الصحويين وخصومهم الكثير من نقاط التفاهم التي تشكل في مجموعها قاعدة مشتركة للتوجيه والإصلاح، **ولعل من تلك النقاط الآتي**:

أ - نبذ استخدام العنف في الإصلاح وتصحيح الأوضاع.

ب - الالتزام بآداب الحوار، والحرص على عفة القلم واللسان في حالات التباين في الأفكار، والحرص على قول الحق وعلى القبول به حين يظهر في طرح الخصم والمنافس.

ج - العمل على توحيد الرؤية وتقريب المواقف في المسائل الكبرى، وأعتقد أن ما هو معلوم من الدِّين بالضرورة على مستوى الواجبات والمحرمات يصلح لأن يكون أساسًا عظيمًا في ذلك.

د - تشجيع التفكير المستقل والنزيه والمعبر عن ضمير حي، وهذا ضروري من أجل المصارحة والمكاشفة والإصلاح.

هـ - الحرص على إبعاد الخلافات الفكرية عن(الشخصية) وهذا يتطلب إرساء قواعد ثقافية تؤكد على مناقشة الأفكار بقطع النظر عن أصحابها، كما تؤكد على عدم القبول بالفكرة لأن قائلها فلان وعدم رفضها لأنها تمثل وجهة نظر الجهة الفلانية.

و - احترام التخصص: حتى لا يصدر الصحفي الفتاوى، ولا يتحدث الداعية في أمور طبية معقدة، ويظهر احترام التخصص عند اختلاف الآراء ووجهات النظر بين أصحاب التخصصات المختلفة، فما يقرُّه أهل أي تخصص هو المعتبر.

ز - تنمية الحسِّ الوطني والمحافظة على المصالح العامة.

ح - مكافحة الفساد ورفع الظلم عن المظلومين واستقلال القضاء ونزاهته وفاعليته.

ط - احترام شعائر الإسلام ورمزياته، وتقديمها للآخر غير المسلم بطريقة جميلة.

ي - محاربة الاتجاهات العنصرية والعرقية والقبلية... من أجل ترسيخ تفاضل اجتماعي يقوم على قاعدة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣] . لا يليق أبدًا أن تواجه أمتنا قائمة

طويلة من التحديات المنوّعة، ونحن مشغولون في تسفيه بعضنا والعمل على تشتيت الجمهور وضرب بعضه ببعض!.

الآخر الأجنبي:

أشرت فيما مضى إلى أن ما يجعل من الناس آخر بالنسبة إلى الصحوة قد يكون عبارة عن فكرة أو فكرتين، وقد يتمثل في بعض المواقف والسلوكيات، لكن هناك أيضًا من لا يتفقون مع عقيدتنا وثوابتنا ومقاصدنا... في أي وجه من الوجوه، وهؤلاء كثيرًا ما يكونون من أبناء الأمم والملل الأخرى؛ ولهذا فإن حديثي هنا موجَّه إلى أولئك الصحويين الذين يعيشون في بلدان غير إسلامية بوصفهم جاليات أو أقليات أو طوائف. ويمكنني القول: إن العالم الغربي هو المعنيّ الأول حين نتحدث عن الآخر غير المسلم، ونظرًا للتاريخ الاستعماري بالنسبة إلى معظم الدول الأوربية، ونظرًا إلى أن تدخُّل أوربا وأمريكا في شؤوننا الداخلية ما زال مستمرًّا فإن كلامي هنا موجه على نحو محدّد إلى المسلمين الذين استوطنوا العالم الغربي، **وذلك من خلال المفاهيم التالية:**

١ - لست من المتحمسين لإقامة المسلم في بلادٍ أكثرُ أهلِها من غير المسلمين، ومعطيات الواقع **تشير بوضوح إلى أن (الجيل الثالث) من المهاجرين المسلمين إلى الغرب يتعرض لتغييرات ثقافية عميقة تجعل كثيرًا من أبنائه أشبه بالضائعين، ولا شك أن الوضع الآن أفضل إذا ما قورن بما جرى للمهاجرين العرب إلى أمريكا الجنوبية قبل قرن من الآن، ومع هذا فإن المرء لا يعيش على هذه الأرض سوى حياة واحدة، وعليه أن يجعلها ثرية ومثمرة ومستقرة قدر الإمكان، فإذا قرر المرء أن يقيم هناك، فإن عليه أن يتخلص من عقلية ونفسية (عابر السبيل)**؛ إذ إن كثيرًا من المسلمين في الغرب يشعرون بأنهم حين قرروا الإقامة في الغرب وكأنهم قد خانوا ثقافتهم، أو تخلّوا عن ولائهم لبلادهم وأهليهم وعشيرتهم؛ ولهذا فإنهم يمنُّون النفس دائمًا بالعودة، ويرفضون الاندماج في المجتمع والعمل على التأثير فيه، لكن العودة بعد ثلاثين سنة من العزلة والشعور بالاغتراب... لا تتحقق، وهكذا ينقضي العمر من غير تحقيق أي إنجازٍ ذي قيمة، كم يكون جميلًا أن يصمم المسلم المقيم في أي مكان من الأرض أن يستفيد من القوانين والفرص الموجودة في بلد مهجره من أجل نفع نفسه وأسرته، وأن يصمم على تعريف الناس بالإسلام والدعوة إليه، وأن يعمل على المشاركة في الحياة العامة من أجل

خدمة الجالية الإسلامية والدفاع عن حقوقها...! إن العيش مدة طويلة بأسلوب وضع رِجل في البلد الأصلي ورِجل في بلد آخر، كثيرًا ما يحرم الإنسان من منافع الإقامة في البلدين معًا، وهذا ما يتجنبه العاقل.

٢ - صار المسلمون في الغرب بعد الحادي عشر من سبتمبر تحت المجهر؛ حيث استطاع الإعلام الصليبي والصهيوني جعل كثير من الغربيين يعتقدون بأن الإسلام بطبيعته يولِّد الإرهاب، ويدعو إلى قتل الناس، ويساعد الإعلامَ الغربي في هذا بعضُ الأعمال الإرهابية التي يقوم بها بعض الشباب في أماكن شتى من العالم؛ حيث يقدمون لهم بذلك مادة دسمة لترسيخ ما يريدون ترسيخه من أفكار سلبية عن الإسلام، وشرح هذا يطول، لكن يمكننا القول: ما يرتسم في أذهان الغربيين من صور عن الإسلام والمسلمين يمضي نحو السلبية، وإن منع بناء المآذن في سويسرا، وحظر النقاب في عدد من الدول الأوربية ونشر رسوم تسيء إلى النبي ﷺ، والدعوة إلى حرق المصحف أخيرًا، إن كل هذا يشير إلى ما نقوله.

والشيء المقلق في هذا هو أن الحاقدين على الإسلام في الغرب قد انفتح لهم باب عريض للتضييق على المسلمين، وهو باب (مكافحة الإرهاب) حيث يمكن استثمار ما يتم زرعه في عقول الغربيين من أن الإسلام بنفسه يدعو إلى القتل - في سَنِّ الكثير من التشريعات التي تجعل المسلم متهمًا إلى أن تثبت براءته، وقد بدأ شيء من هذا في الولايات المتحدة الأمريكية من خلال قانون مكافحة الإرهاب الذي أعطى صلاحيات واسعة للسلطة التنفيذية من دون العودة إلى السلطة التشريعية، كما أعطى حق الاحتجاز من دون محاكمة إلى أجل غير محدود...

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل نشأ في الولايات المتحدة ما سماه بعض الكتاب (بزنس الإرهاب) حيث نقل الكاتب عن التقرير الذي نشرته(الواشنطن بوست) بعنوان (أمريكا بالغة السرية) أن في أمريكا(١٢٧١) هيئة حكومية و(١٩٣٣) شركة خاصة في عشرة آلاف موقع في الولايات المتحدة يعملون في برامج لها صلة بالحرب ضد الإرهاب والأمن الوطني والاستخبارات، كما ذكر أن عوائد شركة(جنرال ديناميكس) من الأعمال الاستخباراتية بلغت عام(٢٠٠٩م) فقط(٣٢) مليار دولار! إن هذا يعني أن توسيع الأعمال المتصلة بمكافحة الإرهاب بات يشكِّل (مصلحة) لشركات وموظفين

كثر، وهذا يعني المزيد من الضغوط على المسلمين هناك بطرق مختلفة.

٣ - حين تكون ضعيفًا، فإنك في الغالب تستدر مشاعر الشفقة والرحمة، ويختلف الأمر حين تصبح قويًّا ذا نفوذ، فإنك حينئذ تتحول إلى منافس، والمنافس يستدعي أفكارًا وأساليب تخدم المغالبة والانتصار، وأعتقد أن هذه السُّنة الربانية تنطبق على الأقليات الإسلامية في الولايات المتحدة أولًا، وعلى الأقليات الإسلامية عامة ثانيًا؛ حيث كان كثير من المهاجرين الأوائل فقراء وغير متعلمين، لكن صار اليوم لأولادهم وأحفادهم وضع مختلف، ومما يذكر في هذا الشأن أن المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية ينتمون إلى الشريحة العليا من الطبقة الوسطى، وهذا يعني فتح العيون عليهم أكثر وأكثر؛ حيث إن الأقليات الصاعدة تُشعر أبناء البلد الأصليين بأنهم محاصرون، ولهذا تكثر المكائد ضدها.

٤ - إن ما يمكن أن يقال عن وضع المسلمين في الغرب كثير، وليس هذا الكتاب مناسبًا للتوسع في ذلك، **لكن أود أن أشير إلى بعض الأفكار والملاحظات التي أعتقد أنها تساعد على تحسين موقف الصحوة الإسلامية هناك:**

أ - العلاقة بالآخرين مرآة للذات؛ ولهذا فإن تحسين العلاقة مع الناس يستدعي أن نعمل على تحسين أخلاقنا وسلوكياتنا، وقد أسلمت أعداد كبيرة من الغربيين بسبب ما رأوه من أمانة بعض المسلمين، وما رأوه من تماسك الأسر المسلمة وتراحمها... في المقابل فإن كثيرًا من الغربيين نفروا من الإسلام، بل صاروا يُضمرون نوعًا من العداء للمسلمين بسبب ما يُقدم عليه بعض المسلمين من سرقة واحتيال ومخالفة للقوانين السارية... ولهذا فإن من مهمات الصحوة الأساسية مساعدة عموم المسلمين في بلاد المهجر على تربية أبنائهم التربية الحسنة، والقيام بالتأكيد على الالتزام بالأخلاق الإسلامية الحميدة، وكلما نجحت الصحوة في ذلك انجذبت أعداد أكبر من الغربيين إلى الدخول في الإسلام.

ب - من المهم أن يفصل المسلمون في المهجر بين الحكومات والشعوب، فقد تتخذ بعض الحكومات الغربية مواقف معادية وعدوانية ضد المسلمين، ولا ينبغي أن يؤدي هذا إلى تأجيج العداوة تجاه الناس العاديين، ولا حرج على المسلم الذي استوطن بلدًا غير مسلم أن يقول: إنه فرنسي من أصل عربي أو باكستاني أو تركي، فالذي يميز المسلم ليس

المصطلحات والألقاب وإنما العقيدة والخلق والسلوك. إن بعض المسلمين في الغرب يتصرفون كما لوأنهم كانوا يعيشون في بحر من الأعداء، وهذا غير سديد، وغير سائغ شرعًا، إن توطن المسلم في بلد غير مسلم يتم عادة وفق شروط ومواثيق محددة، وحين يُمنَح جنسية بلد فإن القانون يضمن له التمتع بكافة الحقوق، ويُلزِمه بكل الواجبات كما لو كان من مواليد ذلك البلد، وقد أمرنا اللَّـه تعالى بالوفاء بالعهود والعقود، فقال سبحانه: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤].

إن دماء المواطنين والمقيمين في أي بلد مسلم مصونة ومحترمة، وكذلك أموالهم وأعراضهم، وينبغي التصرف على هذا الأساس، بل إن بعض أهل العلم أشاروا إلى أن المسلم يدعو للذميين والمعاهدين من أهل الكتاب بصلاح أمور دينهم ودنياهم، كما أنه ينصح لهم إذا استنصحوه في أي شأن من شؤونهم، وعليه كذلك أن يتجنب غيبتهم والإساءة إليهم، وعلى المسلمين في الغرب أن يتذكروا أنهم يجدون من الحرية والضمان لحقوقهم والحفظ لكرامتهم ما لا يجده كثير منهم في بلادهم، ولهذا فإن عليهم مقابلة ذلك بالشكر وإشاعة النفع العام وخدمة المكان الذي يقيمون فيه، فهذا هو الموقف المنطقي: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

ج - حين يُنجب المسلم في بلد، ويربي أولاده هناك، فإن هناك دلائل كثيرة على أن عاطفتهم نحو ذلك البلد تختلف عن عاطفة أبيهم، إن ذلك البلد هو مسقط الرأس، وفيه مراتع الصبا؛ ولهذا فإنهم يستطيبون العيش فيه إلى حدِّ التعلق الروحي، ويكون الجيل الثالث بالطبع أشد تعلقًا، ويصبح الوطن الأصلي عبارة عن تاريخ ليس أكثر، هذا هو الواقع؛ ولهذا فإن على المسلم في الغرب أن يتهيأ لهذا، ويحسب حسابه، ومن جملة ذلك أن يعمل على المساهمة الجادة في إنشاء محيط إسلامي غنيٍّ بالمرافق والمؤسسات والأطر والهيئات والروابط.. التي تجعل الأجيال الجديدة تشعر بالروح الإسلامية، وتشعر بأن لديها الكثير مما يساعدها على أن تحيا حياة إسلامية صحيحة، ويأتي في مقدمة ذلك المدارس والجامعات والمنظمات الحقوقية والإعلامية. وأعتقد أن على الصحوة هناك تشجيع المسلمين على الانخراط في الحياة السياسية حتى لا تصبح الجاليات الإسلامية في الغرب أشبه بجيش منزوع السلاح، فالانتخابات الحرة والنزيهة عندهم تعطي لكل مواطن فرصة للتأثير في التشريع وفي القرار السياسي، ومن وجه آخر فإن العنصرية شيء ممقوت في الإسلام؛ لأنها تصنف الناس على أسس غير

منطقية وغير أخلاقية؛ ولهذا فإن المسلمين هناك في حاجة إلى التحرك على أساس قول اللّـه تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. فالذي يقدم نفعًا للمجتمع، ويقدم نموذجًا إيجابيًّا، يكرَّم، ويشجَّع مهما كانت أصوله، ومهما كان انتماؤه، والذي يُفسِد ويدمِّر ويخرِّب يؤاخَذ ويعاقَب مهما كانت أصوله، وكان انتماؤه كذلك، ولهذا فإن على الصحوة دائمًا أن تعزز روح الالتزام بالقانون ولو كان فيه شيء من الغبن، فذلك خير من حياة تكسر القوانين بالرشوة والكذب والاحتيال، ثم إن وجود التزام قوي بالقوانين هو الطريق الأسرع للتخلص من القوانين السيئة، وأعتقد أن على الصحويين داخل العالم الإسلامي أن يفعلوا ذلك أيضًا.

د - أشرت قبل صفحات إلى أن الأوضاع الاقتصادية والمهنية بالنسبة إلى الجاليات الإسلامية في الغرب قد تحسَّنت على نحو ملحوظ حتى فاقت أوضاع كثير من السكان الأصليين، وهذه نعمة من اللّه، ولكن بما أن لكل شيء ثمنًا يجب دفعه عن طيب خاطر، فينبغي على الصحوة هناك أن تشجع الناس على المساهمة في الرقي بالبلاد التي يعيشون فيها من خلال بناء المؤسسات الخيرية ذات النفع العام ومن خلال إغاثة المنكوبين والوقوف إلى جانب المظلومين، وهذا يخفف من شعور الكراهية ضدهم، ويعطي للناس هناك صورة حسنة عن الإسلام، وعليهم أن يتذكروا الجهود الهائلة التي بذلها اليهود - وما زالوا يبذلونها - في الغرب من أجل تغيير صورة اليهودي الجشع والمرابي والمحتال والمنعزل.... إن الغريب يظل موضع حذر وشك ما لم يشعر الناس، بأن وجوده يشكل إضافة إيجابية إلى حياتهم، ثم إن تلك البلاد ستكون موطنًا دائمًا للأحفاد وأحفاد الأحفاد، ومن الجيد أن يعملوا على أن تكون أوطانًا جيدة

هـ - في الغرب - على نحو خاص - خواء روحي أشاع البرودة في كل شيء، وهذا الخواء نابع أساسًا من ضياع الهدف الأسمى من هذه الحياة ومن ضياع معالم العلاقة التي يجب أن تقوم بين العبد والخالق ﷻ ومع أن كل حضارة كبرى تحاول توفير ما يلبي حاجاتها الروحية والأخلاقية، إلا أن الفراغ الذي تسببه (جهالة المصير) وعدم اليقين بمآلات هذه الجهود الهائلة في بناء الحياة الشخصية - يصعب ملؤه بغير الإيمان باليوم الآخر وبغير العثور على الطريق الذي يوصل إلى السعادة الأخروية على نحو جازم، ومن هنا فإن علمانية الغرب مع ما تسببه من بؤس للناس، فإنها تجعلهم يبدون استعدادًا كبيرًا للإنصات لما يُعرض عليهم من عقائد وأفكار وقيم جديدة، وهذا يلقي على المسلمين

في الغرب مسؤولية الدعوة إلى اللّـه تعالى ومحاورة أهل تلك البلاد بأحسن أسلوب ممكن.

إن القيام بواجب الدعوة يجعل للحياة معنى، ويجعل وجود المسلم في الغرب مشروعًا دون أي شائبة تشوبه، والحقيقة أن توجُّه المرء إلى أن يقف في موقف الداعية إلى الخير وإلى الفضيلة يغيِّر في شخصيته، ويدفعه إلى الارتقاء بها على نحو خفي، ومن هنا فإن الدعوة إلى الإسلام وشرح محاسنه للغربيين يُدخل الكثير من التحسينات على اهتمامات وسلوكيات من يفعل ذلك. وأعتقد أن من مسؤوليات الصحويين في الغرب تأهيل أعداد كبيرة من الشباب المسلم للقيام بتلك المهمة النبيلة، وعلينا نحن تقديم يد العون إليهم.

و - يشعر كثير من المسلمين في الغرب بالظلم الذي يقع على أهليهم وإخوانهم في بلادهم الأصلية من قِبَل العديد من الحكومات الغربية، وتتحرك فيهم الحمية الإسلامية، ويحرِّكهم الشعور بالواجب إلى مدِّ يد المساعدة إلى إخوانهم المقاومين، وهذا شيء طبيعي بل مطلوب، **لكن أود أن أوضِّح الأمرين التاليين:**

أولًا: قد ذهب كثير من الشباب المسلم في أمريكا وأوربا إلى بعض الدول الإسلامية التي تعاني من نوع من الاحتلال الأجنبي بغية مناصرة إخوانهم، وهذا يعني أنهم وجدوا أنفسهم منخرطين في مقاتلة جيوش أرسلتها حكومات هم مواطنون في بلادها، وهذا أثار حفيظة الكثيرين في الغرب؛ لأن معظم المواطنين الغربيين يعتقدون بأن الجيوش الغربية تقاتل في أفغانستان والعراق وغيرها من أجل نشر الديمقراطية هناك، ومن أجل حماية مصالحهم والدفاع عن أمنهم الشخصي، وقد ترسخ هذا المعنى بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كما أن التجربة أثبتت أن مدَّ حركات المقاومة بالرجال سيِّئ العواقب لأسباب عديدة؛ ولهذا فإنني أرى عدم تشجيع أي شاب مسلم في الغرب على الذهاب إلى تلك الدول الملتهبة، وأعتقد أن هذه القناعة باتت واسعة الانتشار.

ثانيًا: المناصرة المالية والإعلامية والحقوقية للمظلومين من إخوة العقيدة مطلوبة؛ وأعتقد أن اشتغال المسلمين بالسياسة وحث أبنائهم على دراسة القانون والعلوم السياسية إلى جانب إنشاء عدد كبير من المنظمات الحقوقية والخيرية - سوف يمكِّنهم من خدمة قضايا الأمة الإسلامية على نحو جيد، أما إذا أصرُّوا على العيش على هامش

المجتمعات الغربية والاستغراق في وظائفهم وأعمالهم الخاصة، فقد لا يجدون سبيلًا لمناصرة إخوانهم سوى تحويل الأموال، ومع أنه ليس لدى المسلمين في الغرب الكثير من المال ليحولوه فإن ذلك العمل بات خطيرًا جدًّا في هذه الأيام؛ حيث إن الحكومات الغربية استمرأت وضع الحركات والمنظمات الإسلامية على قائمة الإرهاب، وهذا يجعل كل من يحوِّل لها شيئًا من المال عرضة لعقوبات قاسية. إذا استطاع الصحويون في الغرب حل مشكلات الجاليات الإسلامية لديهم، وتوفير بيئات تساعد على التدين والالتزام، فإنهم يكونون قد قدموا للأمة خدمة جليلة، لا يستطيع تقديمها أحد غيرهم ونحن لا نريد اليوم أكثر من هذا منهم.

ز - إن الحروب الداخلية التي جرت داخل أوربا وأمريكا بالإضافة إلى التعدد الإثني الموجود هناك، قد جعل حساسية الناس نحو استخدام العنف في الإصلاح أمرًا مرفوضًا أشد الرفض، ولا سيما أن تغيير الحكومات والقوانين أمر ميسور عبر قنوات واضحة ومفتوحة؛ ولهذا فإن على الصحويين في الغرب أن ينفذوا إلى أعماق الثقافة الغربية في مسائل التغيير والتعبير عن الاستنكار والاختلاف، وأن يتقنوا الأساليب التي يستخدمونها في ذلك، وهذا ما فعله اليهود، ونجحوا فيه نجاحًا كبيرًا.

إن مما يؤذي مصالح الجاليات الإسلامية، ويشكل صورة سلبية عنها ما يُظهره بعض أبنائها من تجاوب سريع وشديد مع استفزاز اليمين المتطرف، وقد ظهر هذا جليًّا في ردود الفعل على الرسوم المسيئة، إن من المهم أن نقابل الإساءة بالتسامح من أجل دفع المعتدلين والمتفهمين من الغربيين إلى التعاطف مع قضايانا والقيام بالضغط على المتطرفين من أبناء جلدتهم، ويجب أن نعبر عن سرورنا بما نراه لدى كثير من إخواننا هناك من تعقل وتفهم لهذه القضايا، ونأمل تعميم ذلك على كل أبناء الجالية حتى يصبح جزءًا راسخًا في ثقافتهم.

إن ما يمكن أن نكتب فيه عن علاقة الصحوة بالآخر ذو ذيول وتفريعات كثيرة، وأعتقد أن فيما عرضت له ما يوضِّح المعالم الأساسية لرؤيتي في هذه المسألة.

واللّـه المستعان

* * *



الصحوة والقيم

القيمة: كل شيء نهتم به ونثمنه، ونعتقد أنه مهم في حياتنا، وهذا الشيء قد يكون معنويًّا، وقد يكون ماديًّا، وقد يكون شخصيًّا، كما أنه قد يكون اجتماعيًّا، الإيمان باللَّه تعالى والفوز برضوانه في أعلى السُّلَّم القيمي لدى المسلم، وهناك القيم العالمية الثلاث المشهورة: الحق والخير والجمال، وإن البشر جميعًا ينظرون إلى المال على أنه قيمة، فهم يسعون إلى كسبه، ويحاولون المحافظة عليه. النجاح والحصول على التقدير من الآخرين، وبناء أسرة، والصداقة، والتسامح، والرحمة... هذه كلها قيم كبيرة وعظيمة في حياة البشر، وقد تبين من خلال الأمثلة أن مدلول (القيم) أوسع من مدلول (الأخلاق) فالمال قيمة؛ وليس بخُلُق، والمسكن الجميل قيمة ،أيضًا، وليس بخلق...

من الملاحظ بوضوح أن سُلَّم القيم في أنحاء الأرض يشهد نوعًا من الاضطراب الشديد، مما يؤدي إلى استهانة الناس بأمور كانت منذ سنوات موضع اهتمامهم وتقديرهم كما يؤدي إلى إعلائهم من شأن أمور كانت منذ عهد قريب موضع إهمالهم واستخفافهم، ويبدو لي أن (العولمة) وثورة الاتصالات والإنترنت والبث الفضائي - هي التي تقبع خلف التطورات الهائلة في حياتنا، ولا أحد يدري إلى أي مدى ستصل تلك التطورات والتحولات، وعند أي حد سوف تتوقف أو تتراجع، لكن مهما يكن الأمر فإننا نستطيع أن نتعلم من ديننا ومن تاريخنا وأحوال الأمم من حولنا - ما الذي علينا عمله من أجل مقاومة القيم السلبية والسيئة التي تجتاح حياتنا بسبب عمليات التحديث هنا وهناك، وبسبب هذا التواصل الأممي الذي يفوق كل توقع أو تخيل، وأنا لا أستطيع هنا أن أتحدث عن كل القيم التي ينبغي على الصحويين الاهتمام بها في أيامنا هذه، بل قد لا أستطيع أن أتحدث عن كل القيم المهمة؛ ولذا فسأكتفي بإثارة هذا الموضوع، وذكر بعض الأفكار الجوهرية التي ينبغي أن تهتم بها الصحوة من أجل بناء وعيٍ قيميٍّ وأخلاقيٍّ متقدم:

١ - القيم والاختيار:

إن المنهج الرباني الأقوم يقدم لنا الخريطة القيمية الكاملة، على حين أن الإنسان في

الغرب - مثلًا - يجد أمامه مساحة واسعة للاختيار؛ حيث إنه لا يشعر أن لديه قيمًا معينة تطالبه عقيدته بالامتثال لها في حياته الشخصية، لأن المرجعية العقدية غير موجودة لدى معظم أبنائه؛ ولهذا فإنه حين يقتنع، ويلتزم بأهمية قيمة من القيم، مثل العفة أو الصدق أو الإتقان أو الرياضة.... فإنه يلتزم بها عن طواعية، ويشعر مع الأيام بأنه يعزز اختياره لتلك القيمة من خلال احترام تلك القيمة وإدخالها في نسيج حياته اليومية، وهو مع هذا يجد الدافع للتبشير بتلك القيمة وحضّ الناس على الالتزام بها، أما عندنا فإن الوضع مختلف؛ حيث إن القيم الإسلامية ثابتة ومطلوب الالتزام بها بمقتضى عقد الإيمان سواء أكانت مما ينسجم مع هوى المسلم ومزاجه ومصلحته... أم لا، كما أن على المسلم أن يتخلى عن بعض مشتهياته ومرغوباته، وهذا يعني أنه يحصل في داخل كل مسلم ما يشبه المعترك، وحينئذ فقد تنتصر العقيدة والقيمة والمبدأ، وقد تنتصر الشهوة والمصلحة والرغبة والضغوط الخارجية، وكثيرًا ما يحدث تناوب بين هذه وتلك، وذلك المعترك الصامت داخل الروح من مستلزمات ابتلاء اللَّه تعالى لعباده المؤمنين، وإن على المسلمين ألا ينزعجوا من هذا، فإن الإنسان المسلم وإن حصل منه تقصير، فإنه ما يزال يمضي في الاتجاه الصحيح، أما الملحد فإنه قد يجد نفسه أكثر التزامًا بقناعته، لكنه فقد (البوصلة) مع خسارة الخريطة القيمية: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

ما الذي يعنيه هذا بالنسبة إلينا ؟

إنه يعني أن على كل القوى الخيِّرة في الأمة أن تنشط في التربية على القيم الفاضلة وتوفير المُناخ الذي يساعد الناس على حملها والعمل بمقتضاها.

٢ - القيم والعقيدة الاجتماعية:

إن تدعيم القيم الأساسية في النفوس يتطلب شيئًا جوهريًّا، هو أن ندرك جيدًا أن مجرد إيمان الناس بأن الصدق واحد من أهم الفضائل العالمية لا يكفي لأن يكونوا صادقين في كل الأحوال، كما أن اعتقادهم بأن الجديَّة في أداء الأعمال من القيم العظيمة لا يكفي لأن يكونوا جادين، هذا الإدراك مطلوب بقوة من أجل التوقف عن الظن بأن وعظ الناس بأن يكونوا صادقين كافٍ لجعلهم كذلك. محورية الصدق في الحياة جزء من رؤيتنا للقيم، لكن الناس على الصعيد العملي لا يلتزمون بذلك؛ لأنهم يتصرفون في سلوكهم اليومي وفق (العقيدة الاجتماعية) السائدة، وتلك العقيدة تكون في العادة معبِّرة عن القيم

والمبادئ والمثل السامية التي يؤمنون بها ومعبِّرة كذلك عن حاجاتهم ومصالحهم، وعن القيم الجديدة التي تجعلهم معاصرين وناجحين؛ ولهذا فإن بعض التجار يكذبون حين يخبرون الزبائن عن أثمان السلع التي يريدون بيعها لهم مع اعتقادهم بحرمة الكذب، وذلك لأنهم يريدون الحصول على أرباح طائلة، لكن أولئك التجار لا يكذبون حين يتحدثون مع زوجاتهم وأبنائهم وأصدقائهم...، وذلك من أجل الوفاء؛ لاعتقادهم بحرمة الكذب

ما الذي يعنيه هذا ؟

إنه يعني الآتي:

- المسافة الفاصلة بين العقيدة النظرية والعقيدة الاجتماعية هي عين المسافة الفاصلة بين الصحة والمرض، وبين التقوى واتباع الهوى.

- تدعيم الوازع الداخلي لدى الناس من خلال إعطائهم أكبر قدر ممكن من الحرية حتى يتحملوا أكبر قدر ممكن من المسؤولية تجاه أعمالهم.

- توفير ظروف تساعد الناس على أن يكونوا مستقيمين، وصالحين، وهذا يحتاج إلى الكثير من التنظير والبحث.

- بذل جهود كبرى داخل الأسر من أجل تعميق معنى الأصالة والالتزام في نفوس الناشئة.

- تسليط المثقفين والدعاة الضوء على الأمور التي تجعل المرء يتصرف وكأنه لا يؤمن بأي قيم.

إن على الصحويين أن يعملوا الكثير الكثير من أجل جعل المجتمع يتبنى القيم التي يعتقدون بأن الالتزام بها يشكل أولويات أساسية لديهم

٣ - القيم لا تفرَض:

يدل التاريخ العملي للإسلام أن المسلمين لم يقوموا بإجبار أحد على الدخول في دينهم؛ لأنهم يعرفون أن استخدام القوة في جعل الناس يعتنقون مبدأ من المبادئ، أو يحملون في نفوسهم إجلالًا لمعنى من المعاني أو فضيلة من الفضائل... لا يؤدي إلى ذلك، وإنما يؤدي إلى جعل أولئك الناس منافقين، يُظهرون شيئًا ويبطنون شيئًا آخر، وقد أشار القرآن الكريم إلى موضوع الإكراه، على اعتناق دين أو مبدأ في العديد من الآيات،

منها قوله سبحانه: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وقوله: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩].

يقول أحد الفلاسفة: « كلُّ محاولةٍ لفرض أنموذج على الإنسان تنتهي بثورته عليه »، وهذا صحيح فقد رأينا بأم أعيننا كيف يرد الناس بالمزيد من التعلق بالأشياء التي أُكرِهوا على تركها، ولا يخفى أن (الإسلام) هو مجموعة من القيم النبيلة، وإن الطريقة المثلى، لجعل الناس مسلمين لا تكمن في الضغط عليهم وتهديدهم، ولكن في إقناعهم ومساعدتهم على الفهم وإزالة اللبس الذي قد يعرِض لهم حول بعض المسائل، والأهمُّ من كل هذا وجود نسبة جيدة من الناس تجسِّد في سلوكها ومواقفها القيم الإسلامية الرفيعة، أي إن الطريق الأصلح والأنسب في ترسيخ القيم يكون بجذب الناس إلى تعشقها والإعجاب بها. هذا يعني أن علينا أن نجاهد أنفسنا في ذات اللَّه كي نقدِّم البيانات العملية للقيم التي نؤمن بها من خلال سلوكياتنا ومواقفنا الشخصية على ما كان عليه نبينا ﷺ فقد صحَّ أن رجلًا « سأل عائشة - رضي اللَّه عنها - عن خلق النبي فقالت: ألستَ تقرأ القرآن؟ قال: بلى. قالت: فإن خُلق نبي اللَّه ﷺ كان القرآن »[1].

لا شك أن على الدولة المسلمة أن تفرض من القوانين والنظم ما يحمي الحياة العامة من النماذج السيئة، ومن دعاة الفتنة والتحلل، لكن القوانين وأنشطة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تحمي المظهر العام، وتحمي الشارع من التفسخ، أما السلوك الشخصي للإنسان في خلواته وداخل منزله، فهذا لا يؤثِّر فيه القانون، وإنما تؤثر فيه التنشئة السويَّة، ويؤثر فيه الوازع الداخلي؛ وعلى مدار التاريخ كان الناس يستسهلون اللجوء إلى استخدام القوانين واستخدام القوة في منع انتشار السلوكيات السيئة، وإنما يفعلون ذلك لأنه الأقرب والأسهل، لكن النتائج كثيرًا ما تكون مخيِّبةً للآمال؛ حيث يصبح ظاهر المجتمع خيرًا من باطنه، أما تمثل القيم التي ندعو الناس إليها في حياتنا الخاصة والعامة وتربية الأجيال الجديدة عليها، فإنه سعيٌ في طريق وعر وطويل لكنه مع ذلك هو الطريق الوحيد الذي يوصلنا إلى المجتمع الفاضل والحياة الخيِّرة.

٤ - صحوة أكثر إنسانية:

لا شك في أن للصحوة الإسلامية المباركة جهودًا كبيرة في خدمة الإنسانية، وتأتي

---

(١) أخرجه مسلم.

الدعوة إلى اللّٰه تعالى من قِبَل أعداد هائلة من المحتسبين في قمة تلك الجهود، وإذا نظرنا في أوضاع العمل التطوعي والخيري في العالم الإسلامي فإننا نجد أن معظم الناشطين في هذين المجالين هم من كهول الصحوة وشبابها، لكن مع هذا فنحن في حاجة ماسَّة إلى ترسيخ ثقافة أكثر عمقًا في قضايا النظرة إلى الإنسان والتعامل معه وأسلوب فهمه وتلبية حاجاته، ولا تنسَ أيضًا أننا ونحن نخدم الناس نقع في بعض الأخطاء التي تقلِّل في النهاية من قيمة ما نقدمه، أو تعكر صفوه.

إن الإسلام هو الذي أسس في عصور الظلام والعنصرية والقبلية لرد الاعتبار للإنسان بوصفه إنسانًا مجردًا من كل التلوين العقدي والعرقي والثقافي، ومن كل الخلفيات التاريخية والمكانية، والقاعدة المدهشة التي أرساها الإسلام في هذا تجعل معقد التمايز والتفاضل بين البشر هو ما صنعته أيديهم، وما كسبوه بجهدهم وليس ما وجدوا أنفسهم فيه من غير حول ولا طول، أو ورثوه عن أسلافهم، وفي هذا يقول اللّٰه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠]، إن بني آدم ذكورهم وإناثهم مكرَّمون، وكرامتهم ذاتية أصلية، لا علاقة لها بأي شيء آخر، وقد وضَّح القرآن الكريم القيمة العظيمة للإنسان من خلال التهديد الشديد لمن قتله بغير الحق، ومن خلال تعظيم ثواب من حافظ على حياته، فقال سبحانه: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة: ٣٢].
إن الإسلام يريد من الناس ألا يهتكوا حرمة الدماء وألا يستسهلوا القتل؛ ولهذا فإن قتل نفسٍ واحدة يستجلب من غضب اللّٰه ونقمته ما يستجلبه قتل الناس جميعًا، ولا أظن أن في العالم أي قانون يرهِّب الناس من سفك الدماء مثل ما تفعل هذه الآية الشريفة، وإن عجبي لا ينقضي من جرأة من يفجِّر نفسه في مجموعةٍ من الناس بينهم نساء وأطفال وأبرياء لأنهم يخالفونه في المعتقد، أو لأن فيهم شخصًا يستحق القتل!!.

وقد ذكرت أن القرآن الكريم وضَّح أن استقامة الإنسان وصلاحه هي المعيار الوحيد للتفاضل، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[الحجرات: ١٣]. وأحب أن ألمس في مسألة إنسانية الصحوة المعانيَ التي يمكن للصحوة الإسلامية - بوصفها بنية دعوية

وإصلاحية - أن تنهض لترسيخها في الحياة العامة، **وذلك من خلال المفردات الآتية:**

أ - التريث في إصدار الأحكام:

من المهم أن ندرك أن خلط العمل الصالح بالسيِّئ هو الأصل في حياة الناس، فما دام الإنسان غير معصوم، فمن المتوقع أن يقع في بعض المعاصي والمخالفات،ويكون لديه طاعات ونوافل كثيرة. نحن في زمان الابتلاءات الكثيرة وزمان تفتح الوعي على التلذذ بالأشياء والسعي إلى تذوق كل أشكال المرفهات، وحيث إننا نشهد في كل يوم فرصة لمتعة جديدة، فإن كثيرًا من الناس سيندفعون إلى البحث عن طريقة في العيش تجعلهم يستمتعون بما يتاح لهم ويشعرون أنهم يعيشون زمانهم إلى جانب الشعور بأنهم مسلمون وملتزمون وغير بعيدين عن الالتزام بالتقاليد والعادات الحميدة، وفي خضم هذه المعادلة نرى الكثير من المفارقات بين المظهر والجوهر، فنحن نرى اليوم من حلق لحيته، ومع ذلك فإنه يصوم الاثنين والخميس مع جميع أفراد أسرته، ونرى شبابًا يلبسون الثياب الضيقة وقد أطالوا شعورهم، يسارعون إلى إدراك الجماعة مع الإمام، وفي بعض البلدان الإسلامية تجد أعدادًا هائلة من النساء يحافظن على الصلاة في أوقاتها مع أنهن سافرات ومتبرجات، وترى كذلك رجالًا كثيرين ينفقون المال في الخفاء على الفقراء والمساكين مع أنهم مقصرون في أداء الصلوات، ولهم تساهل في طرق كسب المال وجمع الثروة...

هذه النماذج كثيرة؛ ولهذا فإن من العدل أن لا يُحكم على الواحد من أولئك على أساس خطأ ظاهر يقع فيه، ويتم غض الطرف عمَّا له من طاعات وفضائل، وأنا لا أريد النظر إلى ما أشرت إليه بعين الرضا، لكن أود أن لا نصدرحكمًا نهائيًّا على أي إنسان من خلال مظهره أو بعض سلوكياته، فنخرجه من دائرة اهتمامنا، وننصرف عن دعوته وإصلاحه، مع أنه قد يكون فيه خير عظيم، ولديه قابلية شديدة للهداية والاستقامة، وقد صحَّ أن عمر بن الخطاب ﷺ ذكر أن رجلًا كان على عهد النبي ﷺ يسمى عبد اللَّه، ويلقب بـ(الحمار) وقد كان يُضحك النبي، وقد شرب، فأمر به، فجُلد، فقال رجل من القوم: اللَّهم العنه ما أكثر ما يؤتي به؟! فقال رسول اللَّه ﷺ « **لا تلعنه فإنه يحب اللَّه ورسوله** »[1].

ب - معاملة الناس على أساس قيم واحدة:

تقدم الحديث عن الأساس النظري لهذه الفضيلة حيث نص القرآن الكريم بوضوح

---

(١) أخرجه عبد الرزاق والبزار.

على ذلك حين وحَّد الأساس الذي نقوِّم على أساسه الناس، وهو (التقوى) بمعناها الواسع، ولكن إلى أي حد يتم الالتزام بذلك عمليًّا؟

من المؤسف أن معظم الناس لم يستطيعوا العمل بذلك - ولا أستثني كثيرًا من الصحويين - فنحن مأخوذون بالاهتمام بالتلوينات الثقافية والدوائر الصغيرة. إن معاملة الناس على أساس قيم واحدة يعني أن درجة استحساننا لأمر من الأمور ودرجة نفورنا منه تظل واحدة مع كل الحالات المتشابهة، فإذا ارتكب صديق من الأصدقاء حماقة، فهي حماقة في نظرنا كما لو ارتكبها عدو، وإذا قام أحد الفقراء أو الخدم أو الأعداء بعمل جيد، فهو جيد ويستحق الإشادة تمامًا كما لو قام به أحد الأقرباء أو الأغنياء أو الأصدقاء، هذا هو معنى معاملة الناس على أساس قيم واحدة؛ إذ يُعد كل ما هو زائد على الإنسان أو فعله من انتماءات سياسية أو عرقية وكل ما هو طارئ من ظروف أو أحوال مادية... خارج نطاق الحساب. وإذا تأملنا في الواقع وجدنا أن ما نتحدث عنه عبارة عن حلم بعيد المنال، وإذا أردت معرفة ذلك، فانظر ما الذي تفعله بنا الانتماءات القبلية والقومية والقُطرية.

إن الدخول على أي موقع إخباري عربي يسمح لزواره بالتعليق على ما يُنشر فيه - يكشف لنا تعمق التحيز في نفوسنا، وكأننا نشهد انتكاسة خطيرة على هذا الصعيد، ولك أيضًا أن تنظر إلى تكتلات المسلمين في ديار الغرب؛ حيث إنك تجد أنهم نقلوا إلى هناك كل ما كانوا فيه قبل هجرتهم من ولاءات وصراعات ومشكلات... وهذا كله يؤذي إنسانية الإنسانية، ويشكِّل خروجًا على مساعي الإسلام في تكريم الإنسان وتقدير الجوهر الإنساني، كما أنه يعيق ارتقاء المسلمين إلى مستوى عالمية الرسالة التي يؤمنون بها، وأعتقد أن على الصحويين بذل الكثير من الجهود في دوائرهم الخاصة وعلى الصعيد العام من أجل التخفيف من حدة العنصرية والتحيز ومن أجل إبراز القيمة العظيمة التي وهبها الخالق - سبحانه - للناس كافة.

ج - وضعية الطبقة الدنيا هي المقياس:

من الواضح أن الرأسمالية تنفرد بالعالم اليوم، وهي في بنيتها العميقة ميَّالة إلى منح فرص غير محدودة للعناصر القوية على مستوى المعرفة والموهبة والمال والجاه والنفوذ..، وعلى الفقراء وأصحاب الظروف الصعبة والمهمَّشين أن يجدوا لأنفسهم مخرجًا، ومع أن الإسلام يعطي مساحات واسعة للحركة، ويشجع الموهبة، لكنه من منطلق أنه دين الرحمة ودين الإنسانية جمعاء، فإنه يهتم بالعناصر الضعيفة، يكرِّمها،

ويرفع من معنوياتها، ويحميها من تغول الأقوياء، وقد كان كل هذا منذ البداية، وانظر معي إلى قول اللَّه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ [عبس: ١ - ١٠] حيث ذكر أهل التفسير أن قومًا من أشراف قريش كانوا عند النبي ﷺ فشُغل النبي بدعوتهم طمعًا بإسلامهم وإسلام مَن وراءهم من قومهم، فأقبل عبد اللَّه بن أم مكتوم - وكان مكفوفًا - وهو يقول: يا رسول اللَّه علمني مما علمك اللَّه، ويلحّ في ذلك ورسول اللَّه ﷺ معرض عنه، فأنزل اللَّه آيات العتاب التي سقناها، قال سفيان الثوري: فكان النبي بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم يبسط له رداءه، ويقول: « **مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي** »، ويقول له: « **هل من حاجة** ». واستخلفه ﷺ مرتين في غزوتين غزاهما[١].

وهذا يشبه ما ذكره المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨] من أن نفرًا من المؤلَّفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول اللَّه ﷺ وقالوا: يا رسول اللَّه إنك لو جلست في صدر المجلس، ونحيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم - يعنون سلمان وأبا ذر وفقراء المسلمين، وكانت عليهم جباب الصوف لم يكن عليهم غيرها - جلسنا إليك وحدثناك، فأنزل اللَّه تعالى الآية، فقام رسول اللَّه ﷺ يلتمس فقراء المسلمين، فوجدهم في مؤخرة المسجد يذكرون اللَّه، فقال: « **الحمد للَّه الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا والممات** »[٢].

إن دلالات هذين الموقفين واضحة وضوح الشمس. ومن ثم فإن مقياس تقدم الأمة يكون بما تدخله من إصلاحات معنوية ومادية على حياة العناصر الأضعف بين أبنائها، **وهذه الإصلاحات تتجلى في أمور كثيرة، منها:**

- قوانين صارمة ونافذة لحماية كرامة الضعفاء من الانتهاك بالقول أو الفعل.

- القضاء على الأمية قضاءً مبرمًا وتحسين مستوى التعليم وتحسين خدمات الكهرباء والماء والطرق والصرف الصحي في أحياء الفقراء.

---

(١) انظر تفسير القرطبي (١٩/ ٢٠٩ - ٢١١). (٢) السابق (١٠/ ٣٩١ - ٣٩٥).

- منع كل أشكال المتاجرة بالبشر، ووضع ضوابط صارمة لتشغيل الأطفال؛ لأن الفقراء وأبناءهم هم الضحية الرئيسة في ذلك.

- إعطاء القروض اللاربوية للفقراء وتمويل مشروعاتهم الصغيرة من قِبَل الحكومات وإنشاء صناديق أهلية كبيرة للقرض الحسن.

- تخصيص نسبة (٣٠٪) على الأقل من عقود أعمال الحكومة للمؤسسات الصغيرة والتي تستخدم عمالة أكثر.

- محاربة الفساد المالي والإداري دون هوادة؛ لأن الفقراء والضعفاء هم الذين يتحملون معظم أعبائه.

- إنشاء مؤسسات خيرية خاصة بتشجيع النابهين والموهوبين من الأيتام وأبناء الفقراء، وتوفير المنح الدراسية لهم.

إن المنبوذين والمهمَّشين هم المادة الخام التي يمكن أن نصنع منها مستقبل الأمة، أي إن الحجر المطروح في الشارع يصبح حجر الزاوية في بناء عالمنا الجديد، وبذلك ندعم إنسانية الإنسان. لا يصح أنْ نتحدث عن عدد الأبراج التي لدينا، ولا عن أعداد الذين يحملون شهادة الدكتوراه ولا عن أعداد (المليارديرية) في البلد، ولكن لنتحدث عن أعداد الأميين، والذين يعيشون في الأكواخ وبيوت الصفيح، والذين لا يجدون عشاءً لصغارهم، هؤلاء هم الذين يجب أن نتحدث عنهم، ونعمل على الارتقاء بهم، ووجودهم أداة اختبار للمجتمع، ومع أن علينا العمل على رفع مستوى الإنسان على كل الأصعدة إلا أن هذه الشريحة تظل موجودة ويظل نفعها ومعاونتها من أبواب الخير والرحمة، وقد ورد أن سعد بن مالك قال: (قلت: يا رسول اللّه، الرجل يكون حامية القوم، أيكون سهمه وسهم غيره سواء؟ قال: « **ثكلتك أمك ابنَ أم سعد، وهل تُرزقون، وتُنصرون إلا بضعفائكم ؟!** »)[1].

د - الاهتمام بالمشاعر:

إن الإنسان في بنيته العميقة ليس هو الذي يفكر، وينتج الأفكار العظيمة، لكنه الذي يشعر، ويصنع المشاعر، فالشعور هو الشيء الذي لا يحتاج إلى تعلم، والناس

(١) رواه أحمد.

قد ينسون ما تقوله لهم، لكنهم لا ينسون أبدًا كيف جعلتهم يشعرون. إن أمام الصحوة مهمات جليلة، منها ثقافة المحافظة على الحقوق وصيانة الكرامة الإنسانية، وأعتقد أن ذلك يتطلب الكثير من القوانين والنظم، لكنه يتطلب قبل ذلك درجة عالية من التهذيب الشخصي لدى الإنسان المسلم، وإن احترام مشاعر الآخرين والاهتمام بها يشكِّل رافدًا عظيمًا لذلك، كما أنه يشكل خطًا دفاعيًّا متقدمًا عن انزلاق المجتمع إلى التعانف وسلوك سبل القسوة. من الصعب أن يحرص الإنسان على عدم إزعاج جاره برفع صوت المذياع، أو بإغلاق باب منزله بقوة، ثم يقوم بشتمه أو ضرب أولاده أو سرقة أثاث بيته، وهكذا فإن الامتناع عن الوقوع في الخطأ المجرَّم والملموس يحتاج إلى أن نسعى إلى الامتناع عن الخطأ غير الملموس وغير المجرَّم، وهذا ما تؤمِّنه ثقافة الاهتمام بالمشاعر. إن الناس كلما ساروا أكثر في دروب الحضارة شرعوا يهتمون بالتفاصيل الدقيقة، وأخذوا ينتظرون من بعضهم لطفًا أكثر وإحساسًا أعظم بهم وبأذواقهم ومشاعرهم، وهذا ما علينا أن نعمل على نشر أدبياته ورمزياته. حين ننظر في سيرته ﷺ نجد أنه كان شديد الاهتمام بمشاعر الناس مسلمهم ومشركهم وشديد الملاحظة لها، **والمواقف التي يمكن أن نتعلم منها كثيرة نقتبس منها الآتي**:

- يقول جابر ﷺ: (مرَّ بنا جنازة، فقام النبي ﷺ وقمنا معه، فقلنا: يا رسول اللّه إنها جنازة يهودي، فقال: « **أليست نفسًا؟** »)[1]. وذكر عبد الرحمن بن أبي ليلى أن سهل بن حنيف وقيس بن سعد كانا قاعدين في القادسية، فمرت بهما جنازة، فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض - أي من أهل الذمة - فاحتجا بفعل النبي ﷺ. إن في قوله ﷺ: « **أليست نفسًا** » تعزيزًا للمشاعر المشتركة نحو مصيبة الموت، ونوعًا من المهابة للّه تعالى قابض الأنفس، كما أن في القيام نوعًا من المراعاة والمشاركة لأهل الميت في مصابهم؛ لأن الناس إذا لم يفعلوا ذلك، فقد يستمرون في كلامهم ومزاحهم وضحكهم، وفي هذا إيذاء لأهل الميت وتجاهل شديد لمشاعرهم.

- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللّه ﷺ: « **يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفًا بغير حساب** »، فقال رجل: يا رسول اللّه! ادع اللّه أن يجعلني منهم. قال: « **اللّهم اجعله منهم** ». ثم قام آخر، فقال: يا رسول اللّه ادع اللّه أن يجعلني منهم. قال: « **سبقك بها**

---

(١) رواه البخاري.

عكَّاشة »[١]. قد اختار ﷺ أنعم الألفاظ في الرد على ذلك الرجل حيث أفهمه أنها دعوة واحدة، وهي لمن سبق، هذا مع أن بعض أهل العلم قالوا: إن الرجل كان من المنافقين. وقد استحسن الناس هذا الجواب الرقيق العالي حتى ذهب مثلًا

- كان عكرمة بن أبي جهل ممن استثناهم النبي ﷺ من العفو الذي منحه لأهل مكة بعد تمكنه من فتحها، وقد أسلمت أم حكيم زوج عكرمة، وقالت له يا رسول اللّٰه: قد هرب منك عكرمة إلى اليمن خوفًا من أن تقتله، فأمِّنه أمَّنك اللّٰه. فقال ﷺ: « **هو آمن** ». فلما دنا عكرمة من مكة، قال رسول اللّٰه لأصحابه: « **سيأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا، فلا تسبُّوا أباه، فإن سبَّ الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت** »[٢]. إنه ﷺ وجَّه المسلمين إلى عدم ذكر أبي جهل المعروف بعداوته للمسلمين بسوء أمام ابنه حفاظًا على مشاعر ابنه؛ لأن مراعاة مشاعر الناس علامة من علامات السمو الإنساني والإحساس بأحاسيس الآخرين، وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: « **ما بال أحدكم يؤذي أخاه في الأمر وإن كان حقًّا** »[٣] وذلك لأن مراعاة المشاعر مطلوبة، ولا ينبغي غض الطرف عنها حتى وإن كان المرء يتحدث عن شيء موجود فعلًا.

في موقف لافت ينبه ﷺ العالم إلى أن المطلوب ليس احترام مشاعر الإنسان فحسب ولكن احترام الإنسان لمشاعر الحيوان أيضًا، وهذا موجود في عدد من المواقف والنصوص، منها أنه ﷺ مرَّ على رجل واضع رجله على صفحة شاة، وهو يحدُّ شفرته، وهي تلحظ إليه ببصرها، فقال: « **أفلا قبل هذا! أتريد أن تميتها موتتين؟!** »[٤]. إن شحذ السكين يمكن أن يتم قبل المباشرة في عملية الذبح وفي منأى عن رؤية الحيوان، فلماذا لم يتم ذلك؟! وقال عبد الرحمن بن عبد اللّٰه عن أبيه قال: كنا مع رسول اللّٰه ﷺ في سفر، فانطلق لحاجة، فرأينا حمرة (طائر أحمر كالعصفور) معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمرة، فجعلت تفرش (ترفرف بجناحيها)، فجاء النبي ﷺ فقال: « **من فجع هذه بولدها؟! ردوا ولدها إليها** »[٥].

إن المسلم الذي يراعي مشاعر الحيوان، ويشعر بشعوره جدير بأن يراعي مشاعر أخيه الإنسان.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) أخرجه الحاكم.
(٣) أخرجه ابن سعد.
(٤) رواه الطبراني.
(٥) رواه أبو داود وغيره.

أمثلة عملية على الاهتمام بالمشاعر:

لدينا ما لا يُحصَى من التطبيقات العملية في مسألة الاهتمام بالمشاعر، **أسوق نماذج منها على نحو موجز:**

- معاملة الخدم بلطف وصبر ورحمة كما فعل رسول اللّه ﷺ مع أنس بن مالك الذي خدمه عشر سنوات.

- الناس يتضايقون من حديث الإنسان عن إنجازاته وحسبه ونسبه، وكل ما يتصل به، مع أن في بعض ذلك شيئًا من الإفادة للآخرين، لكن الإسراف فيه مزعج.

- عدم مقاطعة المتكلم والحرص على عدم رفع الصوت أثناء الحوار.

- عدم المسارعة إلى الإجابة عما يُطرح في المجالس من أسئلة؛ لأن هذا يُشعر الآخرين بأنك متسلِّطٌ أو متعالم...

- الإفساح في المجلس للقادم والترحيب به وقطع الحديث من أجله وسؤاله عن حاله؛ وذلك لأن في التجاهل الكثير من الأذى.

- لا يليق أن تتحدث امرأة عن وفاقها مع زوجها أمام امرأة مطلَّقة، أو امرأة تشعر بالتعاسة في حياتها الزوجية.

- حين يكون شخص ينتظر الصلاة وأمامه فجوة في الصف الأول، فإن من غير اللائق مسابقته إليها من شخص خلفه.

إن الصحويين في حاجة ماسَّة إلى تدعيم تلك الذوقيات وأمثالها على صعيد الصحوة نفسه ثم على الصعيد الاجتماعي العام؛ من أجل الارتقاء بالأمة إلى مستوى المنهج الذي تؤمن به.

٥ - فضيلة الاعتدال:

من الواضح أن الميل إلى الطرفين شيء مكين في البنية العميقة للعقل البشري، أما التوازن والاعتدال واتخاذ الموقف الموضوعي، فهذه أمور تحتاج إلى معرفة ومنهجية، وتحكُّم بالعواطف... وهذا غير موجود لدى معظم الناس. الصحوة الإسلامية مسؤولةٌ **عن الاهتمام بترسيخ الأدبيات والمفاهيم المتعلقة بالوسطية والاعتدال في شؤون الحياة كافة؛ وذلك لأننا نلمح ذلك في كل قسمات الشريعة الغراء، ولأننا أيضًا نجد في الاعتدال**

الكثيرَ مما يساعد على تلبية كل الحاجات وأداء كل الحقوق، وأنا لا أريد هنا أن أتحدث عن وسطية الإسلام، فهذا شيء معروف لدى أبناء الصحوة، وإنما أريد أن أتحدث عن بعض المفاهيم الجوهرية المتعلقة بهذه الفضيلة، مما يساعد على استيعاب هذه القيمة العظيمة، ويساعد أيضًا على جعلها جزءًا من الثقافة السائدة، وهذا تناول موجز لذلك:

أ - درجنا على أن نستعرض الصور المتطرفة في الإفراط وتلك المتطرفة في التفريط، ثم نستخرج من هذه وتلك صورًا تعبر عن الرؤية المتوسطة والسلوك المعتدل، وهذه الطريقة قد لا يكون منها بدٌّ في بعض الأحيان، ولكن لها سلبية كبيرة، هي أننا نجعل الوسط ألعوبة بيد الأطراف، مع أن الأصل أن يكون هو الذي يحددها؛ ولهذا فإني أرى أن ننظر إلى الفكر المعتدل على أنه منهج في الفهم يقوم على عدد من القواعد والرؤى والمفاهيم الناضجة، وتلك القواعد... تدفع صاحبها إلى محاولة استيعاب الآراء والأفكار والمواقف المختلفة ثم الصيرورة إلى رأي أو موقف يأخذ كل ما أشرنا إليه بعين الاعتبار، وهذه العملية تؤدي في الغالب إلى ولادة رأي أو موقف معتدل؛ وذلك لأن الغلاة والمتطرفين والمفرِّطين منغلقون على أنفسهم أو هم في موقف (اللامبالاة) بما لدى الآخرين؛ ولهذا فإنهم يحرمون أنفسهم من النظرة والبلورة المركَّبة.

إذن المنهج المعتدل هو منهج متفاعل مع الواقع ومع النصوص والمعطيات العلمية، كما أنه متفاعل مع الاجتهادات المناظرة والمنافسة، ومن هنا فإنني أقول: إننا حتى نتحلى بفضيلة الاعتدال فإننا في حاجة إلى أن نظل في حالة من التواصل المستمر مع محيطنا، ولا اعتدال مع الجمود والعزلة، ومن خلال التواصل يتراجع الإنسان عن كثير من آرائه واجتهاداته، أو يعدِّل فيها؛ ولهذا فإننا نرى أن أهل الغلو لا يُبدون استعدادًا للحوار والتفاعل بسبب الخوف من تغيير القناعات أو بسبب الكبر والاستعلاء على عباد اللَّه. التواصل والحوار والاستعداد للاستماع أمور تحتاج إلى شيء مهم، هو اعتقاد المرء بأنه لا يحتكر الصواب وأنه مهما جزم بصحة رأيه في مسألة من المسائل الاجتهادية، يظل الشك يحوم حوله، هذه هي طبائع الأشياء، وإذا نظرنا إلى ما يجري بين بعض أتباع أجنحة الصحوة من ملاحاة ومنابذة فإننا نجد أن استبطان احتكار الصواب هو العامل الأساسي في ذلك؛ لأننا مع اليقين نستغني عن المراجعة وعن الاجتهاد، ونجد لدينا جرأة عالية على تسفيه الآخرين ومفاصلتهم.

ومما يغري كثيرين من شباب الصحوة بالاستمرار في الخطأ ما يجدونه من تجاوب جماهيري، مع أنه كان عليهم أن يدركوا أنه ما من فكرة مهما كانت خاطئة فإنها تستطيع كسب الأنصار والأتباع إذا وجدت من يتشبث بها، وينصرها طول الوقت؛ ولهذا فكثرة الأتباع لا تدل بالمعايير الصحيحة على أي شيء ولم لا والله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ب - الاعتدال مكلف لأن على المعتدل أن يصبر على أذى الغلاة، ويأخذ بعين الاعتبار العديد من الأمور في الداخل والخارج، وعليه أن يعمل على النفَس الطويل أيضًا؛ لأن الاعتدال ينتصر، لكن في النهاية، وقد عانت الصحوة الإسلامية من كثير أبنائها الذين يريدون تغيير أحوال مجتمعاتهم التي مضى عليها قرون خلال عقد أو عقدين، وعانت الأمة مع الصحوة أيضًا من المستعجلين في التغيير من كل الاتجاهات ولا سيما تلك التي تحمل طابعًا ثوريًّا. الغالون يعملون على جمع كل طاقاتهم ثم يقذفون بها في الساحة دفعة واحدة، فيحدثون ضجة وجلبة، ويستنفرون القوى المساعدة، وحين ينهاهم أهل الوسطية والاعتدال عن ذلك، فإنهم يتهمونهم بالعمالة والخيانة والجبن ومراعاة المصالح الخاصة، وبعد مدة يكتشفون أنهم أفرغوا كل طاقاتهم، وصاروا مطارَدين في الأرض، والعجيب أنهم غير قادرين على أخذ العبرة من التاريخ البعيد أو القريب، ولو أنهم وعوا التاريخ لأدركوا أن إحياء شعائر الدين وترسيخ الفضيلة في النفوس وإقامة موازين العدل... تحتاج إلى عمل يستمر جيلين أو ثلاثة على الأقل؛ ولهذا فإن على الصحوة أن تحارب الغلو من خلال الاعتدال، وأن تحارب العجلة من غير خطط استراتيجية هادئة وقائمة على إشاعة السلم والنظام وتغيير ما في العقول والنفوس قبل كل شيء.

ج - تحتاج إشاعة ثقافة الاعتدال إلى إشاعة عدد من المفاهيم الجوهرية في الحياة العامة، فالاعتدال والغلو والسلم والحرب أمور تبدأ في العقول أولًا، ثم تنتقل إلى السلوك، وتلك المفاهيم كثيرة في الحقيقة، **لكن أحاول تسليط الضوء على عدد قليل منها:**

- فطر الله تعالى العقول على التلاقي حول الأمور الكبرى، وعلى الأصول والكليات، كما فطرها على الخلاف في الفروع والجزئيات والأساليب والوسائل، فالفقهاء متفقون على عدد ركعات الظهر - مثلًا - لكنهم يختلفون فيما يقال في افتتاح الصلاة وفي حكم قراءة الفاتحة وحكم زكاة مال الصبي وزكاة الذهب... وهكذا فكلما اقتربنا من الجزئيات

وجدنا أنفسنا مختلفين، حتى لو كانت تلك الجزئيات من أمور العقيدة، على ما هو معروف لدى أهل العلم ومما يُلحق بالجزئيات الأساليبُ التي نستخدمها في الدعوة ونظرتُنا للواقع وترتيباتنا للأولويات الدعوية، كل هذا مما لا يمكن جمع الناس فيه على رأي واحد.

الحرفيون في الفهم والمتنطعون، وكل أولئك الذين حُرموا نعمة الخيال الخصب يريدون من تيارات الصحوة أن تتفق على كل شيء، وهذا الشيء هو مرئياتهم واجتهاداتهم، ومن خالفها ضل وهلك! والمتطرفون في التساهل الرافضون للمرجعيات والأصول يريدون للأمة أن تختلف في كل شيء، وهم يعبرون عن ذلك بالقول: إنه لا أحد يملك الحقيقة المطلقة، وهذا عجيب جدًّا، وهو منافٍ لما تواضعت عليه البشرية، ففي كل مجالات الحياة عدد هائل من المسلَّمات التي تجاوزت مرحلة الجدل، ونحن المسلمين لدينا عدد كبير من الأمور التي نعتقد أنها مطلقة، وعلى رأسها أركان الإيمان وأركان الإسلام وكبائر الذنوب، وأمورٌ أخرى عديدة، وينبع اعتدالنا من استنادنا إلى إرث البشرية جمعاء فيما أشرنا إليه من صعوبة أو استحالة الخلاف في الكليات وصعوبة أو استحالة الاتفاق في الجزئيات.

- ليس هناك من المفكرين والفقهاء والفلاسفة وأرباب المذاهب والمتخصصين والحكماء... من انفرد بالصواب كله، أو الخطأ كله، ومن الطبيعي أن يعتقد المرء بصحة أفكاره، لكن أهل الاعتدال يعرفون أن كثيرًا من مفردات رؤيتهم للحياة هو عبارة عن ظنون وترجيحات علمية، ومن قدماء المنظرين لهذا الإمامُ الشافعي - رحمه اللَّه - إذ يقول: « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب ». وقد رأينا من الشيوخ الذين يقيمون الحلقات العلمية، ويدرسون في الجامعات، من يناصرون المذهب الفقهي لإمامهم في كل صغيرة وكبيرة، ورأينا من شباب بعض الجماعات الإسلامية، من جنَّدوا أنفسهم للدفاع عن اجتهادات جماعاتهم ومواقفها المختلفة، وهذا منافٍ للاعتدال، ومناف للرؤية المنهجية الصحيحة، وأنا أشعر أن الوضع اليوم أفضل مما كان عليه الحال قبل عشرين سنة؛ وللَّه الحمد والمنة.

- يقتضي الاعتدال أن نفرِّق بين ما يحدث للناس كافة من كروب ومشكلات بسبب أخطائهم، وما يحدث لهم بسبب ابتلاء اللَّه تعالى إياهم وبسبب نوعية المهمة التي تصدوا لها، وعلى سبيل المثال فإن الإنسان إذا كان يدعو إلى الحق، ويحاول محاصرة الشر،

فإن من الطبيعي أن يلقى المعارضة ويتعرض للإهانة والتعذيب... مهما كان حكيمًا في أسلوبه، وكيِّسًا في تناوله للأمور، وقد عودي الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - وقوتلوا وأخرجوا من ديارهم مع تأييد اللَّه تعالى لهم بالوحي ومع ما لديهم من فطنة وحكمة، وإلى جانب هذا هناك الأذى الذي يلحق بالدعاة بسبب أخطائهم في تقدير الأوضاع، والأذى الذي يلحق بهم بسبب طموحاتهم غير المشروعة أو بسبب بعض سلوكياتهم غير المقبولة، هذه هي رؤية المعتدلين، أما المغالون في الاعتقاد بوجود كرهٍ شديدٍ للصحوة، ومؤامرةٍ كبرى على الدعاة، فإنهم لا يهتمون بالتقسيم الذي أشرنا إليه، ولا يؤمنون بممارسة النقد الذاتي.

ولدينا إلى جانب هؤلاء غلاة من نوع آخر، وهم الذين يتجاهلون وجود القوى المضادة للخير وللدعوة؛ ولهذا فإن كل ما يقع للدعاة من أذى هو بسبب ما كسبته أيديهم، وكأنهم لم يقرؤوا الآيات والأحاديث التي تنص على أن دار الدنيا هي دار ابتلاء، والتي تنص على أن وجود المناوئين للخير وأهله موجودون في كل زمان ومكان، وقد سمعنا من يُظهر الشماتة ببعض الدعاة حين يقع في محنةٍ ما، مع أنه قد يكون من أهل الحكمة والأناة والوعي، ولكنها طبيعة السير في طريق الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -

- تشكل الرؤية للتعامل مع المحيط اختبارًا آخر للاعتدال ومدى ما نتمتع به من منهجية، المحيط هو كل ما يحيط بنا من أشياء وعلاقات وقوى وأصدقاء وأقرباء وأعداء ومعلومات وأفكار ومفاهيم... وتقوم الرؤية المعتدلة هنا على عدد من المفاهيم، منها:

- نملك دائمًا قدرة على إحداث شيء من التأثير في محيطنا عن طريق الفعل وعن طريق القدوة أحيانًا، وعن طريق الممانعة أحيانًا أخرى.

- يملك المحيط قدرة على التأثير فينا، والمثال البارز في هذا البيوتُ التي نسكنها، فإننا نحن الذين نقوم بهندستها وبنائها، وهي تقوم بعد ذلك بهندسة مشاعرنا وحركتنا وخياراتنا.

- يملك الإنسان درجة من الممانعة والرفض لتأثير المحيط، لكن تلك الممانعة لا تكون أبدًا كاملة.

- تشتد درجة تأثير الأشياء فينا كلما اقتربت منا أكثر، وكلما اشتدت حاجتنا إليها.

- الطبيعة العامة لعلاقتنا بالمحيط هي (التبادلية) وما يُستهلَك يُهلِك.

- يزداد تأثير المحيط في الناس كلما وهت قدراتهم وتضاءل وعيهم، ويقل تأثيره فيهم كلما تعاظمت قدراتهم على الانعزال عنه، تمامًا مثل اللحوم حين نضعها في المجمِّدات، فإنها قد تبقى صالحة للاستهلاك سنة أو أكثر بسبب ضعف تفاعلها مع محيطها.

- المحدودية هي السُّنة العظمى التي تحكم علاقتنا بالمحيط، فاللّه تعالى جعل الدنيا وكل ما فيها محدودًا؛ ولهذا فإن تأثير المحيط فينا دائمًا محدود؛ لأن المحيط نفسه محدود؛ ولأننا نملك طبيعة خاصة وإرادة حرة نتمكن من خلالها من شيء من الممانعة، وقل مثل هذا في تأثيرنا في محيطنا، فنحن - مثلًا - نؤثر في أولادنا وطلابنا، ولكن بشكل محدود؛ وذلك لأن قدرتنا على التأثير محدودة، ولأن لهم إرادة حرة وطبيعة مستقلة، وهما عماد التمنع والمقاومة

الذين يُحْرَمون النظر إلى المحيط والتعامل معه وفق إطار هذه المفاهيم، يكونون عرضة للوقوع في الإفراط أو التفريط، وهكذا نجد من أبناء الصحوة وغيرهم من يظنون أنهم قادرون على تجنب كل تأثيرات المحيط وإملاءاته؛ ولهذا فإنهم يريدون أن يُحدثوا تغييرات في بلادهم وكأنها لا تنتمي إلى إقليم محدد، أو كأنها ليست جزءًا من عالم متواصل ومترابط. وهناك من يتعامل مع المحيط تعامل الخانع المستسلم الذي لا حول له ولا طول؛ ولهذا فإنهم يستغربون ممن يدعو إلى التأبي على الواقع أو مقاومة المحتل أو العزم على استئصال الشر، وإن شعارهم المستبطن هو المثل العامي الشهير: (العين لا تقاوم المخرز)!

ومن العجيب أن من يحملون روحًا متطرفة وثائرة على الواقع هم الذين ينسلون أكثر الناس استسلامًا للواقع، وهذا معروف؛ حيث إن أصحاب الرؤى المثالية يتحولون إلى يائسين ومحبطين حين يصطدمون بالواقع، ولا فاعلية ولا ممانعة للإنسان حين يجد أنه يسير في طريق مسدود

٦ - ثقافة العمل والإنجاز:

هل لدى العرب والمسلمين مشكلة مع العمل والجودة والإنجاز؟

وهل نحن ماهرون جدًّا في إيراد الأفكار وبيع الكلام ثم لا شيء بعد ذلك؟

ليس من الصواب أن نعمم، لكن النواتج القومية لمعظم الدول العربية والإسلامية تؤكد ذلك؛ حيث إن الناتج القومي لأمريكا وحدها يزيد بفارق كبير على الناتج القومي

للعالم الإسلامي بأكمله وإذا قارنتَ بين الآثار التي تركتها أيدينا في البيئة والطبيعة، والآثار التي تركتها أيدي أبناء الدول المتقدمة تجد بونًا شاسعًا، يجعلنا نشعر بالخجل! لا شك أن وراء ضعف الرغبة في الإنجاز والعمل الكثير من الأسباب والمعطيات التاريخية والحالية، والمشكل الأساسي في هذا أن فاعلية معظم الصحويين وسوية أدائهم وإنجازهم ليست بأفضل من سوية معظم الناس، وهذا يعني أن على الصحوة أن تعمل على ترسيخ ثقافة الإنجاز بين أبنائها أولًا حتى تقدِّم القدوة للآخرين. **ولعلي أوضِّح ما يضيء هذه القيمة العظيمة عبر المفردات التالية:**

أ - عنف التقاليد:

وضَّحت الشريعة الغراء دون أي لبس أهمية قيمة العمل، فأنت ترى كيف قرن القرآن الكريم بين الإيمان والعمل الصالح في عشرات المواضع، ووضح النبي ﷺ الكثير من الأمور المتعلقة بفضل العمل، وما أجمل قوله: « **من بات كالًّا من عمل يده بات مغفورًا له** »[1]؛ وحين سئل عن أطيب الكسب قال: « **عمل الرجل بيده وكل بيعٍ مبرور** »[2]. وقد استوعب أصحاب النبي ﷺ الرؤية الإسلامية للعمل، فهذا عمر رضي الله عنه يقول: (إني أرى الرجل فيعجبني، فأقول: أله حرفة؟ فإن قالوا: لا، سقط من عيني). ويُروَى عن عمر أنه قال: (لأن أموت بين شعبتي رحلي أضرب في الأرض أبتغي من فضل اللَّه أحب إليَّ من أن أُقتل في سبيل اللَّه؛ لأنَّ اللَّه تعالى فضَّل الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضله على المجاهدين) وهو يعني بذلك الآية الكريمة: ﴿ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [المزمل: ٢٠]. ويتجاوز العمل في كسب المال مرتبة الاستحسان في بعض الأحيان إلى مرتبة الوجوب الشرعي، كما لو أن المسلم كان يخشى على نفسه الهلاك من الجوع لو لم يعمل، أو كان عنده عيال تجب نفقتهم عليه، أو كان مدينًا.

لكن مع كل هذا فإن موقف الإنسان العربي من العمل والإنجاز ظل موقف الجافي، إن لم أقل: الكاره. ويعود شيء من أسباب هذا إلى التقاليد العربية القديمة؛ حيث كان أحب الأموال إلى العرب - ولا سيما سكان البادية - هو أموال التجارة والغزو، أي الأموال التي يكسبونها من قتال أعدائهم، كما أن نظام الرق الذي ظل موجودًا إلى ما قبل نصف

(١) أخرجه ابن عساكر.
(٢) رواه أحمد.

قرن من الآن قد رسَّخ هذا المعنى؛ حيث كان العبيد هم الذين يباشرون كثيرًا من المهن، ومع أن الرعي مهنة سائدة في البادية إلا أن البدوي يأنف من رعي البقر - خاصة - كما يأنف من العمل في الزراعة؛ لأن هذا من عمل الفلاحين ساكني القرى! لا أريد التعمق في هذا، لكن الذي أريد أن أقوله: إن كثيرًا من الناس، ما زالوا يستبطنون نوعًا من النفور من المهن والأعمال اليدوية على الرغم من توسع الحياة الحضرية، فإلى متى سيستمر هذا يا ترى؟ وكيف الخلاص منه؟ هذا ما يجب أن نبدع الطرق العملية في علاجه.

ب - عبقرية العمل:

لا تقتصر فائدة العمل على طرد الملل والسأم والتخلص من العبء الروحي الثقيل للفراغ، كما لا تقتصر فائدته على استنباط خيرات الأرض والحصول على ما يعين على الاستمرار في الحياة، بل هناك ما هو أكثر من ذلك، فنحن من خلال خطوةٍ عمليةٍ واحدةٍ في طريق طويل ننتقل من مرحلة التشهي والتمني إلى مرحلة الإنتاج والإنجاز، وهذا يشكل فضيلة عظيمة؛ لأن أي خطوة عملية تغرينا بالقيام بالخطوة التالية، ونحن من خلال العمل والعمل وحده نكتشف قدراتنا ومواهبنا ونقاط ضعفنا، كما نكتشف المحيط والوسط الذي نعمل فيه، ونكتشف ممانعة المواد التي نستخدمها، إلى جانب اكتشاف العقبات والقوى المضادة... والعمل الإيجابي يحسِّن - بالإضافة إلى كل ما ذكرناه - من بيئة العمل؛ فإن رفع حجر من طريقٍ فيه ألف حجر يجعل السير فيه بعد ذلك أسهل بنسبة واحد على ألف، فأنت ترى أن عبقرية العمل تتجلى في الأعمال الصغيرة كما تتجلى في الأعمال الكبيرة سواءً بسواء، ولك أن تستشف ذلك من قول البارئ ﷻ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، بناءً على هذا فإن الزهد في أي عمل جيد مهما كان صغيرًا هو شيء خاطئ، وقد يقودنا إلى تعود الاستخفاف بالأشياء الصغيرة والكبيرة.

ج - المنطق الخطابي:

ثقافة الكلام والمنطق الخطابي مما ابتُلِيَ به العرب، ومما ابتلي به العديد من تيارات الصحوة أيضًا، فنحن ما زلنا أسرى عشق الآباء والأجداد للبلاغة والبيان، ومع أن ذلك كان في الأصل شيئًا مهمًّا وجميلًا، لكن حين تصبح الخطابة، ويصبح الشعر وتنميق الكلمات هو كل ما يُحسِنه الإنسان، فإن الكارثة تكون هائلة، لك أن ترى شيئًا من ذلك

حين تنظر في أحوال قرية من قرانا؛ حيث تسمع الكثير من الخطب الرنانة والعبارات الأنيقة، وترى معها الفوضى العارمة وقذارة الشوارع وإهمال كل ما يتصل بالشأن العام، وترى مع ذلك أعدادًا كبيرة من الشباب الذي يجلسون في المقاهي، أو يذرعون الطرق والساحات ذهابًا وإيابًا دون الاكتراث بأي شيء، ولو دنوت من أولئك الشباب العاطلين عن العمل والإنتاج لسمعت الكثير من التأفف والشكوى، لكن مع سلبية قاتلة ومع الاستمرار في اجترار أقوال الحكماء من كل الأمم، لكن دون الاستفادة منها أو العمل بها!

المنطق الخطابي منطق مضاد للمنطق العملي والواقعي ومنطق تلمُّس النتائج الفعلية، **وذلك المنطق يقوم على الآتي**:

- سيطرة العواطف والغرائز وردود الأفعال على مسار التفكير، ولك أن ترى هذا في كثير من الحالات، انظر مثلًا كيف استطاع اليهود بالعمل الدؤوب المنظَّم أن يتحولوا من أقلية منبوذة في الغرب إلى أقلية يلقبها الأوربيون بـ (الأقلية الساحقة)؛ حيث سيطروا على مراكز اتخاذ القرار، وعلى الإعلام والاقتصاد... وقارن ذلك بأسلوب مواجهة الأقليات الإسلامية هناك للحملات العنصرية المتنامية لتلمسَ التشتت والفوضى وغياب العمل الاستراتيجي...

- المنطق الخطابي مهتم جدًّا بإطلاق عبارات التوبيخ والتأنيب وإطلاق سيل من المطالبات للجمهور الضعيف المغلوب على أمره بالقيام بكذا وكذا والكف عن كذا وكذا، دون النظر إلى أسباب عقم ذلك الخطاب عبر تاريخنا المديد! وهذا في نظري يأتي من أننا لا نفرِّق بين دوائر الاهتمام ودوائر التأثير، فالمسلم في مصر - مثلًا - مهتم إلى حدٍّ ما بما يجري في بلده، ويستطيع بطريقة أو أخرى المساهمة في نهضته بحسب موقعه ومؤهلاته؛ ولذلك فإن مصر هي من دوائر تأثيره، فإذا حدثته عن أوضاع المسلمين في (إندونيسيا) وطلبت منه أن يفعل شيئًا من أجلهم، فإن أكثر من (٩٩٪) من المصريين سيجدون أن ما تطالبهم به هو خارج نطاق تأثيرهم وإمكاناتهم، فإذا أسست منظمة خيرية أو دعوية أو إعلامية لمساعدة مسلمي (إندونيسيا) فإن ذلك البلد سوف يصبح في دائرة تأثير نسبةٍ أعلى من المصريين، وسوف يستجيب لمساعدتك الكثيرون، وبهذا نكون قد خرجنا من المنطق الخطابي إلى المنطق العملي، لكن ليس هذا هو ما نقوم به،

ولهذا فإن لدينا الكثير من الكلام والقليل من الاستجابة، وهذه الحالة من أهم الحالات التي أسهمت في تكريس التخلف في العالم الإسلامي، وفيها يكمن أهم وجوه قصور الخطاب الدعوي والصحوي عامة

- يميل المنطق الخطابي إلى الانشغال بالقضايا الكبرى وإهمال القضايا الصغيرة؛ إذ إن لدينا إحساسًا بأنه كلما كانت القضايا التي نتحدث فيها كبيرة، كان حديثنا مهمًّا ودالًّا على سعة أفقنا وقوة اهتمامنا بالمصلحة العامة؛ ولهذا فإن المنطق الخطابي يُكثر من تناول قضايا مثل ضعف الالتزام بالدين وضعف التعليم وانتشار البطالة والاستبداد السياسي والتحلل الخلقي وفشوّ الفساد... وإن إحساسنا في محله، والكبير يظل كبيرًا، لكن المشكل دائمًا يكمن في جدوى هذا الخطاب وفي النتائج العملية التي تترتب عليه. إنك حين تحدِّث الناس عن قضية كبرى، فإنك قد تثير فيهم مشاعر التذمر وشيئًا من الحماسة للعمل، لكنك في الوقت نفسه تولِّد في نفوسهم مشاعر اليأس والإحباط؛ لأنهم لا يعرفون كيف يسهمون في تنفيذ ما قلتَه لهم، ومن هنا فإن الحديث عن القضايا الكبرى ينبغي أن يشكل الإطار العام للتفاصيل الصغيرة والأساليب العملية، فإذا حدثنا الناس عن البطالة وجب أن نحدثهم عن دورهم في وجود تلك الظاهرة الكريهة، وعن دورهم الشخصي في معالجتها... والموضوع في الحقيقة دقيق، ويحتاج إلى وزن ومعايرة جيدة

- نظرًا لافتتاننا بالعبارات الأنيقة والخطب الرنانة، فإننا نظن أن كل من كان فصيحًا بليغًا يستطيع أن يكون مفكرًا وقائدًا ومخططًا، وقد تورطت في هذا العديدُ من الجماعات الإسلامية، ولم تحصد من ورائه سوى خيبة الأمل والانتكاسات الخطيرة، وهذا جزء من التشبع بالمنطق الكلامي، إن القيادة وبلورة الرؤى الكبرى تحتاج إلى التفكير المنطقي وإلى الهدوء والبعد عن الأضواء، ومن كثرة ما رأيت من سطحية الخطباء المشاهير صرت أسيء الظن بأداء أي جماعة أو تيار سلَّم زمام أموره لنجوم الإعلام وخطباء المناسبات!

لا شيء يحجِّم دور المنطق الخطابي في حياتنا مثل ترسيخ المنطق العملي، والذي يعني دائمًا التفكير في طريقة التنفيذ للرؤى والأفكار المطروحة، وعلى سبيل المثال قد يقول قائل: إن الكذب قد فشا في المجتمع فشوًّا مخيفًا، وإن من واجب الصحويين العمل على تطهير المجتمع منه، وهذا في الحقيقة مطلبٌ نبيلٌ ما دام الكذب يهدي إلى الفجور،

وإن إعمال المنطق العملي في التعامل مع هذه المسألة يتطلب إيجاد أجوبة واقعية على عدد من الأسئلة، منها:

١ - هل نسبة الكذب الموجودة في مجتمعنا أعلى من النسب الموجودة في المجتمعات التي نصفها بأنها متقدمة، أو هي مثلها، أو أدنى منها؟

٢ - إذا كان الكذب يشكِّل لدينا فعلًا شيئًا غير عادي، فما أسباب انتشاره؟

٣ - مَن الجهة التي ستأخذ على عاتقها طرح المشروعات والبرامج والقيام بحملات قيمية من أجل ترسيخ الصدق ومحاربة الكذب؟

٤ - ما الأساليب التي يمكن اتباعها في ذلك؟

٥ - ما حجم الأموال المطلوبة للقيام بما أشرنا إليه؟

٦ - ما العقبات المتوقعة، وكيف يمكن التغلب عليها؟

٧ - بما أنه لا يمكن القضاء الكلي على الكذب، فإن المستهدف هو تحجيمه، فكيف يمكن قياس نجاحنا في ذلك؟

٨ - هل لذلك مدة زمنية محدودة، أو أن الأمر يتطلب أنشطةً وبرامجَ مفتوحةً ومستمرة؟

إن مجرد المحاولة للإجابة على هذه الأسئلة ستخلصنا من تأثير المنطق الخطابي، وستضعنا في سياق عملي عقلاني واضح، وأنا أجزم بأن اتباع هذا الأسلوب في الحركات الإصلاحية المختلفة يساعدها على التخلص من (٧٠٪) من أوهامها في التغيير والنهضة والتقدم

د - التميز في الأداء:

لم نكن في يوم من الأيام أكثر حاجة إلى الفاعلية والتميز في الأداء منا في هذا اليوم؛ حيث انتهى زمان الأشياء العادية، وجاء زمان الأشياء المتفوقة، وحيث المنافسة العالمية على كل شيء على أشدها، وأودُّ أن أشير هنا إلى أن الصحوة الإسلامية الحديثة عُنيت بهذا الأمر عناية حسنة، فلو أننا عدنا إلى الستينيات من القرن الميلادي المنصرم لوجدنا أن مما استقر في أذهان الناس أن أهل الالتزام لا يصلحون إلا للتخصص في العلوم الشرعية، أما العلوم البحتة والتخصصات الراقية كالطب والهندسة فهذه من علوم

(الخواجات) ولا يصلح لدراستها إلا من كان على منهجهم! وخلال عقد من الزمان صار كثير من الشباب المتفوق في كل الكليات الجامعية من شباب الصحوة، وما زال هذا الأمر إلى يومنا هذا - بحمد اللّه تعالى - لكن علينا إلى جانب هذا أن نعترف أن كثيرًا من شباب الصحوة اليوم ليسوا متميزين في أدائهم، وهم بعيدون جدًّا عن المفاهيم المتعلقة بتطوير الذات وتجويد الأداء.. ومن هنا فإن الصحوة تواجه على صعيد الأداء المتميز تحديين كبيرين

الأول هو: التركيز على أبنائها ومحبيها كي يكونوا دائمًا في الطليعة على مستوى التحصيل العلمي وعلى مستوى الأداء المهني والوظيفي، وذلك حتى يقدموا نموذجًا صالحًا لباقي شباب الأمة، وكي يكسبوا رزقهم بجدارة وكرامة

الثاني: بث مفاهيم التفوق والتميز في عقول ونفوس جميع المسلمين، وهذه مهمة كبيرة لم ننجز منها إلا القليل ، وهذه المهمة ليست بالسهلة؛ لأن جزءًا منها يتعلق باتخاذ بعض القرارات الكبرى وسن بعض القوانين في مختلف المجالات، وهذا ما لا يملكه الصحويون في معظم البلاد الإسلامية، لكن يظل أمامهم ميدان واسع للقيام بالكثير من الأشياء المهمة، **وهذه مقاربة موجزة لذلك:**

أ - يعني التميز في الأداء تلك الدرجة العالية من الإنجاز والتفوق في طلب العلم والدراسة والأعمال والوظائف، ويمكننا أن نقول: إن الأداء المتميز يعني الاستخدام الأمثل للموارد المتاحة من وقت ومال ومعرفة وعلاقات ومناخات... ويكون الواحد منا متميزًا حين يساعد الجهة التي يعمل فيها على تحقيق أهدافها بشكل قويّ وواضح . إن في كل مؤسسة وشركة... مشكلات وتحديات، وإن أصحاب الأداء العادي أو الرديء يكونون في العادة جزءًا من تلك المشكلات، أما أصحاب الأداء المتميز، فإنهم يكونون جزءًا من الحل، بمعنى أن أي عمل تطويري فإنه يشتمل على المحاولة لتعميم سلوك المتميزين بوصفهم روادًا ونماذج ناجحة ومتقدمة. وكثيرًا ما يتم إدراك التميز في الأداء عن طريق(مقارنة) وضع الأشخاص أو المنظمات والمؤسسات بأوضاع الأشخاص المشابهين وأوضاع المنظمات والمؤسسات المشابهة.

ب - لعل أفضل ما يمكن أن نقوم به من أجل ترسيخ فضيلة التميز في الأداء هو إيجاد بيئات تحرض عليه؛ حيث ثبت أن أكثر من (٦٠٪) من نجاح الناس وإخفاقهم يعود إلى

البيئات التي يعملون فيها، ويشكل النجاح في إيجاد بيئات تعليمية وإنتاجية ممتازة واحدًا من أهم أسرار تفوق الغرب واليابان وكل الدول الصناعية والمتقدمة، وأعتقد أن من أهم سمات البيئات الجيدة:

- إتاحة التعليم والتدريب المستمرين.
- الاحترام المتبادل بين الكبار والصغار.
- العدل ووضوح الحقوق والواجبات.
- الصدق والنزاهة.
- التطوير والإبداع.
- الجدية.
- الرضا.

ومن المؤسف القول: إن للصحويين حضورًا جيدًا في بعض القطاعات - كقطاع التعليم مثلًا - ولم يستطيعوا إيجاد بيئات ممتازة في قيمها ونظمها وجديها وجودة أدائها مما يدل على أن كثيرًا من الصحويين صاروا من جنس مجتمعاتهم، عوضًا عن أن يعملوا على النهوض بها. إنهم لم يعودوا يملكون من التميز ما يساعدهم على النهوض بغيرهم!

ج - التميز في الأداء عبارة عن فلسفة قائمة على عدد من المفاهيم والقيم والعادات، وليس تجويدًا في أداء واجب أو إنتاج شيء، فالإنسان المتميز شخص مختلف عن كثير من الناس في نظرته للحياة وفي تعامله مع الآخرين وفي سلوكه الشخصي أيضًا، وأنا لا أستطيع التوسع في هذا، فحسبي تعداد أهم ما أعتقد أنه يشكِّل فلسفة في الحياة، ومنه:

- السعي المستمر نحو الأجود والأفضل.
- الاحتفاء بالجديد من الأفكار والرؤى والأساليب.
- الاهتمام الشديد بالوقت والتشدد في محاسبة النفس عليه.
- الاستجابة السريعة للتحديات.
- التخطيط للحياة الشخصية، ووضوح الأهداف.

- صدق مع اللَّه تعالى ومع النفس والناس.

- الخدمة الجيدة للعملاء، والتعامل مع الناس باحترام واهتمام.

- الثبات على المبدأ وتأطير المصالح به.

- السيطرة على بيئة العمل بطريقةٍ مناسبة.

- طموح واسع وتطلع إلى المعالي.

- رؤية متفائلة للمستقبل ومعالجة للصعوبات بهدوء وإصرار.

- دأب في العمل وصبر على تنفيذ المهام.

إن على الصحوة أن ترسخ هذه المعاني في أبنائها وأتباعها، وكل أولئك الذين يدورون في فلكها، ليقوموا من جهتهم بالدور نفسه على الصعيد العام.

٧ - الاحتساب والتطوع:

- أخَّرت الحديث عن هذه القيمة العظيمة حتى ترسخ أكثر في ذهن القارئ؛ وذلك لأن الصحوة الإسلامية بطولها وعرضها مدينة للجهود الدعوية والتطوعية والخيرية التي بذلها جنود مجهولون خلال الخمسين سنة الماضية، وكنت قد أشرت إلى أن لدينا إحساسًا عامًّا بتراجع معنى الاحتساب لدى الكثير من الصحويين، وهذا من أخطر ما يمكن أن تواجهه الصحوة، فالعمل من أجل اللَّه - تعالى - والفوز برضوانه هو الوقود الروحي الذي لن تستمر المسيرة من غيره.

إن من الملاحظ بقوة أن اللَّه - تباركت أسماؤه - قد وعد بأعظم الثواب على ما يمكن أن نسميه (العبادات الاجتماعية) وهي تلك العبادات المشتملة على نوع من المساندة الشعورية للناس، ونوع من النفع المادي لهم، وحسبنا في هذا قوله ﷺ: « **أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا** » وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما[١]، وقال: « **الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل اللَّه** » قال الراوي: وأحسبه قال: « **وكالقائم الذي لا يفتر، وكالصائم الذي لا يفطر** »[٢].

إذا كان لدينا هذا الثواب العظيم على مثل هذه الأعمال التطوعية السهلة، فلماذا نجد العمل التطوعي لدى المسلمين باهتًا ومحدودًا إذا ما قورن بما لدى الدول المتقدمة؛

---

(١) رواه البخاري وغيره.

(٢) متفق عليه.

حيث تذكر بعض الإحصاءات أن في الولايات المتحدة وحدها ما يقترب من (٩٤) مليون شخص على صلة بالأعمال التطوعية، وهؤلاء يشكلون (٣٠٪) من السكان، وهم يقدِّمون نحوًا من (٢٠) مليار ساعة عمل تطوعي في السنة، وهذا شيء مذهل بكل المقاييس؛ لأنه يعني ببساطة أن أكثر من نصف البالغين منخرطون في أعمال تطوعية، على حين أننا قد نجد لدينا قرية كاملة، لا يقدم الناس فيها في الأسبوع (٥٠) ساعة تطوعية! **الجواب في تشخيص هذه المفارقة يكمن في الآتي:**

- نفق التخلف الطويل الذي أقمنا فيه قرونًا، جعلنا مرتبكين في كل شيء، وجعل تفاعلنا مع أصولنا الحضارية ضعيفًا؛ ولهذا فإن ضعف الاهتمام بالشأن العام هو أحد ضرائب التخلف التي ينبغي أن ندفعها عن طيب خاطر

- على الرغم من كثرة الجهود التطوعية التي بذلها - وما زال يبذلها - الصحويون، إلا أن وعيهم بإقامة الأطر وطرح البرامج التطوعية جاء متأخرًا، كما أن التنظيم السري الذي ينتظم بعضَ الصحويين يعوقهم عن التفاعل الحر مع الجمهور، ويفقدهم ما يتطلبه العمل التطوعي الواسع من جرأة ومرونة.

- نستطيع أن نقول ونحن واثقون: إن السلبية والخوف من المبادرة من العلل النفسية التي يعاني منها معظم المسلمين، وهذا يعود إلى أسباب عدة، منها أن العمل الخيري والتطوعي، قد يجعل صاحبه موضع اتهام في بعض الأحيان عوضًا عن أن يلقى التشجيع، وقد تضاعف هذا أضعافًا كثيرة بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كما أن التربية الأسرية لدينا كثيرًا ما ترسِّخ في نفوس الصغار الفردية والأنانية والشك في الآخرين، وإن استعراض شيء من الأمثال الشعبية يوضِّح ذلك؛ حيث كنا وما زلنا نسمع من يردد على مسامعنا: (لست موكَّلًا بشؤون العباد) (من تدخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه) (دع الخلق للخالق) (فلان يحمل السُّلَّم بالعرض) ... إن مدلولات هذه الأمثال تعمل في (اللاوعي) منا، وتولِّد السلبية والانكفاء على الذات.

- لا نجد في أعرافنا الاجتماعية ما يشجِّع على رصد المنكرات وأشكال المخالفة للقوانين والأعراف الصالحة، فأنت لا تكاد تجد من ينبه من يشعل (سيجارته) في مصعد مكتظ بالناس، ولا من يقطع إشارة المرور، أو يلقي بالقمامة في ساحة عامة، أو يخالف دوره في (الطابور) مع أن الإنكار على هذه الأشياء من التطوع، وهو

جزء من صيانة الحياة العامة من الانحطاط، ونبينا ﷺ يقول فيما صحَّ عنه: « **من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان** »[١].

- المنطق الخطابي الذي أشرت إليه يدفع باستمرار نحو الكثير من الوعظ والنصح والتنظير، ويزهِّد في تشييد المؤسسات وطرح المشروعات، إنه يجافي في روحه ورمزيته الحركة العملية التطبيقية.

- لا ينبغي أن ننسى في هذا السياق ما تقوم به العولمة من تفكيك للمنظومات الثقافية والأخلاقية، ودفع الناس إلى أن يبحثوا عن ملذاتهم الشخصية بعيدًا عن أي اعتبار اجتماعي، كما أن التقدم العمراني والحضاري حين يفتقد المعاني الإيمانية والروحية، فإنه يفتح وعي الناس على مصالحهم الخاصة، ويُضعف اهتمامهم بالشأن العام.

هذه الأسباب وأسباب أخرى جعلت العمل التطوعي لدينا ضعيفًا للغاية، مع أنني أشعر أن الأمور آخذة في التحسن، لكن بيننا وبين ما نريد مسافة كبيرة.

ما العمل؟

السؤال الذي يطرح نفسه على الصحويين هو: ما الذي يمكن القيام به من أجل ترسيخ فضيلة الاحتساب في الحياة العامة؟

أعتقد أن علينا أن نبذل الكثير من الجهد من أجل ترسيخ هذه الفضيلة على صعيدين: صعيد الصحوة والصحويين، والصعيد العام، **وهذا توضيح موجز لهذا وذاك:**

أولًا: على صعيد الصحوة:

أ - تدعيم الجانب الروحي لدى الشباب الملتزم وتحسين صلته باللّه تعالى سيدفعه إلى المزيد من التطوع طلبًا للمثوبة من اللّه تعالى وأعتقد أن تحفيز الملتزمين عن طريق الإشعار بالواجب الوطني والحضاري، سيكون محدود التأثير.

ب - على كل الجماعات والمجموعات الإسلامية أن تتخذ من الأعمال التطوعية وسيلة لنشر أدبياتها وتهذيب أتباعها؛ حيث إن العمل التطوعي يخفف من التمحور حول الذات ومن الشعور المتضخم بالمصلحة الشخصية.

---

(١) رواه مسلم.

ج - تدريب الشباب على بناء الأطر التطوعية، ومساعدتهم على تصميم البرامج والمشروعات التي تسهم في حماية البيئة وتحسين نوعية الحياة العامة.

د - ينبغي أن تجعل كل مجموعة أو جماعة من الأنشطة التطوعية مقياسًا لنجاحها في عملها، وأن تؤكد باستمرار أن لا سبيل لتحقيق المزيد من النجاح من غير المزيد من الاحتساب والتطوع.

هـ - تحفيز شباب الصحوة على المشاركة في المنظمات التطوعية المحلية والعالمية، والمشاركة كذلك في المؤتمرات والندوات التي تتناول قضايا التطوع من أجل إثراء ثقافتهم التطوعية.

ثانيًا: على الصعيد العام:

أ - من المهم النظر إلى العمل الخيري والتطوعي على أن وظيفته ليست حل مشكلات الأمة، وإنما الاستدراك على القصور في الجهد الإنساني، واستدراك على قصور النظم؛ ولهذا فإن مجال الاحتساب والتطوع هو كل جوانب الحياة: الاقتصاد والسياسة والتربية والاجتماع والتعليم والصحة والدعوة والبيئة...

ب - إن الحكومات تبذل جهودًا كبيرة في معظم المجالات المشار إليها، وإن في إمكان العمل التطوعي مساندة تلك الجهود وترشيدها أيضًا، والمطلوب دائمًا أن يشعر الجميع أنهم متعاونون لا متنافسون، وهذا يتطلب إبعاد العمل التطوعي عن التجاذب السياسي وصونه من الاستغلال لأغراض انتخابية؛ لأن هذا سيُضعف ثقة الناس به وتقبُّلهم له.

ج - إذا أردت أن تكون قويًا فاعمل على تقوية المحيط الذي تعمل فيه؛ ولهذا فإن على الصحوة أن تبذل جهودًا كبيرة في نشر ثقافة العمل التطوعي من خلال التثقيف، واستصدار القوانين والنظم التي تتيح للناس أوسع مشاركة ممكنة

د - الأسرة هي الجهة الموكَّلة بتأسيس القيم وترسيخها في نفوس الأجيال الجديدة، ومن هنا فإن من المهم توعية الأسر بأهمية تنشئة الأبناء على الإسهام في العمل التطوعي، من خلال دفعهم إلى الانخراط في البرامج التطوعية، وتشجيعهم على تأسيس مبادرات تطوعية جديدة، وقد أنشأت بعض العائلات الكبيرة برامج تطوعية عديدة يشارك فيها الفتيان والفتيات من أبناء العائلة من أجل مساعدة الأقرباء والأرحام، وخدمة المنطقة التي تسكنها تلك العائلة، وهذا شيء عظيم!

هـ - من المهم بالنسبة إلى الصحوة العمل على تحسين مُناخ العمل التطوعي، وذلك من خلال استصدار قوانين محلية، توسِّع مساحات العمل التطوعي وتشجع عليه، وهذه نقطة مهمة للغاية؛ لأنه بدون ذلك قد يشعر المتطوع بأنه مذنب أو متَّهم.

و - العمل التطوعي والخيري أداة مهمة للدعوة إلى اللَّه تعالى وأداة مهمة أيضًا لتقوية اللُّحمة الوطنية، وذلك حين يمارَس بالطريقة الصحيحة، ويمكن له أيضًا أن يكون عامل فرقة وإثارة للشحناء، ولهذا نقول: إن من المهم أن يستفيد من الأعمال التطوعية كلُّ من يعيش في البلد: برهم وفاجرهم، مسلمهم وكافرهم، قريبهم وبعيدهم، إنه جهد الذي يشعر بشرف الانتماء إلى بلده، وجهد من يريد الخير للجميع دون استثناء.

ز - حاجة الناس إلى الوعي والفهم والعلم والمهارة لا تقل عن حاجتهم إلى الطعام والشراب، ومن هنا فإن على الصحويين أن يقيموا المؤسسات، ويصمِّموا البرامج التي تقدم التدريب للشباب على الدعوة إلى اللَّه - تعالى - والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أن التدريب على الأعمال الإغاثية وعلى تنظيم الجهود أثناء الكوارث من الأمور المهمة.

ح - كلما وسَّعتَ الأهداف، وأكثرتَ من البرامج التطوعية حصلت على متطوعين أكثر؛ ولهذا فإنه ينبغي أن يجد كل من يريد التطوع الفرصة لذلك مهما كانت ظروفه وإمكاناته، ويشكل إطار احتساب المسلم من خلال عمله وهو في منزله إطارًا من أهم الأطر الحديثة، وعلى سبيل المثال، فإن في إمكان كثير من الشباب أن ينشطوا في رصد التحولات الاجتماعية والقيمية وتوضيح اتجاهاتها، وتوعية الناس بها وبكيفية التعامل معها، كما أن في إمكانهم نشر الوعي بمطالب العصر والاستجابة الراشدة لها من خلال الكتابة والتحاور على (النت) هذه الوسيلة الخطيرة والمؤثرة جدًّا!

وبعد:

فقد آثرت الاكتفاء بالحديث عن الفضائل والقيم السبع السابقة لما لها من أهمية خاصة في نظري وسأتناول المزيد من القيم الجوهرية عند الحديث عن علاقة الصحوة بالسياسة والحديث عن الدور النهضوي للصحوة؛ بحول اللَّه وطَوْله.

* * *
* *
*



الصحوة
وتحديات التجديد

لا أظن أننا في حاجة إلى التأكيد بأن الصحوة ليست جماعة ولا حزبًا ولا تجمعًا، ومن ثَمَّ فإننا حين نتحدث عن التحديات التي تواجه الصحوة، فإننا في الحقيقة نتحدث عن المهمات التي ينبغي أن ينهض لها الصحويون على اختلاف مشاربهم، ومن الطبيعي أن تختلف نظراتهم لما نعده تحديات أو عقبات بسبب تباين الخلفية الثقافية وتباين الاهتمامات الإصلاحية إلى جانب تباين تقديرهم لحاجات الصحوة والأمة. إننا نستخدم مصطلح (التحدي) للدلالة على القضايا التي نظن أن في معالجتها نوعًا من المشقة، وحين تغمرنا مشاعر الثقة والتفاؤل، فإننا نسمي المستحيل تحديًا. إن ما يواجهه الناس من تحديات يكون في العادة بسبب سوء تكيفهم مع المتغيرات الجديدة، وإن الموت هو أيضًا بسبب عجز البدن عن التكيف مع ما طرأ عليه من قصور وغزاه من علل

في كل العصور كانت التقنية تطوِّر حياة الناس على نحو قوي ومؤثر، وما أحدثه التطور التقني من تواصلٍ محلي وعالمي فاق كل التصورات، وأثَّر كثيرًا في رؤيتنا لأنفسنا والعالم من حولنا، وأوجد الكثير من الأوضاع الجديدة التي تتطلب منا أن نجدد في مناهجنا وأدواتنا، وإلا خسرنا السيطرة على بيئتنا، ووقعنا في قبضة شكل جديد من أشكال التخلف. التحديات التي تواجه الصحوة كثيرة، ومنها ما هو داخلي ناتج من قصور الصحويين وأخطائهم، ومنها ما هو خارجي، وبما أن وجود التحديات الخارجية أمر طبيعي، فإني سأركز الحديث على التحديات الداخلية، والتي تستدعي إرادة المواجهة أن نتعامل معها على أنها مصدر لبرامج العمل وتصميم المهمات الجليلة. وأود أن أنوِّه هنا إلى أن مجالات الشأن الحضاري والإصلاحي شديدة الاشتباك والتداخل، ولهذا فقد لا نجد بدًّا من تكرار بعض المعاني بسبب ضرورات السياق.

الحديث عن التحديات غير محبَّب، لكن لا مندوحة لنا منه؛ لأن معظم المآسي التي عانى منها المسلمون عبر التاريخ، كانت بسبب ما تراكم من أخطائهم وخطاياهم، ولعلي أركِّز الحديث على أهم التحديات عبر المفردات التالية:

١ - تحديات الصحوة هي عين تحديات الأمة:

الصحوة الإسلامية بأطيافها الكثيرة جزء من أمة الإسلام، ومن ثَمَّ فإنها تعاني بدرجات مختلفة من عين المشكلات التي تعاني منها الأمة، فالمرء لا يستطيع أن يبتعد كثيرًا عن محيطه، والناس أشبه بزمانهم منهم بآبائهم، بل إنك تجد لدى أشخاص ينتمون إلى تيارات بعيدة عن الصحوة من الأخلاق الحميدة والسلوكيات الجيدة ما لا تجده عند بعض الصحويين، وأعتقد أن إدراك هذه الحقيقة مهم حتى لا نظن أننا خُلقنا للقيادة والريادة والتوجيه، وأن مجرد انتساب - الشخص إلى جماعة إسلامية يجعله فوق النقد. وعلى سبيل المثال فإن كثيرًا من شباب الصحوة يعانون من البطالة وتدني الإنتاجية وضعف التخطيط للمستقبل والإعراض عن القراءة وخلف الوعد والتفكير غير الموضوعي والارتباك في تدبير الشأن الشخصي والعنصرية والانكفاء على الذات... وهذه العلل هي عين ما يعاني منه كثير من شباب الأمة وكهولها.

إذن ما الذي يسوِّغ تأسيس خطاب خاص بالصحويين؟

الذي يسوِّغ مخاطبة الصحويين بشكل خاص هو أن نسبة الوعي والالتزام لدى معظمهم أعلى مما هو موجود لدى معظم المسلمين، كما أن كثيرًا من شباب الصحوة يتطلعون إلى التغيير والتجديد، ويبحثون عن مخرج مما هم فيه. المهم دائمًا هو تحرير الوعي وصونه من الوقوع في أسر الأنماط الاجتماعية السائدة، والحرص على بقائه متوهجًا متألقًا؛ وذلك حتى يقود مسيرة التجديد الدعوي والحضاري.

التحدي الذي يظل يواجه الصحوة هو المحافظة على مسافة محددة بينها وبين مجتمعاتها، وذلك بأن تلتحم بقضايا الأمة، كأشد ما يكون الالتحام مع الاحتفاظ باستقلالية الروح والوعي؛ حيث إن الاندماج مع ما هو سائد هو اندماج مع ما هو غير رشيد وغير مُرضي، ويمكن للتثقيف الجيد والتربية المتميزة التكفل بذلك

٢ - الصحوة تحت المجهر:

لا ريب في أن في خمول الذكر مشكلةً ذات دلالات سلبية، وكون الشخص أو الجماعة أو الدولة تحت الأضواء العالمية له إيجابيات لا تخفى، لكن له أيضًا سلبيات عديدة، والصحوة اليوم تحت الأضواء المسلَّطة من الداخل الإسلامي ومن الخارج غير المسلم، وتسليط الأضواء يعني (فتح الدفاتر)، وفتح الدفاتر يعني قطعًا العثور على

ما لا يسرُّ، وعلى ما يقبل الجدل. بدأت الحكاية بتفجيرات الحادي عشر من سبتمبر؛ حيث إن الذين اتُّهموا بها ينتمون إلى أحد التيارات الصحوية، وكان من الطبيعي أن يتيح ذلك فرصة هائلة لكل من يريد الطعن على الإسلام أو لمز الدعاة والعاملين للإسلام، وبما أن التيار الذي حمِّل مسئولية تلك الأحداث نُسب إليه القيام بأعمال عنيفة عديدة[1]، فإن الحديث عن التطرف والإرهاب والصحوة والإسلام والأصولية صار موضع اهتمام جهات كثيرة في الداخل والخارج، وقد ثبت أن في العالم بطوله وعرضه باحثين تحت الطلب، يملكون الكثير من الاستعداد للاتجاه بمراكبهم البحثية إلى حيث تكون الشهرة والجاه والمال، ويضيع في جلبتهم الكثير من الباحثين النزيهين والجادين، ولا يكاد يمر يوم منذ عشر سنوات إلى هذه اللحظة إلا ويصدر كتاب أو تقرير، أو يُنشر مقال، أو يُعمَّم خبر ينطوي على إساءةٍ ما للصحوة الإسلامية، وأعتقد أن هذا سوف يستمر مدة ليست بالقصيرة ما دام أنه صار لدينا ألوف الكتَّاب الذين (يتعيشون) بشكل من الأشكال على أخبار الصحوة وعلى أخطاء من يمكن أن يُنسبوا إليها... لكن هل تم كل ذلك بسبب العنف الذي مارسته (القاعدة)، ومن هم على نهجها أم أن هناك أسبابًا أخرى؟

الحقيقة أن بعض رموز الصحوة، وبعض أبنائها قد ساهموا في ذلك من خلال بعض التصريحات الغريبة وبعض الفتاوى الشاذة، ومن خلال بعض السلوكيات غير المقبولة، و ينبغي أن لا ننسى في هذا المقام نفوذ الصحويين وجاذبية خطابهم؛ حيث إن من شأن النجاح أن يوجد المنافسين والشانئين والحسَّاد؛ والحيلة مع هؤلاء قليلة.

السؤال هو: ما الذي على الصحويين أن يفعلوه تجاه ذلك؟

أعتقد أن مما ينبغي القيام به الآتي:

أ - علينا دائمًا أن نحسن الإصغاء لمن يتحدث عنا من القريبين والبعيدين؛ إذ إن ما يقال ليس كله من الخطأ أو الباطل، بل إن فيه لفتات ذكية جدًّا ونافعة، وإن الإخلاص يولِّد لدى المسلم الحرص على الفائدة بقطع النظر عن مصدرها.

وأنا شخصيًّا استفدت فوائد لا تقدَّر بثمن ممن انتقدوا الصحوة، وممن انتقدوا أعمالي وكتاباتي.

ب - على الصحويين أن يكونوا واضحين تجاه من يشوِّه سمعتهم ممن يُحسَب

---

(١) اعترفت القاعدة بالقيام بالعديد مما اتهمت به.

عليهم، فالسكوت على الأخطاء يقدم للخصوم دليلًا إضافيًّا ضد الساكتين، وأنا أعتقد أن تلكؤ كثير من علماء الأمة تجاه إدانة أعمال العنف والتخريب، وتجاه بعض الأقوال الشاذة والمنافية لروح العصر قد شجَّع المخطئين على التمادي في أخطائهم، ومنح المناوئين فرصة ذهبية ليزيدوا في لمزهم وتشنيعهم.

ج - مشكلة كثير من الإسلاميين أنهم لا يكتبون عن توجهاتهم ولا يوثقون تجاربهم، كما أن ممارستهم - ولا سيما على صعيد الجماعات - للنقد الذاتي شبه معدومة، وهذا كله جعل الباحثين المحايدين والراغبين في الوصول إلى الحقيقة - يلجؤون إلى خصوم الإسلام وخصوم الصحوة كي يمدوهم بالمعلومات حول الظاهرة الإسلامية الحديثة، ومن هنا فإن الكتابة عن التوجهات والنجاحات والإخفاقات والآمال والتطلعات، والحديث عن رجالات الصحوة واجتهاداتهم - ينبغي أن يأخذ بُعدًا استراتيجيًّا بالنسبة إلى الصحوة، وإن سهولة عملية النشر ومجانية وسائلها أحيانًا - كما هو الشأن في الإنترنت - يمكِّن من ذلك على نحو ممتاز.

٣ - الصحوة والإعلام:

يمثل الإعلام بالنسبة إلى الصحوة الإسلامية تحديًا كبيرًا؛ حيث إن النجاحات التي حققها الصحويون في هذا المجال متواضعة، وإذا أردنا الوقوف على الأسباب الجذرية لذلك، فيمكن أن نحصرها في الأسباب التالية:

أ - كانت المنابر قبل مئة سنة هي وسيلة التثقيف شبه الوحيدة، وكان الظن السائد بأن خطبة الجمعة، ستحتفظ بتأثيرها إلى ما لا نهاية؛ لهذا فإن كثيرًا من الدعاة وطلاب العلم والصحويين عامة لم يهتموا بتأسيس الوسائل الإعلامية، ولا الانخراط في العمل في مجال الإعلام، كما أن كثيرين منهم استقبلوا الوسائل الإعلامية الجديدة (الراديو والتلفاز والفيديو) بشيء من التخوف والاستنكار لسوء ما كان يعرض فيها[1]. وغاب عن أذهان بعضهم أن الوسيلة تبقى وسيلة، وأنه ينبغي الاستفادة منها على نحو إيجابي ومؤثر.

ب - لم يتح للصحويين الانخراط في الوسائل الإعلامية القديمة (الصحافة

(١) أذكر أنني قمت بزيارة إلى تسجيلات إسلامية مشهورة قبل ما يزيد على عشرين سنة، وكنت أشرت عليهم بأن ينتجوا أشرطة فيديو إسلامية من أجل مزاحمة الأشرطة السيئة الموجودة في الأسواق، وكان الجواب من أحد أصحاب تلك التسجيلات: إن هذا يشجع الناس على اقتناء الفيديو!.

تحديدًا) بسبب سيطرة العلمانيين والليبراليين واليساريين عليها في الأساس ومعظمها يخدم سياسات وتوجهات بعينها، ومن الصعب التأقلم معها، وإخراج رخص للجرائد والمجلات كان في معظم الدول الإسلامية صعبًا للغاية.

ج - الآن في عصر الفضائيات صار من السهل على أي جهة أو فرد تأسيس فضائية، لكن يحتاج ذلك إلى أموال طائلة، ومعظم أصحاب رؤوس الأموال لا يملكون الحماسة للبذل في هذا المجال؛ ولهذا فإن معظم القنوات الإسلامية ضعيفة وغير مشاهَدة، ولا تعد مكانًا جيدًا لتدريب الكوادر الإعلامية.

د - التلفاز ليس وسيلة للتعليم، ولم يتم اختراعه من أجل ذلك، وإنما من أجل التسلية، وتظل (الدراما) هي الملك غير المتوَّج فيما تتم مشاهدته في الفضائيات؛ والصحويون بعيدون كل البعد عنها وعن نجومها، كما أن إشكالية وجود المرأة فيها وإشكالية التمثيل عند بعضهم جعلت الفضائيات الإسلامية بعيدة عن الأعمال (الدرامية) وهذا حجَّم تأثيرها، وجعل جمهورها محدودًا في معظم البلدان الإسلامية.

هـ - اتجه خيار شباب الصحوة في وقت مبكر إلى دراسة الطب والهندسة والعلوم ولم يظفر مجال الإعلام بالعقول الفذة إلا ما ندر، وهذا أدى إلى ندرة النابهين والمؤثرين من الشباب المسلم في هذا الحقل الخطير.

ما العمل؟

كيف يمكن للصحوة أن تستفيد من الثورة الحاصلة، في وسائل البث والنشر والاتصال، في الدعوة إلى اللّه تعالى، وفي إعادة صياغة الشخصية الإسلامية بالإضافة إلى إصلاح المناخ الحضاري العام؟

أعتقد أن هناك إمكانات جيدة لعمل الكثير من الأمور المهمة على هذا الصعيد بشرط توفر شيئين: الوعي والاهتمام، **ولعل من جملة ما يمكن عمله الآتي**:

أ - التعامل مع وسائل الإعلام:

إن من المهم جدًّا أن تكون الشخصيات العامة والمنظمات والجماعات الإسلامية أكثر انفتاحًا على وسائل الإعلام، وتحقيق هذا يتم بأن يكون لكل جماعة ومنظمة... متحدث رسمي يعبر عن وجهة نظرها على نحو دائم، ويمكن أن يكون للمتحدث لقاء نصف شهري أو شهري مع وسائل الإعلام ليعرض عليها ما يتعلق بالجهة التي يمثلها،

كما أن من الممكن تنظيم يوم أو يومين مفتوحين في السنة لاستقبال الناس - والرد على أسئلتهم، وهذا ما يقوم به العديد من المنظمات الإسلامية في الغرب، وقد كانت له آثار حميدة في فهم الغربيين للإسلام واستيعابهم لأحوال المسلمين.

وأود أن أشير هنا إلى أن العلاقة مع وسائل الإعلام والتحدث إليها من الأمور الدقيقة جدًّا، وأعتقد أن كل القيادات وكبار الدعاة وكل أولئك المشغولين بالشأن العام في حاجة إلى أن يثقفوا أنفسهم بأصول تلك العلاقة، والتي منها:

- الالتزام بالحقيقة دائمًا.

- الدقة في التعبير مع تجنب المصطلحات الفنية التي قد تشوش ذهن المتلقي والحرص على الوضوح دائمًا.

- إذا لم يكن لدى المتحدث جواب فليقل: ليس عندي جواب على هذا السؤال، وإذا كان لديه جواب غير مكتمل، فليقل: النقطة الفلانية ليست واضحة لدي، أو ليس عندي معلومات حولها.

- التفريق بوضوح بين التحليل وعرض الرأي الشخصي للمتحدث وبين المعلومات التي في حوزته، كما أن من المهم التفريق بين وجهة النظر الشخصية ووجهة نظر الجهة التي يتحدث المرء باسمها.

- يحبُّ الإعلاميون الصراحة، ومن المهم تحقيق تلك الرغبة، وهم يمقتون الذين يتعمدون الغموض، ويتضايقون من الذي يقال فيه: تكلم كثيرًا، ولم يقل شيئًا، ومع هذا فعلى المرء أن يكون حذرًا من أن يُستدرج إلى قول ما تقتضي المصلحة السكوت عنه، وقد قيل: ما كل ما يُعْلَم يقال.

- من المهم أن يتحدث الإنسان على أساس أن كل ما سيقوله هو كلام رسمي، وسيتم نشره، كما أن من المهم في المقابلات الصحفية أن يكون النص الذي سيتم نشره مكتوبًا، وليس مأخوذًا من محادثة شفوية.

- الاحتفاظ بقائمة لإنجازات الجماعة أو المنظمة، وتحديث تلك الإنجازات باستمرار، كما يحدِّث الناجحون سيرهم الذاتية.

- التحلي بروح الدعابة أثناء الحديث، والبعد عن الجدية الصارمة؛ إذ إن المرح يوحي بالثقة بالنفس.

ليس من المناسب قطع الصلة بالإعلاميين، وعدم الرد على اتصالاتهم، ولا سيما حين تكون أوضاع المنظمة سيئة، إن مثل هذا التجنب يُفسَّر على أنه هروب من مواجهة الحقيقة المرة.

ب - تدريب الشباب على الكتابة الصحفية:

قد يكون من الصعب على منظمة أو هيئة أو جماعة إنشاء قناة فضائية أو تأسيس مجلة أو جريدة... لكن لن يكون من الصعب عليها الدفع ببعض شبابها إلى الكتابة الصحفية المحترفة بعد تقديم التدريب المطلوب، والحقيقة أننا مقصرون غاية التقصير في مساعدة الشباب النابهين على الكتابة عامة، مع أنه مضى زمان ليس بالقصير على اهتمام الأمم المتقدمة بهذه القضية. ومما يُذكَر في هذا الشأن أن في فرنسا أكثر من مئة ورشة لتدريب الشباب على الكتابة الإبداعية على نحو خاص، والصحويون مقصرون تقصيرًا كبيرًا على هذا الصعيد مع أن لديهم ملايين الشباب الذين يمكنهم من خلال المهارة والإبداع والاحتراف أن يخترقوا الأسوار العالية التي وضعها الليبراليون وغيرهم حول كثير من الجرائد والمجلات، وهذا التقصير قد يعود إلى عزوف الشباب عن الكتابة في صحف غير إسلامية أو غير نزيهة، وأنا مستوعب لهذا الحذر، لكن أقول: إن الإنسان من خلال الإبداع والتفوق والمثابرة يستطيع فرض احترامه ومنهجيته حتى على المناوئين له، ويستطيع أن يجد المسرب الملائم لجهده وعطائه أنا هنا لا أتحدث عن كتَّاب عاديين، فالعاديون موجودون، وإنما أتحدث عن كتَّاب يؤثِّرون في الرأي العام، ويتابعهم أصحاب القرار، كتّاب يحسب لهم الفاسدون والمفسدون ألف حساب بسبب قدرتهم الفائقة على التواصل مع الجمهور من أجل كشف القضايا التي يفضل بعض المتنفذين بقاءها طيَّ الكتمان.

ج - الإعلام الفضائي:

لا شك في أن الإعلام الفضائي قد جاء بالكثير من الشرور، لكنه في الوقت نفسه أتاح للعالِم والمفكر والداعية أن يخاطب ملايين الناس وهو جالس في غرفة صغيرة، وكان أسلافنا من أهل العلم يغبطون من يجتمع في حلقته خمسمائة من الطلاب!

لدينا اليوم عشرات الفضائيات الإسلامية، وكثير منها يعاني من نقص التمويل، وبعضها تنازل عن شيء من استقلاليته ومنهجيته بسبب مراعاته لتوجهات الممولين، وفي

رأيي أنه لا ينبغي إقامة أي فضائية إسلامية، إلا إذا كان لها وقف خاص من البداية تكفي موارده لتشغيل القناة، أو كان هناك رجل أعمال قوي مستعد للتمويل والمساندة، لكن هناك شيء لا يقل في تأثيره وأهميته عن القنوات الفضائية، ألا وهو الإنتاج الإعلامي؛ حيث نأمل أن يكون لدينا عشرات المؤسسات اللاربحية - التي تعمل على إنتاج البرامج الممتازة، من أجل تزويد الفضائيات الإسلامية بها، وأعتقد أن لإنتاج الأفلام الوثائقية أهمية خاصة؛ حيث إنها تعمل على كشف الواقع وتصويره بصدق وتلقائية ودقة، ومن ثم فإنها توفر معرفة ممتازة بالواقع الاجتماعي والسياسي والأخلاقي لبلد من البلدان في مرحلة من المراحل من غير إملاء مباشر، أو قسر على شيء معين.

كما أن في إمكان الصحويين والمصلحين عامة استخدام الأفلام الوثائقية في بيان القيمة الإنسانية والثقافية لمشروع من المشروعات أو مؤسسة من المؤسسات، ويمكن الاستفادة منها أيضًا في توضيح الخلل في مسيرة النهضة وتسليط الضوء على الأجزاء المعطوبة من ثقافتنا الشعبية، وهذا يتطلب إعداد وتدريب المخرجين المهرة، ويحتاج إلى المؤلفات التي تقدم معلومات وافية عن موضوع الفيلم، مما يجعلنا نذكِّر بضرورة اقتحام مجال الإعلام وتشجيع الشباب على التخصص فيه، ولن تغني الأفلام الوثائقية عن اقتحام (الدراما) من أجل استخدامها في الدعوة والإصلاح؛ حيث إن المواطن العربي - بثقافته الحالية يميل إلى تفضيل مشاهدة (الدراما) التي من شأنها تمثيل الواقع بحبكة فنية - على غرار الحبكة الروائية - على الأفلام الوثائقية التي تسعى إلى تصوير الواقع على ما هو عليه فعلًا مع القليل من تدخل المنتجين

٤ - مقاومة الجاذبية إلى التقنين:

لدى كل مسلم غيور شغف لا حدود له بأن يرى مرادات اللَّه تعالى موضع اهتمام وامتثال في الحياة الخاصة والعامة، وهذا الشغف موجود لدى الصحويين بصورة أوسع، وقد كان تطبيق الشريعة في جوانب الحياة كافة أحد أكبر الهواجس لدى مؤسسي الصحوة، وينبغي أن يكون كذلك، فالآيات القرآنية الدالة على وجوب الانقياد إلى أمر اللَّه تعالى في المنشط والمكره كثيرة جدًّا، لكن مع هذا فإسلام الوجه للَّه تعالى لا يكون في المجال التشريعي فحسب، فهناك العبادات وهناك مجالات التربية والاجتماع والمعاملات الشخصية، وهناك القيم والأخلاق الفردية...

والحقيقة أننا لو رجعنا إلى تصورات معظم الصحويين قبل أربعين سنة حول الحياة العامة - لوجدنا أن أسلمة القوانين وإقامة الدولة الإسلامية وبسط نفوذها المعنوي والمادي على المجتمع كان هو الأهم والأرسخ، وما زال كذلك لكن بصورة أقل، وأود أن أضيء في هذه المسألة النقاط التالية:

أ - لا ينبغي أن نختلف في أن وجود أي تطبيق لأحكام الشريعة في أي مجتمع مكسب كبير ينبغي أن نحافظ عليه ونصونه، وعلينا مع ذلك أن نسعى إلى تدعيم الوازع الداخلي لدى أفراد المجتمع وتقوية الجانب الخلقي والإنساني حتى لا يكون امتثال الناس لأحكام الشريعة مجوَّفًا، وحتى لا يصبح ظاهر المجتمع خيرًا من باطنه.

ب - لدى بعض شباب الصحوة اعتقاد جازم بضرورة المبادرة من كل ذي سلطة إلى سنِّ القوانين الإسلامية وتغيير كل القوانين المخالفة للشريعة في كل مجالات الحياة، وينبغي أن يتم ذلك دون إبطاء، وإلا أثم صاحبه، وصار في دائرة الظالمين والفاسقين، بل الكافرين، فهم لا يؤمنون بالتدرج، ويرون أن زمانه قد انتهى في عصر النبي ﷺ، أما الآن فلا يسعنا إلا التطبيق الكامل للشريعة، وعلى نحو فوري. وهذا في الحقيقة يشكل تحديًا كبيرًا للصحوة؛ لأن الذين يرون هذا الرأي يملكون حماسة هائلة لحمل السلاح ومقاتلة الحكومات وإكراه الناس بكل وسيلة من أجل تنفيذ ما يرونه بقطع النظر عن استعداد المجتمع له وعن العواقب السيئة التي يمكن أن تترتب عليه، وقد لمسنا هذا في أفغانستان أيام حكم طالبان، ونلمسه اليوم في بعض مقاطعات الصومال المنكوب.

إن مشكلة كثير من أولئك الشباب أنهم يظنون أنهم على درجة عالية من الأهلية لفهم الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة دون العودة إلى أقوال أهل العلم، والعودة إلى القواعد التي وضعها الأصوليون.

نحن نؤمن بأن الشريعة الغراء مكتملة على الصعيد النظري، ولا يصح أن يكون الإيمان بذلك موضع جدل، لكن تطبيقها أو تطبيق بعض أحكامها في الواقع العملي يخضع للعديد من القواعد الكبرى من مثل: (رفع الحرج في التكليف) و (التقوى على قدر الاستطاعة) و (درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح) و (لا يُزال المنكر إذا كان سيؤدي إلى منكر أكبر منه)... وهذه القواعد تعني ببساطة شيئًا مهمًّا، هو أن البارئ - جل وعلا - بحكمته البالغة قد جعل أمر تطبيق الشريعة في كل زمان ومكان موكولًا

إلى تقدير قادة المسلمين وعلمائهم، فهم الذين يستكشفون الواقع، ويحاولون تقرير ما يمكن تطبيقه من أحكام الشريعة في ذلك الواقع، وقد تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض ما يتعلق بتطبيق الشريعة وعن بعض القواعد التي تحكم ذلك حين قال: (وكذلك النجاشي هو وإن كان ملك النصارى، فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام، بل إنما دخل معه نفر منهم، ولهذا لما مات لم يكن هناك أحد يصلي عليه، فصلى عليه النبي ﷺ... وقال: « **إن أخًا لكم صالحًا من أهل الحبشة مات** » وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها لم يكن دخل فيه لعجزه عن ذلك، فلم يهاجر، ولم يجاهد، ولا حج البيت، بل قد روي أنه لم يصلِّ الصلوات الخمس، ولم يصم شهر رمضان، ولم يؤدِّ الزكاة الشرعية؛ لأن ذلك كان يظهر عند قومه، فينكرونه عليه، وهو لا يمكنه مخالفتهم.

ونحن نعلم قطعًا أنه لم يكن يمكنه أن يحكم فيهم بحكم القرآن، واللَّه قد فرض على نبيه بالمدينة أنه إذا جاءه أهل الكتاب لم يحكم بينهم إلا بما أنزل اللَّه إليه، وحذَّره أن يفتنوه عن بعض ما أنزل اللَّه إليه.. والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم بحكم القرآن، فإن قومه لا يقرونه على ذلك، وكثيرًا ما يوَلَّى الرجل بين المسلمين والتتار قاضيًا بل إمامًا وفي نفسه شيء من العدل، فلا يمكنه ذلك، بل هناك من يمنعه ذلك، ولا يكلف اللَّه نفسًا إلا وسعها. وعمر بن عبد العزيز عودي وأُوذي على بعض ما أقامه من العدل، وقيل: إنه سُمَّ على ذلك، فالنجاشي وأمثاله سعداء في الجنة، وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدرون على التزامه، بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها.

ويستشهد في موضع آخر بيوسف عليه السلام ويقول: (ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد، وهو ما يراه من دين اللَّه، فإن القوم لم يستجيبوا له، لكن فَعَل الممكن من العدل والإحسان، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يمكن أن يناله بدون ذلك، وهذا كله داخل في قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦][١] وهذا الكلام واضح جدًّا، ولا يحتاج إلى شرح أو تعليق...

ج - في زماننا هذا اتسعت مساحة الحرية الشخصية اتساعًا هائلًا، واتسعت دوائر حقوق الإنسان اتساعًا لم يسبق له مثيل وصارت حرية المعتقد من أهم ما يُقعِّد له

(١) انظر الفتاوى (١٩/ ١١٦، ١١٧، ٢٠/ ٣٤).

الحقوقي والفقيه الدستوري في العالم كله، وهذا يجعل فرض الالتزام بالشعائر منفرًا ومدينًا، ولا سيما إذا كان الذي يفعل ذلك هو الدولة؛ إذ من الواضح أن الناس إذا طُلِب منهم القيام بشيء لا يرونه، فإنهم قد يمتثلون لما يؤمرون به امتثالًا ظاهرًا، ويفعلون في السر كل ما يتنافر معه، بل قد لاحظنا أن المعارضين للدولة التي تفرض عليهم السلوك الإسلامي يجعلون تفجير نبع الإيمان وهدم مرجعية الدين جزءًا من مناهضة الدولة، وينظرون إلى علماء الشريعة والدعاة على أنهم متحالفون معها، ويصبح الهجوم عليهم جزءًا من معارضتهم للحكومة التي يناهضونها. لا شك أنه يظل في الناس من يريد التحلل من أي التزام، لكن المهم دائمًا هو وضع الأغلبية، فإذا كانوا يريدون فعلًا تطبيق الشريعة ومستعدين للدفاع عن ذلك، فإن النجاح متوقع ومأمول.

د - نحن نريد لحياتنا بكل تفاصيلها أن تكون للَّه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وأن يكون كل شأننا في إطار محبوبات اللَّه تعالى، **وهذا يتطلب بذل الكثير من الجهود الإصلاحية والتربوية على العديد من الصعد، وستكون الأولوية للآتي:**

- ترسيخ الإيمان في النفوس وتنقية العقيدة من جميع الشوائب والانحرافات التي أضرَّت بها.

- إنشاء تيار روحي قائم على حبِّ اللَّه ورسوله وتعظيم أمر اللَّه وتزكية النفوس.

- نشر العلم الشرعي وتثقيف العقول بثقافة الحلال والحرام.

- تثقيف الأسر بالثقافة التربوية الصحيحة، ومطالبة المدارس بالقيام بدورها في ذلك.

- توسيع مساحة الحريات العامة حتى تتولد في نفوس الناس الحماسة لنصرة ما يعتقدون أنهم يفعلونه وهم مقتنعون به تمام الاقتناع، وهذا مهم؛ حيث إن الشعور بالمسؤولية ينبثق من أعماق الشعور بالحرية والكرامة والاستقلال.

- السعي الجاد والمخلص مع مواكبة ما سبق إلى تطبيق أحكام الشريعة وحدودها بالتدرج، فنحن نريد أن يطالب الناسُ ببسط أحكام الشريعة وأقوال الفقهاء لا أن تفرض عليهم فرضًا؛ إذ إن ذلك لن يأتي بأي نتيجة. لأن الدِّين مجموعة من القيم السامية، والقيم لا تُفرَض - كما أشرت من قبل - لكنها تجذب، ولعل هذا هو المراد من قوله تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

إنني أشعر أن الرافضين للتدرج في تطبيق الشريعة يريدون التخلص من أعباء الدعوة والتربية والإصلاح من خلال سنِّ القوانين؛ حيث يتحمل العبء آنذاك القضاء والشرطة وأجهزة الحكومة المختلفة، وهؤلاء قد لا يكون كثير منهم ملتزمًا أو متحمسًا لما يقوم به، وهذا يجعل تطبيق الشريعة شكليًّا، وقليل الجدوى في تحقيق الغايات الإسلامية الكبرى.

٥ - تحويل الأفكار إلى ثقافة:

لدى الصحويين الكثير من الأفكار والقيم والمبادئ التي يعتقدون أن صلاح الأمة متوقف على الامتثال لها، والتحلي بها، وهم يبذلون الكثير من الجهد والوقت في سبيل نشرها وتعميمها، وهذا شيء طبيعي، لكن يلاحظ أن انتفاع الناس بما يسمعونه دائمًا محدود، بسبب ضعف تفاعلهم، وبسبب ميلهم إلى الاعتقاد بصعوبة ما يُدْعَون إلى القيام به والكفِّ عنه

الذي يؤثر فعلًا في الناس هو أن يروا الأفكار والمبادئ والفضائل مجسَّدة في سلوك بشر مثلهم، وهذا هو معنى منح العصمة للأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، فبالعصمة يصبح سلوكهم شرحًا لما أُمروا بتبليغه، بل يصبح سلوكهم نفسه تشريعًا.

على مدار التاريخ كان التحدي الأكبر الذي يواجه الدعاة والمصلحين هو انسجام حياتهم وسلوكهم اليومي مع ما يدعون الناس إليه، وهذا هو التحدي الجديُّ الذي يواجهه الصحويون اليوم.

تحويل الفكرة إلى ثقافة يعني تشبع الإنسان بالفكرة إلى درجة أنها تصبح لديه خارج دائرة النقاش، ويصبح سلوكه منسجمًا معها بطريقة لا واعية، تمامًا مثل ما يقبِّل الطفل يد والدته عند الاستيقاظ من النوم، وكما يغلق ابن المدينة باب بيته خلفه وهو داخل إليه، وكما يعانق الرجل صديقًا عزيزًا قادمًا من سفر بعيد... وعلينا أن نعترف أن العملية ليست سهلة، وقد ذكر بعض الباحثين أن نزول الأفكار من أعالي النظر لتصبح عادة يومية للإنسان قد يحتاج إلى ثلاثة أجيال، أي مدة تقارب عمر الصحوة الإسلامية الحديثة

السؤال هو: كيف يمكن تحويل الأفكار والقيم إلى ثقافة، وما أهم ما ينبغي التركيز عليه في هذا الشأن؟

٦ - وسائل التحويل:

تتحول الأفكار... إلى ثقافة وعادة من خلال **ثلاثة أمور أساسية هي**:

أ - التربية:

وهي أهم أداة في عملية التحويل هذه؛ وذلك لأن القيم والأفكار تنتقل من خلال المعايشة والتأثر بالجو الذي ينشأ فيه المتربي، وهكذا فإن الطفل يتعلم النظافة واللطف في الحديث وترتيب أشيائه وتهيئة نفسه لخوض الامتحان من خلال ما يراه في بيته وتصرفات إخوانه، وإذا أرادت أية جماعة إسلامية أن تربي أتباعها على قيمة من القيم فإن عليها أن تتيح لهم رؤيتها في سلوك قادتها، وفي اجتماعاتها وأنشطتها وبرامجها المختلفة، وإلا فإن فائدة الإرشاد إلى التحلي بفضيلةٍ من الفضائل سيكون شبه عقيم.

ب - التدريب:

يستهدف التدريب أساسًا إكساب المهارات التي يحتاجها المتدرب في الارتقاء بعمله، والحقيقة أن التدريب الناجح إذا تلقاه شخص راغب وذو عزيمة، يغيِّر في الشخصية، ويحسِّن في السلوك والعلاقات، ويقلل من الهدر في الوقت وفي المواد المستخدمة، والتدريب بعد هذا يوجد نوعًا من البرمجة العصبية لدى المتدرب، فيتصرف بشكل صحيح من غير وعي منه، أي يصبح السلوك الصحيح جزءًا من ثقافته، ومن هنا فإن على المنظمات والهيئات والجماعات الصحوية أن تنفق بسخاء على تدريب أتباعها ومنسوبيها على المهام الدعوية والإصلاحية التي تكلفهم بها، وأعتقد أن التدريب على الخطابة والحوار والتفكير المنهجي وإدارة المجموعات - من الأمور المهمة التي لا يصح إغفالها

ج - سنُّ القوانين:

تميل الثقافة بوصفها سلوكًا تلقائيًّا إلى الحرية وكراهية القيود؛ ولهذا فإن الناس لا يحبون أن يروا أنفسهم مكبلين بنظم وقواعد وقوانين تحظر عليهم بعض السلوكيات المرغوبة، وتوجه أنشطتهم في اتجاهات محددة، ومع هذا فإن من الثابت أن القوانين والنظم العادلة تظل على الدوام قادرة على توليد سلوكيات حميدة، أي ثقافة راشدة، وإن من المألوف أن يتذمر الناس من كل قانون جديد، لكنَّ هذا كثيرًا ما يكون في البداية، وبعد مدة يألف الناس الجديد، ويصبح جزءًا من سلوكياتهم اليومية، وعلى سبيل المثال

فإن ترتيب مخالفة مرورية على عدم شد السائق لحزامه قد تُتلقَّى بالتذمر في بداية الأمر، وبعد مدة يصبح لدينا عدد جيد من السائقين الذين يشدون حزام الأمان، ولو لم يكن هناك أي رقابة على ذلك، لكن ينبغي أن نقول: إن وضع القوانين لا يفضي إلى شيء ما لم تكن هناك متابعة ومحاسبة من قِبَل واضع النظام للمخالفين، وهذا ما يعاني منه العديد من المؤسسات والمنظمات الصحوية؛ حيث يرتكب بعض الصحويين أخطاء فاحشة في القيادة واتخاذ القرارات دون أن يجدوا من يقوم بمحاسبتهم!

وقد يسأل سائل: ما الأفكار والقيم الأساسية التي على الصحوة أن تحولها إلى ثقافة وسلوك بسيط وتلقائي لدى أبنائها؟

الجواب هو: أن في إمكاننا أن نقسِّم ما أشير إليه في السؤال إلى قسمين: قيم وأفكار ينبغي أن تتوفر لدى كل مسلم صالح، مثل الصدق والإخلاص والالتزام بآداب الشريعة والانتماء للأمة والوطن وحب الخير وفعل المعروف... وقيم وأفكار مطلوب وجودها لدى كل من يسعى إلى أن يكون له دور في الدعوة والإصلاح والقيادة **وذلك مثل**:

- البعد عن التعصب للجماعة أو الهيئة.
- ممارسة الشورى في كل الشؤون والأحوال والرضا بما تأتي به.
- الالتزام بالنظام واحترام القوانين السارية.
- الجدية في العمل وتحسين الإنتاجية على نحو مستمر.
- الترحيب بالاختلاف واحترام التنوع الفكري والثقافي.
- الاهتمام بالشأن العام وتبنِّي مهمات إصلاحية محددة.
- الحرص على التعلم الجيد.
- امتلاك القدرة على البلاغ المبين.
- سعة الأفق والمرونة في الفهم.

إن المسافة التي تفصل بين الواحد منا وبين هذه المعاني والقيم هي عين المسافة التي تفصل بين الصحة والمرض، والنجاح والإخفاق، وعلى مقدار ما تكون هذه المسافة قصيرة يكون التقدم والازدهار بحول اللّٰه وطَوْله.

٧ - من الممانعة إلى المبادرة:

لا يستغني أحد عن أن يكون له في بعض الأحيان تمنُّع وإنكار لما يرى، ودرء المفاسد والنهي عن المنكر ومحاصرة الشرور قدر الإمكان من صلب المنهج الإصلاحي الإسلامي وغير الإسلامي، لكن المقصود هنا هو تلك الممانعة التي تصبح سمة عامة من سمات الفرد أو الجماعة حيث يكون (التمترس) خلف بعض الأفكار والرؤى والشعارات هو الغالب على منهج الصحوة، وإذا كان عليَّ أن أكون دقيقًا أكثر، فإني أقول: إن المنهج الإصلاحي هو منهج مركَّب، تشكل الممانعة فيه نحوًا من (٢٠٪) وتشكل المشاركة والمبادرة والمنافسة النسبة الباقية، وإن الذي يجعلني أذهب إلى هذا هو الشرور الكامنة في جعل الممانعة شيئًا غالبًا على منهج العمل.

٨ - سلبيات الممانعة:

أ - تعني الممانعةُ أخذ وضعية الراصد المتابع لما يجري، والعمل على منع ما يظن أنه مخالف لمبادئ الإسلام، أو ضار بالمصلحة العامة... كما تعني اتخاذ وضع الخمود الذي لا يزعجه سوى استفزاز من هذه الجهة أو تلك، وكما أشرت فإن عملية الرصد والمتابعة لبعض الأمور من قبل فئة من الناس شيء جيد، أما الخمود والسكون الذي ينتظر أصحابُه من يستفزهم ويتحداهم، فهذا لا يحسن من أحد.

ب - المستمرون في الممانعة من غير مبادرة لفعل شيءٍ ما يضعون أنفسهم في موضع المختبئ في مكان حصين، وقد أحاط به الأعداء من كل جانب، وقد قالت العرب: إن المحاصَر لا يأتي بخير. إن الممانع يكون في حالة تأهب للانكسار والتراجع، وهذا ما نلاحظه في مواقف العديد من الدعاة على صعيد الفتوى وصعيد فقه الموازنات وعلى صعيد السلوك، وهذا طبيعي، فإنه حين تسوء الأمور من حولك، وأنت في موقف المتفرج، فمن الطبيعي أن تخسر أوراقك واحدة تلو الأخرى وبذلك تختلُّ الأولويات والموازنات.

ج - حين يرفض الإنسان - أو لا يستطيع - اتخاذ وضعية المبادر والمهاجم، فإنه سيتخذ وضعية المدافع ليقوم بالهجوم أعداؤه ومنافسوه، وإن من سنن اللّه تعالى في الخلق أن الكائن الحي ينكمش حين يُهاجم؛ لذلك فإننا نعرف الكثير من الصحويين المنكفئين على أنفسهم بسبب أنهم اتخذوا الوضع السلبي الذي يعرِّضهم باستمرار

لضغوط متتابعة. ويكفي موقف الممانعة سلبيةً أن أصحابه يتركون لخصومهم ساحة العراك والمدافعة: الخصوم يثيرون المشكلات، وهم ينشغلون بالدفاع عنها، وقد ينجحون في ذلك، وقد لا ينجحون!

د - إن الذي يجمع بين جميع حركات الممانعة هو التشبث بالماضي والحرص على استمراره في عصر كثير التقلب وشديد التطور، ونحن المسلمين نعتز بتاريخنا وحضارتنا، لكن الذي ينبغي أن نسترشد به في معاركنا الحضارية ليس التاريخ، وإنما المنهج الرباني الأقوم، فالتاريخ يعطي دلالات محدودة، والمنهج الرباني يفتح الآفاق الرحبة، ويمنح أصول الرؤية.

هـ - إن عقلية الممانعة كثيرًا ما تكون نتاج عقلية المؤامرة، فالمرء يتملكه الخوف والارتباك حين يشعر أنه مستهدَف وأن العالم كله ضده، وقد رأيت نماذج وشواهد كثيرة على هذا: أقوام يتكلمون في الليل والنهار عن تواطؤ العالم ضد المسلمين، ثم لا شيء بعد ذلك سوى تكرار الكلام الذي قالوه بالأمس!

و - لم يعد في إمكان أي دولة أو جهة أو جماعة أن تحافظ على وجودها واستقلالها من خلال الدفاع التقليدي الجامد عن الرموز أو المكتسبات، والحل الوحيد يكمن في المشاركة في صناعة مصير العالم أو الإقليم بالنسبة إلى الدول، والمشاركة في صنع مستقبل البلد بالنسبة إلى المنظمة والجماعة والفرد، وهذا يعود إلى استحالة العزلة وإلى كون المشاركة هي أهم مصدر لامتلاك القوة في العصر الحديث.

ز - قد يكون من الملائم أن نركِّز على (المناعة) عوضًا عن (الممانعة) وهذا يعني أن نعمل على شيئين أساسيين:

الأول: بناء الوجدان أو الوازع الداخلي لدى الأجيال الجديدة حتى نحصنهم من اجتياح التيار الشهواني الجارف الذي يُقبل علينا من كل مكان.

الثاني: تحسين درجة الوعي بخصوصياتنا الثقافية حتى نحمي الفتيان والشباب من تيارات الشكوك والشُّبُهات والمنهجيات المناوئة.

٩ - المبادرة والمشاركة:

ذكرت أننا لن نستغني عن الممانعة، ولكن علينا أن نجعل المبادرة والمنافسة والمشاركة هي السمة الغالبة على تفكيرنا، وسلوكنا ومنهجياتنا، وأعتقد أن الصحوة

تحتاج حتى ترسِّخ ثقافة المبادرة إلى أن تبني عقول أبنائها ونفوسهم على نحو جديد، ولعل من ملامح ذلك البناء الآتي:

أ - تشجيع الرؤية الفردية للواقع والتخفيف من التقيد بالاتجاه الجمعي السائد، وقد صار من الواضح أن الناس في عهود التخلف يلوذ بعضهم ببعض كما تلوذ الطيور ببعضها في أوقات الصقيع. ومع أن العقل الجمعي مهم جدًّا للتضامن الأهلي والتماسك الاجتماعي إلا أنه ينظر إلى التجديد على أنه الخطر الذي سيفكك كل منظوماته. وإن التاريخ ليشهد بأن كثيرًا من الأفكار العظيمة تلقَّاها الناس في البداية بالاستغراب والاستنكار، ثم صاروا يستمتعون بثمارها، ويرون أن الحياة ستكون صعبة من غيرها!

ب - حتى يبادر الإنسان فإن عليه أن يتجاوز القوالب والأنماط السائدة، وهذا التجاوز ليس مقصودًا لذاته، وإنما يُطلب لما فيه من كسر أطواق التقليد والركون إلى المألوف، وأذكر أن القائمين على بعض المساجد في إحدى الدول الإسلامية، صاروا يستخدمون شاشات العرض في سبيل شرح بعض القضايا، وعرضوا فيها بعض الأفلام الوثائقية الخالية من أي مناظر منكَرة، وقد تُلقيَ ذلك في البداية من بعض المصلين بالاستهجان، فالمساجد بنيت للعبادة والذين أحضروا الشاشات جعلوها أشبه بصالات العروض (السينمائية) وقد كان ذلك في البداية، وبعد ذلك لمسوا منافع الشاشات، وكفوا عن المعارضة والاعتراض. النصوص والأحكام الشرعية هي الحكَم في الجديد، وليس العادات والتقاليد.

ج - لا مبادرة من غير شيئين: الثقة بالنفس والتفاؤل في النجاح، ومن المهم دائمًا للصحوة أن تبث روح التفاؤل لدى أبنائها وفي المجتمع عامة، وقد كان ﷺ يعجبه الفأل، وكان يحب تبشير أصحابه بما أعده اللَّه لهم من التمكين في الدنيا والنعيم في الآخرة، ويمكن تعزيز روح التفاؤل عن طريق سرد الانتصارات والإنجازات التي حققتها الصحوة - وهي بحمد اللَّه أكبر من أن تُحصى - بالإضافة إلى دلالة الشباب على الطرق المفتوحة. أما الثقة بالنفس، فإنها تعني - على نحو عام - اعتقاد المرء بأنه قادر على إنجاز ما يُنجزه أقرانه، بل تعني أحيانًا الاعتقاد بالقدرة على إنجاز ما يعجز عنه بعض الأقران، وهذا يتولد لدى الإنسان من خلال تشجيعه والتسامح مع أخطائه وتحميله المسؤوليات، وتكليفه بالمهمات.

د - حين تنعدم لدينا المبادرة تتشابه أوضاعنا إلى حدِّ التطابق، ولو تأملت في حال التعليم في العالم الإسلامي قبل قرن من الزمان لوجدت من تشابه طرقه ما يدهشك، وبعد مجيء النهضة الحديثة تنوعت الأساليب والطرق، والوسائل وكثرت النظريات والدراسات، وهكذا فالمبادرة تقوم على الإبداع والاجتهاد اللذين يفضيان بطبيعة الحال إلى الثراء والتنوع. أنا آمل أن يكون لدى الصحوة عشرات الطرق في تبليغ الرسالة وعشرات الطرق للحوار مع المخالفين والمنافسين، والكثير من الطرق في معالجة المشكلات الاجتماعية ومشكلات سوء الإدارة والفساد المالي... نحن نخاف من التنوع لأنه يُفقدنا الشعور بالوحدة، وهذا التخوف في محله، لكن من المهم أن ندرك أن التنوع في إطار الوحدة سنة من سنن اللَّه في الخلق، وأن التشابه الجامد هو الذي يفجر التوحد الشكلي، الذي نطمئن في العادة إليه.

هـ - إذا أردنا إثراء المبادرة لدينا، فإن علينا أن نتعلم من تجارب الآخرين، وأنا دائمًا أقول: إن المشكلات التي تتحدانا فعلًا هي المشكلات ذات الطابع المحلي، أما المشكلات ذات الطابع العالمي، فأمرها يسير؛ لأن في إمكاننا أن نستفيد من معالجات الآخرين لها، وهكذا يمكن أن نتعلم من غيرنا الكثير الكثير في إدارة الخلاف ونشر الأفكار وتنمية الموارد والتعايش مع المخالفين وتجديد الوعي... وكم أتمنى أن يكون لدى كل جماعة وهيئة ومنظمة وجهة صحوية وحدة صغيرة، مهمتُها الأساسية اصطياد الأفكار والاطلاع على التجارب العالمية، واقتباس الأساليب الناجحة، إن هذه الوحدة قد تختصر الطريق بأكثر مما نتصور

و - يتطلب بناء ثقافة المبادرة تقدير أي محاولة جادة وتشجيع أصحابها والثناء عليهم بقطع النظر عن النتائج؛ إذ من الطبيعي أن يكون هناك محاولات ومبادرات ناجحة وأخرى مخفقة، وثالثة بين وبين، ورحم اللَّه الشاعر أبا ريشة إذ يقول:

شرف الوثبة أن ترضي العلا ... غلب الواثب أم لم يغلبِ

قد ورثنا عن أسلافنا تقدير النجاح وإهمال قيمة المحاولة، وهذا شيء خاطئ، فإذا بذل الإنسان جهده من أجل الوصول إلى شيءٍ نافع، فإن له أجر محاولته وإن أخطأ، كما هو معروف ومشهور.

ز - مواقف المبادِر متنوعة، فهو في موقف ينقد، وفي موقف ثانٍ ينصح، وفي موقف

ثالث يشكر ويُثني، وفي موقف رابع يقترح، وفي موقف خامس يُبدع شيئًا جديدًا، إنه مقدام متحرك، صانع للفرص، يؤمن بالسير في طليعة الركب، كما يؤمن بتجاوز المتخاذلين والكسالى والمتشككين والخائفين والنائمين، وشعاره الدائم: ﴿ ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ ﴾ [المائدة: ٢٣] و ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران: ١٣٣].

ح - نحن نزهد في الأعمال الصغيرة؛ لأننا نعتقد أن تأثيرها محدود، وهذا ليس بعيدًا عن الواقع، لكن من المهم للصحوة حتى تستنفر همم أبنائها، وتستثمر طاقاتهم المذخورة أن تعتمد سياسة - « المبادرات الصغيرة المتنوعة » - حيث يمكن عن طريق عشرات أو مئات المبادرات الصغيرة حل مشكلة كبرى، أو تغيير وضعية متأسنة. حين تتوفر الرؤية الجيدة للمشكلة، والمنهجية الجيدة لمعالجتها، فإن في الإمكان إطلاق الكثير من المبادرات للتعامل معها، لكن لدى الصحوة علة قديمة تتمثل في ضعف الاهتمام بتوصيف مشكلات الأمة بطريقة منهجية صبورة، كما تتمثل في اقتراح الحلول الأحادية عوضًا عن الحلول المركَّبة، والوضع الآن آخذ في التحسُّن لكنه ما زال بعيدًا عن المطلوب

١٠ - من المنافسة إلى التعاون:

يبدو أن التنافس بين الكائنات الحية سُنة من سنن اللّٰه تعالى في الخلق، وإن الناس يتنافسون؛ لأن ما هو معروض مما يلبي رغباتهم وحاجاتهم أقل مما هو مطلوب، وتكون المنافسة في العادة بين أهل الاختصاص الواحد، وبين الذين يعيشون في بيئة واحدة، ولا شك أن للمنافسة فوائد غير قليلة، منها: أنها توفِّر حوافز لتحسين الذات وتحسين المنتَج، كما أنها تضطر الناس إلى التكيف، والذي يشكل شرطًا للاستمرار، ولكن للمنافسة أيضًا أضرارها؛ حيث ثبت أنها تتصل في معظم الأحيان بانحطاط المدنية والتدني الأخلاقي، حيث يلجأ كثير من الناس في سبيل التفوق على المنافسين إلى التزوير والكذب والاحتيال، وبعضهم مستعد لتصفية منافسيه والقضاء عليهم، ولهذا شواهد لا تحصى في التاريخ والواقع، لكن الذي يصفي خصومه يجد نفسه في مواجهة تحدٍّ جديد هو (خيانة الرخاء)؛ لأن الانفراد بالساحة يجعل صاحبه يخسر المحرِّض على تحسين العمل وتجويده؛ ولهذا فإن الذي يدمِّر خصومه يدمِّر في الحقيقة نفسه لكن

بصورة مختلفة، وتحدث المنافسة المدمرة حين يعتقد بعض المتنافسين أن حصوله على الأرباح التي يريدها مرهون بخسارة الآخرين وخروجهم من ميدان المنافسة. ويبدو أن الإنسان بفطرته يندفع إلى المنافسة أولًا؛ وذلك لأنها أقرب تناولًا وإدراك منافعها أيسر، ولا يصير المتنافسون إلى التعاون إلا بعد بلوغ مرحلة من النضج والوعي، بل يمكن القول: إن إدراك آفاق التعاون بين المتنافسين يحتاج إلى اكتشاف وإبداع؛ ولهذا فإن معظم المتنافسين لا ينتقلون من المنافسة إلى التعاون مع الأسف الشديد!

إن التعاون مبدأ إسلامي عظيم وقد حثنا اللَّه تعالى على أن نتعاون على الخير، فقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

إن التعاون يشكل أولًا امتثالًا لأمر اللَّه تعالى كما أنه يوفر الفرصة لأن يشتغل الأفراد والمجموعات بما يحسنون عوضًا عن العمل في كل شيء من دون إتقان أي شيء، كما أن في التعاون منجاة من شرور المنافسة المدمرة حيث يشعر المتعاونون أنهم أصحاب مصلحة مشتركة، وأن في نجاح بعضهم نجاحًا للبعض الآخر، والتعاون بعد هذا وذاك يحرِّض الناس على تشذيب ما في أخلاقهم من زوائد، ويحرضهم على تهذيب أنفسهم وتعلُّم أدبيات العمل ضمن فريق. **إذا تأملنا في ساحات الصحوة وجدنا أن هناك أنواعًا من التنافس غير المحمود، مثل:**

- التنافس بين بعض الشخصيات الإسلامية العامة وبين بعض الجماعات.
- التنافس بين الشخصيات العامة والهيئات الإسلامية الرسمية والحكومية.
- التنافس بين الجماعات والهيئات الإسلامية الحكومية.

التنافس بين هؤلاء قد يكون على كسب قلوب الجماهير، وقد يكون على احتلال مراكز التأثير واتخاذ القرار، وقد رأينا جماعات تتنافس على إقامة نشاط في مسجد، أو إدارة مركز أو تنفيذ مشروع تبرع به أحد المحسنين أو قيادة مؤسسة إسلامية حكومية...

ما العمل؟

أنا لست ممن يغالي في موضوع التعاون إلى حدِّ الاعتقاد بوجوب تعاون الصحويين في كل صغيرة وكبيرة، لكنني مع هذا أعتقد أن من المطلوب من كل الناشطين في حقل

من الحقول أن يتعاونوا بصورة من الصور لما فيه خير الجميع، وهذا يتطلب قبل كل شيء صفاء القلوب والثقة المتبادلة، كما يتطلب أن تكون أهداف الناشطين في بيئة واحدة واضحة تمام الوضوح؛ لأنني إذا كنت أعرف ما أريد ورأيت بعض إخواني ينفِّذون فعلًا بعض أهدافي، فلماذا لا أفرح بذلك، وأشكرهم عليه؟ هذا هو المتوقع دائمًا من المخلصين.

إن من الممكن للمشتغلين بالدعوة والتربية ونشر الوعي ومن الممكن للعاملين في المؤسسات الخيرية والفِرق التطوعية.... أن يشكِّلوا مجالس شورية يحاولون من خلالها حل المشكلات التي تعترض العمل وتبادل الخبرات، وتحسين مناخ العمل وتلافي سلبيات الاحتكاك التي يولِّدها العمل في مجال واحد، وقد رأينا خيرات وبركات كثيرة لمجالس شكَّلها بعض الدعاة في بعض البلاد العربية والإسلامية. ويمكن دائمًا طرح برامج ومشروعات مشتركة مما يعود على الناس بالخير والنفع، وتكون إدارتها لأهل الاختصاص، وهذا ليس بالأمر الصعب، ونستطيع أن نتعلم من أبنائنا الطلاب كيف يمكن للمتنافسين أن يتعاونوا؛ حيث نجد الكثير من طلاب المدارس يدرسون في صف واحد ومع هذا يشكلون مجموعة دراسية واحدة، يرتقي ويستفيد من خلالها الجميع مع أن كل واحد منهم يتطلع إلى أن يكون في الطليعة، ونجد في طلاب الجامعات أيضًا من ينفذون مشروعات علمية مشتركة

إن التعاون بين المتنافسين هو ثمرة للنضج، وحين يتمُّ، فإنه يؤدي إلى المزيد من النضج، وإن الجماهير في حاجة ماسَّة إلى أن يروا علماءهم ودعاتهم ومصلحيهم وهم يتحركون وينشطون وهم على قلب رجلٍ واحد. إذا نظرنا إلى الفرقة والتشتت والتنازع على أنها تحديات حقيقية وعلامات على الضعف والإخفاق، فإننا سوف نعرف كيف نتجاوزها إلى التنسيق والتعاون والتشاور.

وبعد: فلا شك أن هناك تحديات أخرى تواجهها الصحوة في كل مكان، وربما عرضت لبعضها أثناء تناول ما تبقى من موضوعات هذا الكتاب، أو من خلال أعمال أخرى قادمة بحول اللَّه وطَوْله.

* * *
* *
*



الصحوة:
وأسئلة النهضة

لو عدنا بذاكرتنا إلى بداية السبعينيات من القرن الميلادي المنصرم لوجدنا أن الأمة - على نحو عام - كانت تنظر إلى الصحوة الإسلامية على أنها تشكل بداية لنهضة جديدة طال انتظارها، وقد كان الشعور بالاعتزاز بأخلاقيات الشباب المسلم وإنجازاته قويًّا وواضحًا لدى معظم الناس، واليوم يُطلب من الصحوة أن تحدد أفكارها وأدواتها في معالجة مسألة النهضة والتقدم الحضاري، فهل في هذا تناقض، أو شيءٌ يوحي بالانكسار؟

لا أعتقد ذلك، فأنا أنظر إلى الصحوة على أنها فعلًا جزء من نهضة جديدة؛ وذلك لأن النهضة تتطلب العودة إلى الالتزام بالدِّين عقيدة وشريعة وأخلاقًا، كما تتطلب التقدم في البناء والعمران، وقد أسَّست الصحوة المباركة للشق الأول؛ ولهذا فإني لا أرتاح للسؤال المحبط: (من أين نبدأ؟) فنحن لسنا على أعتاب بداية، وإنما على أعتاب تجديد وتحفيز على عمل أوسع وأهم، والسؤال المنطقي هو: على أي شيء ينبغي أن نركِّز في المرحلة القادمة؟

جرت العادة أن نؤرخ للفكر الإسلامي الحديث بانطلاق السؤال/ الهاجس: لماذا تقدم الغرب وتأخرنا؟ هذا السؤال الذي أثاره غزو نابليون لمصر عام (١٧٩٨م) حيث بدا للعيان الفارق الحضاري الضخم بين أوربا والعالم الإسلامي، ومنذ ذلك اليوم والكتابات تتوالى حول تشخيص الحالة الحضارية للأمة وحول الوقوف على أسبابها ومعرفة كيفية علاجها، ولا أبالغ إذا قلت: إن ما كُتب في ذلك لا يُعد بالآلاف، وإنما بمئات الآلاف أو الملايين من الصفحات، ولو نظرتَ في مسامراتنا الثقافية لوجدت أن أكثر ما يسيطر عليها هو مسألة التخلف والتقدم؛ حيث يصعب تفادي الحديث عن المعايير التي أرساها العالم الغربي في ذلك من خلال بحوثه ودراساته، ومن خلال تطبيقاته وإنجازاته؛ ولهذا فإني سأتناول هذا الموضوع بحذر شديد حتى لا أغرق وأُغرِق القارئ معي في تفاصيل تبعدنا عن الوصول إلى شيء واضح ومحدد أكثر مما تقربنا إليه، ومن هنا فإني سأحاول الحديث عن بعض الأسس والمنطلقات والمؤشرات التي تساعد

في ترشيد جهود الصحوة في نهضة الأمة مع الاعتراف بأن ما أقوله ليس أكثر من محاولة لاجتراح موضوع هو في منتهى الأهمية، كما أن ما نقوله قد لا يكون هو بغيةَ الصحويين في كل أنحاء العالم الإسلامي المتنوع في أحواله وظروفه:

١ - أهداف الصحوة هي مسوِّغ استمرارها:

يرى بعض الباحثين أن الصحوة كانت عبارة عن حالة، وينبغي أن لا تستمر، لتصير الأمة إلى اليقظة والنهضة والحضارة، وفي اعتقادي أن استمرار الصحوة - بوصفها تيارًا يحمل هموم الأمة، ويبذل في سبيل رفعتها - يظل مهمًّا، وهذا التيار هو الذي يصنع اليقظة ويسهم في قيادة الأمة نحو بلوغ أهدافها الكبرى، وهكذا فإن استحقاق الصحوة للبقاء والاستمرار مرتهَن للدور الذي تؤديه في النهضة، وهذا ليس خاصًّا في الحقيقة بالصحوة، بل إنه ينطبق على جميع الحركات والتيارات الثقافية والإصلاحية.

إن للناس - بوصفهم مسلمين أصحاب عقيدة وبوصفهم بشرًا من لحم ودم - قيمًا وحاجات وتطلعات وأشواقًا تحتاج إلى تحقيق وترسيخ وتلبية، وإن كل اقتراب منها يشكل فعلًا نهضة؛ إذ إن النهضة عبارة عن حراك ينتقل به الناس من حال إلى حال ومن وضع إلى وضع في اتجاه ما يحلمون به ويحتاجون إليه. وإن في إمكاننا القول: إن الاختلاف في تحديد تلك القيم والحاجات وتوضيح سُلم أولوياتها والاختلاف في كيفية معالجتها... هو الذي أدى إلى انقسام الوعي الإسلامي النهضوي على مستوى الأمة وعلى مستوى التيارات والجماعات، وقد صوَّر ذلك على نحو جيد عبدُ الرحمن الكواكبي (ت ١٣٢٠هـ) في كتابه (أم القرى)، إذن الجواب على سؤال النهضة هو الذي سيحرِّضنا دائمًا على التفكير والبحث، وهو نفسه أيضًا الذي سيشتت مواقفنا، وينوِّع اجتهاداتنا، ولا يُتوقَّع حدوث أي شيء يبدِّل هذه الوضعية.

٢ - قصور حلول الماضي:

نحن أمة ذات تراث ضخم وتاريخ عريق ومديد؛ ولهذا فإن للعودة إلى الماضي بُعدًا رمزيًّا، وفائدة عملية، كما أن تطوير المنظومة الفقهية يتطلب العودة إلى فهم حيثيات وملابسات بناء ذلك الصرح العظيم، بالإضافة إلى أن علينا أن نعود إلى الماضي كي نتعرف على جذور كثير من مشكلاتنا المعاصرة، وقد أمرنا اللَّه تعالى بالسير في الأرض والذي يعني سيرًا في الزمان وسيرًا في المكان، فقال سبحانه: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ

فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، لكن يجب مع إدراكنا لأهمية الرجوع إلى الماضي أن ندرك أيضًا أن الحلول التي اتبعها السابقون في علاج مشكلاتهم لا تكفي لعلاج مشكلاتنا، فالتقدم الحضاري الحاصل الآن أوجد فرصًا وتحديات وإمكانات وتعقيدات أوسع بكثير مما كان سائدًا قبل ثلاثة أو خمسة قرون.

وقد حدثنا القرآن الكريم عن خطة الإنقاذ التي وضعها يوسف ﷺ من أجل تجاوز السنين العجاف، والتي نجحت نجاحًا باهرًا آنذاك، هذه الخطة لا تكفي اليوم لحل مشكلة التصحر أو شح الغذاء في أفريقيا - مثلًا - بسبب اختلاف الوضع الحضاري، اختلافًا واسعًا، والقاعدة التي نسترشد بها في هذا عبارة عن سُنة من سنن اللّٰه تعالى في الخلق، وتلك السنَّة تقول: « لا تتسع مرحلة سابقة لمرحلة لاحقة » أي على مستوى الأفكار والمبادرات والأساليب والأدوات، فهذه لا بد أن تكون معاصرة وحديثة جدًّا؛ ولهذا فإننا سنستفيد من خبرات زماننا في بناء الحضارة أضعاف ما نستفيده من قراءة تاريخ أجدادنا، وتظل المبادئ الكبرى محتفظة بصلاحيتها؛ لأنها تشكل مرجعيات وأطرًا ثابتة وخالدة.

بعض الصحويين له تعلق شديد بالماضي، ولـِمَ لا وأمجادنا تاريخية بامتياز؛ ولهذا فإنهم لا يملُّون من ترديد الاستنجاد ببعض القادة العظام كي يُصلحوا ما نحن فيه، ويصاحب هذا مقتٌ شديد وتحقير لإنجازات الغرب، مما يجعلهم في واقع الأمر معلَّقين بين ماضٍ لا يستطيعون استحضاره وواقع لا يرغبون فيه، وما درى أولئك أن عظماء كل الأمم الغابرة لو بُعثوا في زماننا لما استطاعوا أن يفعلوا من خلال استخدام إمكانات زمانهم وأدواته إلا القليل، ولاقتضت منهم عظمتهم أن يكونوا معاصرين بما تحمله هذه الكلمة من معنى.

٣ - النهضة للناس وبالناس:

سؤال النهضة ليس سؤالًا جامدًا يُصاغ في مرحلة من المراحل، ثم يكون على الناس أن يجيبوا عليه عبر قرون متتابعة، إنه سؤال متحرك يأخذ في كل حقبة وكل مكان صيغة مباينة، والسؤال الصحيح هو الذي يضعه الناس من أفق قيمهم وحاجاتهم، ووفق شروط المرحلة التي يعيشون فيها، فإذا كانت البلاد ترزح تحت نير استعمار بغيض، فإن سؤال

النهضة يتمحور آنذاك حول الخلاص من المستعمر وتحرير الإرادة الوطنية، وإذا كان الناس يشعرون بالظلم وعدم تكافؤ الفرص، فإن السؤال الذي يريدون إجابة عملية عليه يتعلق آنذاك بتحقيق العدل والمساواة، وإذا كان في البلاد أزمة اقتصادية خانقة وبطالة محبطة، فإن تحسين وضع الاقتصاد يصبح هو محور السؤال النهضوي، وإذا كان الناس يشعرون بالكبت وتقييد الحريات، فإن النهضة تتكثف في شعورهم بالحرية، وهكذا... الشيء الذي كثيرًا ما نخطئ فيه هو أننا نجتمع وننظِّر، ونصدر القرارات والتوصيات بعيدًا عن هموم الناس وحاجاتهم، وتكون النتيجة أن يَظهر الذين نخطط لإسعادهم بمظهر غير المكترث بكل ما يقال، وبما أن الناس هم الذين سينهضون، ويغيرون في أخلاقهم وعاداتهم، فإن الحاصل هو الكثير من الكلام والقليل من التغيير والتحسين!

إن الناس يحددون كثيرًا مما يريدونه من خلال ما يرونه لدى الأمم المعاصرة لهم، ويحددون مطالبهم النهضوية من أفق تلك المعرفة، وقد ثبت أن وعي الناس إذا انفتح على شيء جديد، فيه متعة أو مصلحة شخصية، فإن وعظهم بأن ذلك منافٍ لخصوصيتنا الثقافية قليلُ التأثير؛ ولهذا فإننا نشهد مع كل أفق جديد للمتعة ابتلاءات جديدة يخفق في النجاح فيها معظم الناس، وليس لهذه الوضعية أي حلٍّ سوى توفير البدائل الشرعية على قدر الإمكان وتلطيف الآثار السلبية المتوقعة

٤ - القوى المعنوية هي محور الرهان:

إن المتأمل في تاريخ نهوض الأمم يجد أن العنصر الروحي والمعنوي يكون هو الأقوى في بدايات الانطلاق، وإن من طبيعة الانطلاق لأي حضارة أو نهضة ضخمة الاحتياجَ إلى رفود روحي هائل من أجل تأسيس سلوكيات وأعراف جديدة، ومن أجل التغلب على القوى المضادة، ولو أننا تأمَّلنا في حال الصحابة - رضوان اللّه عليهم - لوجدنا أنهم كانوا يمتلكون طاقة روحية هائلة، مكَّنتهم من تحمل الأذى في مكة، ثم التخلي عن ديارهم والهجرة في سبيل اللّه تعالى، وفي المدينة أبدوا من فنون التضحية والإيثار ما خلَّده التاريخ... وقد كان مالك بن نبي - رحمه اللّه - يرى أن كل الحضارات تمر بثلاث مراحل: مرحلة تسيطر فيها « الروح » وهي مرحلة النشأة والبداية، ثم تأتي مرحلة يسيطر فيها العقل والمنطق والحكمة، وبعد ذلك تأتي مرحلة ما قبل السقوط، وهي المرحلة التي تسيطر فيها الغرائز، وهكذا فإن النهوض المرتقب يتطلب إنجازات

روحية وأخلاقية ضخمة، يقوم بها أصحابها بحماسة شديدة بعيدًا عن الحسابات والمنافع الشخصية.

السؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن أن يتم هذا وعصرنا هو عصر طغيان الغرائز والشهوات وعصر التبرير والاحتجاج لكثير من الفظائع والموبقات؟

لا شك أن المهمة شاقة، وأنها تشكِّل نوعًا من السباحة ضد التيار، ولكن ساحات الممكن تظل مفتوحة، وأعتقد أن على الصحوة أن تستعيد ما فقدته من الاهتمام بتزكية النفوس وتطهير القلوب والعمل على نشر ثقافة الإخلاص والصدق والأمانة والتضحية والإيثار والعطاء المجاني، وتحتاج الصحوة مع هذا وقبله أن تقدم لذلك نماذج عملية تتجسد في سلوك أبنائها والمحسوبين عليها، فالناس اليوم ينظرون إلى ما نتحدث عنه على أنه ضرب من المثالية، والنموذج هو الذي يجعل الطرح الثقافي يبدو واقعيًّا وممكنًا

إن لكل حضارة رؤية كونية تنظر من خلالها إلى العالم، وإن رؤيتنا الكونية تتمحور حول التوحيد والإيمان باليوم الآخر والعبودية للّٰه تعالى، ونفع العباد وإشاعة الخير والعدل، ومن المهم أن نطلق من المبادرات والمشروعات والبرامج ما يعزِّز هذه المعاني في الحياة العامة، ولا بد معها من العمل الجاد والدؤوب على إيجاد النظم والتشريعات التي تساعد على توفير بيئة تشجِّع الناس على تمثل هذه القيم العظيمة في السلوك اليومي.

٥ - عصر القوة الناعمة:

لكل عصر روحه ومنطقه وأدواته وصراعاته، والنهوض يتطلب دائمًا نوعًا من الانسجام مع كل ذلك. في الماضي لم تكن كلمة «نصر» تعني شيئًا غير الغلبة المسلَّحة على الأعداء، وحين يدعو أئمة المساجد اليوم للمسلمين بالنصر على الأعداء، فإن أكثر ما يخطر في بال المصلين هو النصر العسكري، وأعتقد أن فئة قليلة جدًّا من شباب المسلمين يفهمون من (النصر على الأعداء) النصر التربوي أو الأخلاقي أو الاقتصادي أو التقني... وهذا لأن الناس ما زالوا مشدودين إلى معارك وانتصارات الماضي. هذا الزمان مختلف عن الأزمنة السابقة في كل شيء، ولا سيما صراعاته وانتصاراته، ومع التسليم بأنه يظل للقوة المسلحة دورٌ ما لكنه دور وقائي أكثر من أن يكون عمليًّا، وهذا الدور لا يزداد في نظري اتساعًا، وإنما يمضي في اتجاه الانحسار، ولنا أن نقارن بين انتصارات العولمة وبين مآزق أمريكا

من خلال محاولات تمددهما في العالم؛ حيث إن أمريكا تنفق أموالًا هائلة جدًّا على القوة الصلبة، ومع ذلك لا تستطيع أن تقول: إنها حسمت أي معركة عسكرية لصالحها، على حين أن العولمة تستخدم القوة الناعمة أو الذكية، التي تعتمد على الجاذبية والإغراء، وليس على الترغيب والترهيب، ومع هذا فإنها تخترق العالم، وتحدث تأثيرات سياسية وثقافية واقتصادية تستعصي على العدِّ والحصر

إن من طبيعة النصر الذي نحصل عليه من وراء استخدام القوة القاسية الوضوح والسرعة، أما النصر الثقافي الذي يحدث عند الاستخدام الجيد للقوة الناعمة، فإنه كثيرًا ما يكون غامضًا، وهو على كل حال بطيء، وهذا بالضبط ما يجعل الوعي الإنساني يتعلق باستخدام القوة الصلبة

أ - ما القوة الناعمة؟

هي ما يتمتع به شخص أو جماعة أو دولة... من قوة قيمية ثقافية، وما يملكه من نماذج حضارية تُغري الآخرين بتقليده والانجذاب إليه، ومن الواضح أن الإسلام انتشر عالميًّا بسبب ما لديه من قوة روحية وأخلاقية ومنطقية، وإن المرء ليعجب من أن الإسلام بسط سلطانه على الجزيرة العربية - والتي تزيد مساحتها على مساحة أوربا - في زمان النبي ﷺ بعدد رمزي جدًّا من القتلى قد لا يتجاوز أربعمائة رجل من المسلمين وألفًا ومئتين من المشركين، كما أن الإسلام دخل الكثير من البلدان بسبب جاذبيته الذاتية، وما زال إلى اليوم أكثرَ الأديان انتشارًا في العالم على الرغم من حملات التشويه المسعورة التي تشنها عليه وسائل الإعلام العالمية!

ب - الصحوة والقوة الناعمة:

أعتقد أن على الصحوة استخدام القوة الناعمة على مستويين: المستوى الداخلي ومستوى الأمة، فهي مطالبة أن تثقف أبناءها بالأفكار والأخلاق التي تكوِّن القوة الناعمة، وذلك حتى يقوموا من جهتهم بنشرها بين جميع فئات المجتمع المسلم.

تتجلى القوة الناعمة في أسلوب تأثير قيادات الصحوة في أبنائها، كما تتجلى في أساليب الحكومات في إقناع الجماهير بخططها ومشروعاتها الإصلاحية، بل إنها تتجلى في أسلوب تعامل الدولة مع الدول الأخرى، وهناك تقارير عديدة تتحدث اليوم عن تنامي تأثير القوة الناعمة لعدد من الدول مثل تركيا والصين وإيران.

ج - مفردات القوة الناعمة:

مفردات القوة الناعمة تتصل بالطبيعة والحاجات الإنسانية، وتتصل كذلك بالقيم النبيلة، كما تتصل بالتفوق والنجاح والمعاصرة، وهي في الحقيقة كثيرة، **لعل من أهمها:**

- الإحسان وخدمة الآخرين وتقديم النصح لهم.
- العفو والتسامح وسعة الصدر مع المخالفين.
- التخلص من أعباء الخلافات التاريخية على مستوى العقائد والمذاهب والتركيز على الواقع.
- تقديم نماذج حضارية ناجحة في القيادة والاقتصاد والاجتماع والتصنيع...
- إدارة الخلافات بأريحية، وبأقل قدر ممكن من العنف.
- الانفتاح على النماذج الحضارية المعاصرة، وإنصاف المخالفين، والقدرة على اقتباس الأشياء الجيدة منهم.
- تحقيق قدر ملائم من الرفاهية والرخاء على المستوى الشعبي.
- توسيع مساحة الحركة أمام الناس وتخفيف القيود وإزالة العراقيل إلى أقصى حدٍّ ممكن.
- بلورة القواسم المشتركة التي تشكل أرضية ثقافية يقف عليها الجميع.
- غض الطرف عن التلوينات العرقية والثقافية، والتعامل معها بأفق رحب.
- المهارة في تأسيس الأولويات المشتركة داخل الصحوة وعلى المستوى الشعبي العام، وتوفير إجماع عليها.

إن بناء القوة الناعمة يحتاج إلى وقت؛ لأنه يتوقف على تغيير الكثير من الأفكار والأعراف والسلوكيات، ويحتاج - بجانب هذا - إلى تغيير بعض القوانين والتشريعات، ومع ضخامة تكاليف ذلك إلا أنه ليس هناك اليوم أي خيار آخر، بعد أن شارف تأثير القوة الخشنة على الزوال.

٦ - العناية بالطفولة:

نستطيع القول: إن النبي ﷺ هو الـذي أسس للاهتمام بالطفل، وإن نظرة عجلى على النصوص والأحكام الواردة في ذلك تؤكد هذا، كما أن عطفه ﷺ على الأطفال

يقدِّم نموذجًا يُحتذى في كل العصور، وأعتقد أن الاهتمام بالطفل يشكِّل مقياسًا حضاريًّا واضحًا، فالأمم المتقدمة أوجدت الكثير من التشريعات والمؤسسات التي تساعد على تنشئة الأطفال تنشئة صحيحة، والتي تعمل على حماية الأطفال من الإساءة والاستغلال، أما الدول المتخلفة، فإن الأسر هي التي تتولى أمر أبنائها، وإذا كان الأبوان سيئين أو غير مؤهلين لتربية الصغار، فإن من المتوقع أن يلاقوا الكثير من العناء والإهمال، ونحن نحمد اللَّه تعالى أن التماسك الأسري لدينا ما زال أفضل مما لدى العديد من الأمم، لكننا نعيش في زمان مختلف عن الأزمنة السابقة؛ حيث صار المطلوب لإعداد الأطفال للحياة أكبرَ بكثير مما كان مطلوبًا في السابق، كما أن المخاطر باتت تحدق بالأطفال في داخل البيوت وخارجها.

وأعتقد أن في إمكان الصحوة أن تسهم في نهضة الأمة على نحو مميز جدًّا من خلال تكثيف جهودها في مجالات العناية بالطفل، فالصحويون متمرسون في الدعوة، ولهم حضور قوي في المجال التعليمي بمراحله المختلفة، وقد أبلوا بلاءً حسنًا في توجيه المراهقين والشباب، وأنجزوا إنجازات ليست بالقليلة، لكنهم لم يبذلوا في مجال الاهتمام بالطفولة من الجهد ما يكافئ، أو يقارب ما بذلوه في العناية بالمراهقين والشباب. أنا أعرف أن الارتقاء بالطفل المسلم يحتاج إلى تضافر جهود ثلاث جهات أساسية: الحكومات والأسر والمؤسسات التطوعية والخيرية، لكن بما أن هذا الكتاب يخاطب أبناء الصحوة، فإني سأقصر كلامي على ما يمكن أن يقوموا به، وذلك عبر المفردات التالية:

أ - التوسع في إنشاء رياض الأطفال:

السنوات الست الأولى هي السنوات الحاسمة في حياة الإنسان، ففيها تُرسم الخطوط العميقة في شخصيته، والسنة الثانية من عمره ولادة ثانية له؛ ولهذا فإن من المهم أن يكون لدينا عدد كبير من رياض الأطفال ذات المستوى الرفيع في عنايتها بالصغار وفي تجهيزاتها وتأهيل القائمات عليها، وكنت، وما زلت، أدعو إلى تكثيف الاستثمار في إنشاء رياض الأطفال على أن يكون الهدف الأول هو التربية والتوجيه وتأسيس شخصيات الأطفال، وليس الربح، وأتمنى أن نتمكن من إيجاد الألوف من رياض الأطفال اللاربحية حتى نُبعِد شبح المتاجرة عن هذا المجال السامي والعظيم. في فلسطين المحتلة أدركت الحكومات الإسرائيلية منذ وقت مبكر أن معظم الأسر اليهودية ليست مؤهلة لتربية

الأطفال تربية تلمودية، فعمدت إلى إنشاء عدد هائل من رياض الأطفال الحكومية، حتى تقوم بالمهمة، وأعتقد أننا نعاني من عين المشكلة؛ فمعظم الأسر لدينا لا تملك ثقافة تربوية جيدة، وكثير منها لا يقدم لأطفاله النموذج السلوكي المطلوب.

ب - نشر ثقافة توجيه الطفل:

يظن كثير من الناس أن تربية الأطفال وتوجيههم من الأمور التي يتعلمها الإنسان من محيطه وبيئته؛ ولهذا فإن المربي لا يحتاج إلى أن يقرأ كتابًا أو ينال شهادة، أو يحضر دورة، وهذا من الأخطاء الشائعة؛ حيث إن لكل زمان أولوياته التربوية، كما أن لأهله اتجاهاتهم وتطلعاتهم، ويتطلب التأثير فيهم فهمَ كل ذلك والتعامل معه بشكل جيد.

أظن أن على الصحويين أن يهتموا في مسألة نشر ثقافة توجيه الطفل بأمرين أساسيين:

الأول: تبسيط الثقافة التربوية ونشرها، وذلك من خلال تأليف ونشر الكثير من الكتيبات التي تجمع بين عمق المعنى ووثاقته من جهة، وبين بساطة الأسلوب وجاذبيته من جهة أخرى، **وأعتقد أنه يمكن للقنوات التلفازية المتخصصة في شؤون الأسرة والطفولة أن تقدم خدمة عظيمة في هذا الشأن، والصحوة مقصرة تقصيرًا واضحًا في استخدام (الدراما) في الدعوة والتربية والتثقيف، وهي تعاني معاناة شديدة من نقص الكوادر الفنية المؤهَّلة في مجال الإعلام، ومنه إعلام الطفل والإعلام التربوي، وقد طرأ تحسُّن واضح في هذا في السنوات الأخيرة، لكن ما زالت الفجوة بين ما نريد وبين ما هو قائم كبيرة.**

الثاني: تدريب أعداد كبيرة من الشباب على التطوع في مجال توجيه الأطفال والمراهقين؛ حيث إن كثيرًا من هؤلاء لا يلقون التوجيه والرعاية الفكرية والنفسية من أسرهم، وهم يشكِّلون أيضًا عبئًا عليها حيث نجد حيرة شديدة لدى الأهالي في توجيه أبنائهم المراهقين وحل مشكلاتهم...

التدريب ينبغي أن يشتمل على شرح شيء من الأساليب التربوية الناجحة وشيء من المعرفة بالمشكلات الأساسية التي يعاني منها الأطفال والمراهقون، وشرح شيء عن (علم نفس الطفولة والمراهقة)، ويحتاج الشباب إلى جانب ذلك أن يكونوا على دراية بمسائل تتعلق بتوجيه الأطفال والمراهقين من نحو: النجاح، التكيف، كبح جماح الذات وغيرها...

ج - فرحة الطفل:

إذا كانت المعرفة خبز الدماغ، فإن المرح هو قوت الروح، وإن شعور الطفل بالارتياح وتمتعه بمباهج الأفراح ذو تأثير مهم في صحته النفسية وشعوره بخيرية الناس وجمال الحياة، وأعتقد أن لدينا الكثير من الوسائل التي تمكننا من إدخال السرور على الصغار. الجميل في الأمر أن فرح الأطفال يسير التكاليف؛ حيث إن حبة سكاكر كافية لحصول ذلك، والأطفال لا ينسون أبدًا أولئك الذين كانوا يوزعون عليهم الحلوى بمناسبة وغير مناسبة.

وأنا هنا أود أن أقترح مشروعًا صغيرًا لإدخال السرور على الأطفال، هذا المشروع يقوم على أن تقوم بعض الجمعيات الخيرية بفتح قسم لديها اسمه (فرحة الطفل) حيث تعمد الجمعية إلى استقبال كل ما يتعلق بالأطفال من ثياب وكتب وقصص وحكايات وألعاب وغير ذلك، وتقوم بتجديده وتهيئته حتى يستمتع وينتفع به طفل فقير لا يجد أهله المال لتأمينه له، ونحن نعرف أن الاحتفال بالنجاح وذكريات الميلاد، وكثير من المناسبات السارة قد تضاعف مرات عديدة خلال السنوات الماضية، وهذا جعل الطفل الثري يتلقى عشرات الهدايا والألعاب التي يمل منها بسرعة، وهي ما زالت جديدة وصالحة لانتفاع طفل آخر. وقد تستقبل الجمعية المال لشراء الألعاب والأشياء المناسبة للأطفال الفقراء. إن مشروعًا كهذا ينمي الشعور بالسعادة لدى الصغار، وينمي لديهم مشاعر التضامن الاجتماعي ومشاعر العطاء والتبرع

د - حماية الأطفال من مخاطر الإنترنت:

كنا في الماضي نخاف على الأطفال إذا خرجوا من المنزل، أما اليوم فإننا نخاف عليهم وهم في المنزل؛ لأن أدوات التقنية الحديثة نقلت إليهم كثيرًا من المخاطر التي لا يرونها في أي شارع من شوارعنا، إنه الانفتاح الهائل على كل شيء، بل إن الطفل بات عُرضة لأذى شبكات منظمة تسعى إلى المتاجرة بالأطفال وإيقاعهم في المخدرات والرذيلة... لا أريد أن أطيل في هذا لكن أود أن أشير إلى أن من المؤسف أن معظم الآباء والأمهات لا يدركون حجم المخاطر والمشكلات التي يتعرض لها أبناؤهم من وراء استخدام الهواتف النقالة والدخول على شبكة الإنترنت

وقد قامت إحدى الباحثات بإجراء دراسة حول دخول الأطفال على الإنترنت من

غرف نومهم، حيث أفاد (٧٩٪) من الأطفال الـ (١١٥١) الذين شملتهم الدراسة بأنهم يستخدمون الإنترنت دون الخضوع لأي رقابة، وأفاد ثلث الأطفال بأنهم لم يتلقوا أي دروس في المدرسة لتوعيتهم بكيفية استخدام الإنترنت بالرغم من أن معظمهم يستخدمونه في كتابة واجباتهم المدرسية. إن هذه الأرقام لا تصدُق على كل البيئات، لكنها تؤشر إلى وجود مخاطر كبيرة يجب التنبُّه إليها؛ لأن على « الإنترنت » مئات الألوف من الصيادين الذين يبحثون عن الأولاد والبنات المغفَّلين والذين غفل عنهم أهلهم حتى يدمِّروا حياتهم الأخلاقية، وعلى « النت » عشرات الملايين من المواقع الإباحية، وأكثر من ملياري صورة جنسية، ومع كل هذا فإن كل الناس سيجدون أنفسهم مطالبين بوجود الإنترنت في بيوتهم من أجل دراسة الأولاد وتسيير الحياة اليومية؛ حيث إن كثيرًا من المعاملات في المستقبل لن يكون من الممكن إنجازه إلا عن طريق (الإنترنت)!

السؤال الذي يطرح نفسه هو: ما الذي على الصحوة أن تقدمه للناس على هذا الصعيد:

أعتقد أن علينا أن نبذل جهودًا كبيرة في مجالين أساسيين:

الأول: استصدار قوانين تقضي بتصفية الشبكات المحلية من الصور والمواقع الإباحية، والتدقيق أكثر في المحتوى الذي يتم تبادله عبر الشبكة العنكبوتية.

الثاني: تعليم الآباء والأمهات القواعد التي ينبغي أن يتبعوها في إرشاد أبنائهم إلى الاستخدام الأمثل لأجهزة الاتصالات وإرشادهم إلى طرق حمايتهم من مخاطر (الإنترنت). وإن التقدم التقني الذي يحدث كل يوم في مجال التقنية يجعل السيطرة على الأشياء السيئة تضعف يومًا بعد يوم، ومع هذا فإن الاستسلام للموجات الإباحية المتصاعدة يشكل هزيمة أخلاقية منكرة!

هـ - رعاية مديدة:

في الماضي كان الهاجس الذي يسيطر على كثير من الآباء هو تمكن أبنائهم من مساعدتهم في أعمالهم الزراعية والتجارية والمهنية، وكانت هناك رغبة جامحة في أن يكون ذلك في أبكر وقت ممكن من عمر الطفل، وكان الناس يفاخرون بذلك، وربما كانوا محقين في هذا؛ حيث إنه لم يكن للتعليم صلة ذات شأن بكسب الرزق، أما اليوم فقد تغيَّر ذلك على نحو جذري، لكن رؤية كثير من الآباء لم تتغير؛ ولهذا فإنهم يسيئون

إلى أبنائهم إساءات بالغة، وإني أستطيع أن أقول وأنا واثق: إن إخراج طفل من المدرسة قبل إنهاء المرحلة المتوسطة والثانوية يعادل في ضرره - إن لم يزد - قطع يده أو بتر ساقه!؛ وذلك لأن تعقد الحياة المعاصرة صار يتطلب منا أن نربي الأبناء وننفق على تعليمهم حتى سِن متأخرة، قد تصل إلى الثامنة والعشرين أو الثلاثين؛ ولهذا فإن من مقاييس تحضر أي أمة من الأمم كثرة الفرص المتاحة لتعليم وتدريب أطفالها أطول فترة ممكنة، فالأعمال والمهمات الجليلة والمثمرة تتطلب استعدادًا علميًّا ومهاريًّا عاليًا، والفارق بين ما كان مطلوبًا من ذلك في الماضي، وبين ما هو مطلوب منه اليوم يشبه الفارق بين ما يحتاجه من التدريب مَنْ يَوَدُّ قيادة دراجة، وما يحتاجه مَنْ يَوَدُّ قيادة طائرة (بوينغ ٧٧٧)!

المشكل في إطالة فترة تعلم أطفال الأمة يكمن في عدد من الأمور:

- عدم وعي الآباء والأمهات بمحورية التعليم والتدريب الجيدين في الوقت الحاضر.

- فقر كثير من المسلمين، وعدم تمكنهم من الإنفاق على تدريس أبنائهم في مدارس وجامعات جيدة.

- لدى كثير من الآباء عدد كبير من الأولاد، مما يضطرهم إلى إخراج بعضهم من المدرسة حتى يساعدوهم على الإنفاق على باقي الأسرة.

- ليس في معظم الدول الإسلامية مدارس وجامعات راقية تقدم ما يحتاجه الفتيات والشباب من تعليم يمكِّنهم من المنافسة في سوق العمل.

ولدينا مشكلة أخرى كبيرة جدًّا، هي انخراط أعداد كبيرة من الأطفال في سوق العمل، وهؤلاء يتكونون من أطفال لم يلتحقوا بأي مدرسة، ومن الأطفال المتسربين من المدارس، وهم يُحسبون بالملايين وليس بالألوف، ولا يخفى أن هؤلاء الأطفال يتعرضون للاستغلال الجنسي، ويقع عليهم من الضغوط وأنواع الأذى ما يفوق قدرتهم على التحمل، وجزء من هؤلاء الأطفال بنات يعملن خادمات في البيوت، مما يجعل أوضاعهن مأساوية! ومع أن كثيرًا من الدول الإسلامية تمنع من تشغيل من هم دون الخامسة عشرة، إلا أنه لا يتوفر في الغالب أي جهة تتابع تطبيق القانون وتجريم المخالفين

ما العمل؟

إن الصحوة بما هي تيار عريض في الأمة تملك الكثير من الإمكانات لجعل رعاية الأسر لأطفالها مديدة ورشيدة، **وأظن أن مما يمكن القيام به الآتي:**

١ - إنشاء عدد كافٍ من المؤسسات والبرامج والأنشطة التي تبصِّر الآباء والأمهات بأهمية الإنفاق على دراسة أبنائهم في أفضل مؤسسات تعليمية متوفرة؛ حيث إنه قد ثبت أن التعليم الجيد مكلف جدًّا اليوم، لكن التعليم الرديء أعظم كلفة، وإنما على المدى البعيد.

٢ - إنشاء مجالس وهيئات ومؤسسات لمساعدة الطلبة الموهوبين من أبناء الفقراء على تكميل دراساتهم وإنشاء الأوقاف الإسلامية لهذا الهدف النبيل.

٣ - العمل على إيجاد أكبر عدد ممكن من الجامعات اللاربحية والتي تقدم المنح للطلاب المعوزين بسخاء.

٤ - العمل على استصدار قوانين تُلزم الدولة بتوفير فرص تعليمية لجميع الأطفال حتى نهاية المرحلة الثانوية، وإصدار قوانين تحرِّم إخراج الأطفال من تعليم ما قبل الجامعة، وتحريم تشغيل الأطفال دون الخامسة عشرة، والعمل على تفعيل القوانين الموجودة في كل ما سلف.

٥ - تشكيل فرق تطوعية لمساعدة الطلاب المتعثرين في دراستهم، ولا سيما الأيتام وأبناء الفقراء؛ حيث إن لدينا ملايين الشباب من أبناء الصحوة الذين يملكون الكثير من الإمكانات لفعل الكثير من الأشياء لكنهم لا يُقدِّمون إلا القليل.

* * *
* *
*

النهضة الاقتصادية

قد يقول قائل: ما علاقة الصحوة بالنهضة الاقتصادية ونحن نعرف أن الصحويين عبارة عن أفراد أو مجموعات لا تملك توجيه دفة الاقتصاد، ولا اتخاذ قرارات كبرى في التنمية؟

هذا الكلام صحيح، لكن التاريخ يعلِّمنا أن الحكومات من غير الشعوب لا تستطيع أن تفعل الكثير، ويعلمنا كذلك أنه مهما كانت نوعية المهمة، فإن للناس دورًا ما في تنفيذها؛ وذلك لأن هناك أمورًا كثيرة لا تملك أي حكومة ما يكفي من الأدوات للقيام بها، ويكون على الجمعيات والمنظمات الشعبية والهيئات التطوعية التصدي لها. **وهذه بعض الملاحظات في هذا الشأن:**

١ - الوحشة من الحديث عن الاقتصاد:

ألاحظ أن كثيرًا من الصحويين يشعرون بشيء من الوحشة عند الحديث عن المال والاقتصاد؛ لأن ذلك قد ينافي المعنى العميق للزهد والإقبال على الآخرة، ويعني نوعًا من الجنوح إلى المادية والدنيوية، ولدى من يشعر بذلك الكثير من النصوص والأقوال التي تحذِّر من فتنة الدنيا وفتنة المال، كما أن أسلافنا من أهل العلم اختلفوا في أيهما أفضل: الغني الشاكر أم الفقير الصابر؟ دون أن يبحثوا في دور الظروف العالمية في ترجيح كفة أحدهما على الآخر.

والذي أود أن أقوله في هذه النقطة: هو أن هذه الدنيا دار ابتلاء، فصاحب المال والعلم والجاه مبتلى بما حباه اللَّه إياه، وعليه القيام بحقه، واستخدامه في مراضي اللَّه، والفقير والجاهل ومن يعيش في ظروف صعبة مبتلًى بما هو فيه، وعليه الاستجابة لأمر اللَّه تعالى وتوجيهات الشريعة الغراء لمن هم في مثل حاله؛ ولهذا فمدار الأمر ليس على الحالة، وإنما على مدى التزامنا بأمر اللَّه تعالى تجاه مفرزات الحالة التي نعيش فيها، ومن هنا يمكن القول: إنه ليس لدينا خيار نقي لا تشوبه شائبة، وإن كنا ندرك أن اليسار موصول بالبطر والأشر والقوة والمبادرة والبغي والعدوان والانغماس في الملذات والإسراف والغرق في الدنيوية، على نحو ما نجده في قوله ﷻ: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقوله: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧]. وندرك كذلك أن الفقر موصول بالمذلة والمهانة

والشعور بالانكسار والعجز والضعف، كما أنه موصول بالقنوط والشعور بانسداد الآفاق وموصول بالاحتيال والكذب والدناءة

ونحن نعرف أن الإنسان حين يستغني يفكر في العطاء ومعاونة الآخرين، وقد يلوم نفسه إذا قصَّر في ذلك، أما الفقير فإنه ينتظر المعونة من غيره ويتشوف إليها - هذا هو الغالب - ويعتب على من لم يفعل ذلك من الأقرباء والأصدقاء، وهذه المقارنة يُقصد منها تحديدًا أن ينتبه الأثرياء والفقراء إلى التحديات التي تنتظرهم بسبب أوضاعهم المادية.

الأمر الثاني الذي أود أن أشير إليه: هو أن المال يشكِّل محورًا مهمًّا في حياتنا المعاصرة، إن لم أقل هو المحور الأهم؛ وذلك لأن تحقيق النهضة على كل الأصعدة، يحتاج إلى المال: الأمن والتعليم والصناعة والدعوة ومحاربة الفقر والمرض والبطالة... كل هذه الأمور تحتاج إلى الكثير من المال، وليس أدل على محورية المال في حياتنا من أننا لو رأينا أن من الصواب تزهيد الناس في المال والاهتمام به، لوجدنا أننا في حاجة إلى المال كي ننفق على البرامج وحملات التوعية!

أنا أحيانًا أشعر بتناقض بعض الصحويين في موقفهم من المال والاقتصاد عامة؛ حيث إنهم يرون أن الأمة في حاجة إلى المزيد من النسل، وينظرون إلى الكلام عن تنظيم النسل على أنه جزء من نزعة مادية بعيدة عن التوكل على اللّٰه تعالى وجزء من مؤامرة عالمية على هذه الأمة، وهم في الوقت نفسه لا يرتاحون للحديث عن التنمية الاقتصادية وقضايا الاستثمار، وأعتقد أنهم لا يتساءلون عن كيفية توفير العلاج والتعليم والخدمات الأساسية وفرص العمل لهذه الأعداد المتدفقة بقوة، كيف يمكن توفير كل ذلك من غير وجود إنتاجية عالية واستثمارات ضخمة؟!

إن بعض الدراسات يفيد بأنك حين تريد تحقيق تنمية الناتج الوطني بنسبة (٥ ٪)، فإن عليك توفير (٣٠٪) من الناتج الحالي من أجل إدخاله في دورة استثمار جديدة، فكيف يتم ذلك إذا كانت ميزانيات معظم الحكومات الإسلامية تعاني من العجز في ميزان المدفوعات ومثقلة بالديون الخارجية والداخلية، إن لدينا أعدادًا هائلة من الشباب الذين يعملون في أعمال تافهة، يتقاضون عليها أجورًا زهيدة، ولدينا أعداد هائلة من الشباب العاطلين عن العمل، وبعضهم جالس في بيت أهله منذ سنوات دون أن يحصل على فرصة لتأمين أي دخل، وهذا يؤدي إلى انتشار العزوبة والعنوسة، ويفضي إلى انحرافات سلوكية بالجملة.

التقدم العلمي والصناعي هو الآخر في حاجة إلى المال، وإن ما تنفقه الدول العربية على البحث العلمي هو في حدود (اثنين في الألف) من الناتج القومي على أن الدول المتقدمة تنفق ما يزيد على (اثنين ونصف في المئة) من ميزانياتها، وإن ما تنفقه شركة عملاقة مثل (سوني) على البحث والتطوير يزيد ما تنفقه الدول العربية مجتمعة!

هذا كله يعني أن أمة الإسلام أحوج من غيرها إلى المال، ويعني أن النهوض بالاقتصاد أمر ملحٌّ، لا يصح التباطؤ في إنجازه

٢ - نشر ثقافة النهوض الاقتصادي:

العلم يسبق العمل، وإن كثيرًا من معاناتنا في العديد من المجالات يعود إلى ما لدى الناس من أوهام وأخطاء في الأفكار والمعتقدات، ولا يشكل المجال الاقتصادي استثناء من ذلك. وإن الصحويين في حاجة إلى أن يثقفوا أنفسهم أولًا، ثم عليهم أن ينشروا الأدبيات والمفاهيم التي تساعد الناس على تصحيح مسيرتهم في عالم الاقتصاد والإنفاق والاستثمار، والحديث عن هذا الموضوع طويل ومتشعب؛ ولهذا فإني سأتناول ما أعتقد أنه مهم جدًّا في هذا الشأن، وذلك عبر الآتي:

أ - حسن التدبير:

إن تنمية رأس المال الوطني مهمة للغاية، وذلك حتى تتمكن الحكومة والشعب من توفير الخدمات العامة، وتوفير فرص العمل للأجيال الجديدة، وهذا يحتاج إلى زيادة التصدير وخفض تكلفة الواردات، وحتى يحدث هذا فإن على الناس أن يحسِّنوا مستوى إنتاجيتهم، وأن يقتصدوا في الإنفاق، وليس المقصود بالاقتصاد هنا الشح وحرمان النفس والعيال مما يشتهونه، وإنما المقصود التوازن والتوسط على مقتضى ما نفهمه من هدي القرآن الكريم حيث قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٧]، ونهى اللّه تعالى عن التبذير، ووصف المبذرين بشرٍّ وصف حين قال: ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧]. إن المسلم مطالب بأن لا يتأخر في أداء ما أوجبه اللّه عليه من نفقة مع شيء من ترفيه نفسه وعياله حتى لا يشعروا بالبؤس والحرمان، ومطالب بأن يتجنب إنفاق ماله فيما يُغضب اللّه تعالى وهو مطالَب إلى جانب هذا وذاك بأن لا يأكل، ويشتري، ويستخدم كل ما تشتهيه نفسه؛ لأن تلبية رغبات النفس بطريقة مستمرة يقود إلى التبذير

والإسراف، وفي هذا يقول عمر ﷺ: (كفى بالمرء سرفًا أن يأكل كل ما يشتهي)

وقد ذكروا أن رجلًا مرَّ بعمر وعليه بردة، ويبدو أن تلك البردة لفتت نظر عمر، فقال له: بكم ابتعت بردتك هذه؟ قال الرجل: بستين درهمًا. قال عمر: كم مالك؟ قال: ألف درهم. فقام إليه عمر، فجعل يضربه، بالدرَّة، ويقول: رأس مالك ألف درهم وتبتاع ثوبًا بستين درهمًا !

ومسألة حسن التصرف في الموارد وحسن تدبير شؤون العيش من المسائل الراسخة في الذهنية الإسلامية، وقد ورد في بعض النصوص ما يفيد أن الاقتصاد في الإنفاق وإدارة الموارد بشكل يقظ يحلان نصف مشكلات المعيشة، ومن تلك النصوص ما روي عنه ﷺ من قوله: « الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة »[1]، وقوله: « ما عال من اقتصد » أي ما افتقر، وقوله: « لايعيل أحد على مقصد، ولا يبقى على سرف كثير ». وورد في الصحيحين أنه ﷺ نهى عن كثرة السؤال وإضاعة المال[2].

نشر ثقافة حسن التدبير تتطلب أمرين: الأول معرفة ما يجري فيه سوء التصرف بالمال، ومعرفة حجم الظاهرة، والثاني: أسباب ذلك.

وأود أن أقول: إن تصرف الإنسان بما تحت يديه من إمكانات هو جزء من نضجه الشخصي والحضاري؛ ولهذا فإن أبناء الأمم الأكثر تقدمًا يعرفون قيمة المال أكثر من غيرهم، ويعرفون كيف يتصرفون به أيضًا، وهذا فرع عن وعيهم برعاية مصالحهم الشخصية

نحن نجد أن كثيرين منا ينفقون على الولائم والشكليات الكثير من المال، وينفقون أحيانًا بإسراف من أجل تعزيز المكانة واستحقاق الزعامة لدى القبيلة أو أهل الحي، وتنفق أعداد كبيرة من العربيات والمسلمات على الثياب وأدوات الزينة أضعاف ما تنفقه المرأة الأوربية والأمريكية على ذلك، وقد كان آباؤنا يفاخرون باستخدامهم الأشياء والأدوات مددًا طويلة من الزمان، قد تصل إلى نصف قرن، أما نحن فنباهي بتجديد الأثاث والأدوات المختلفة في أقصر مدة ممكنة، وقد بلغني أن فينا من يجدد أثاث بيته مرتين في السنة، وهناك من يشتري جهاز (الجوال) بسبعين ألف دولار، ولا تسأل عما يُلقى في القمامة من طعام لم يُؤكَل، وثياب شبه جديدة، فهذا مما عمَّت به البلوى مع الأسف الشديد!

---

(١) أخرجه البيهقي.

(٢) متفق عليه بلفظ: « وكره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال وإضاعة المال ».

لماذا يحدث كل هذا؟

التخلف الحضاري - كما أشرت - سبب أساسي في هدر الأموال والنهم في الاستهلاك، ويضاف إلى هذا أن كثيرًا من الشعوب الإسلامية عانت لمدة طويلة من الفقر والبؤس، فإذا وجدوا المال الوفير بين أيديهم، أو وجدوا البنوك التي تقرضهم وتغريهم بالقرض، فإنهم يبدون استعدادًا لشراء ما لا يحتاجونه، ويبادرون إلى التعامل مع كثير من الكماليات على أنها ضروريات، أضف إلى هذا أن كثيرًا من العرب والمسلمين - ولا سيما النساء - يعانون من فراغ فكري روحي رهيب، وصلتهم بالعمل التطوعي واللاربحي شبه معدومة، وهذا يدفعهم إلى تحقيق ذواتهم وإبراز مكانتهم الاجتماعية عن طريق المباهاة بتملك الأشياء والقدرة على إتلافها، إنهم يتصرفون تمامًا كما يتصرف السجين حين لا يجد شيئًا سوى الطعام، يمارس حريته تجاهه!

ما الذي على الصحوة أن تفعله ؟

لا يملك الصحويون الصلاحية لإصدار قرارات كبرى تؤدي إلى إيجاد مُناخ اقتصادي يدفع الناس في اتجاه معين، لكن يستطيعون القيام بحملات دعوية وإعلامية واسعة النطاق من أجل ترسيخ ثقافة الاقتصاد في الإنفاق، كما يستطيعون تقديم الكثير من الدورات وتصميم الكثير من البرامج التي تساعد على ذلك[1]، ولا أريد الخوض في تفاصيل ذلك، **لكن قد يكون من المهم التنبيه إلى الآتي**:

١ - الحث على عدم الاقتراض لتجديد أثاث منزل أو سيارة أو القيام برحلة.

٢ - وضع ميزانية لمصاريف المنزل والالتزام بها.

٣ - العمل بالقاعدة الاقتصادية الجميلة: استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به.

٤ - لا تدخل أبدًا في منافسة مع أحد عند بناء بيتك أو تأثيثه أو عند شراء سيارة، وتصرف على مقدار مواردك.

٥ - تأجيل الشراء لبعض الأشياء غير الملحّة مدة شهر أو شهرين وسيلة من وسائل التوفير.

٦ - لا تضع مبلغًا طائلًا في شيء لا تستخدمه إلا نادرًا.

---

(١) مما يذكر للمستودع الخيري في المدينة المنورة القيام بحملة إعلامية كبيرة في هذا، ونأمل أن يصبح ذلك شيئًا متواصلًا وعلى نطاق أوسع.

٧ - عليك دائمًا أن تقتصد في الإنفاق لتصل رحمًا أو تتصدق على محتاج.

هذه الأفكار وغيرها كثير وكثير يمكن أن ننشرها، ونتعاون مع وسائل الإعلام على نشرها.

ب - تعميم مفاهيم الادخار:

الادخار: أن يحتفظ المرء بشيء من دخله من أجل استثماره أو تجميعه لطوارئ تطرأ عليه، أو من أجل تعليم ولد أو تزويج بنت... وإن تثقيف الناس بذلك من الأمور المهمة؛ لأن تنفيذ كثير من خططنا المستقبلية لا يتم من غير المال، والحقيقة أن لتعميم ثقافة الادخار الكثير من الفضائل، منها الاستغناء عن الناس في الجوائح والظروف الصعبة الخارجة عن الحسبان، ومنها زيادة رأس المال الوطني الذي تحتاجه البلاد من أجل إيجاد فرص عمل للأجيال الجديدة، كما أن الإنسان حين يشرع في الادخار، فإنه يضع نفسه في سياق مضاد لسياق التبذير والإنفاق الترفي الذي أضرَّ بديننا ودنيانا، وقد ورد عنه ﷺ قوله: «**رحم اللَّه امرأً اكتسب طيبًا، وأنفق قصدًا** - أي باعتدال - **وقدَّم فضلًا ليوم فقره وحاجته**»[1] إننا حين نقتصد في الإنفاق، ونتذكر ما قد نواجهه من أزمات مالية نكون قد عرفنا كيف نتحكم في مواردنا المالية عوضًا عن أن نجد أنفسنا مملوكين للمال منساقين خلف رغباتنا.

ولا بد لي قبل أن أتحدث عن بعض التفاصيل في هذا الشأن من القول: إن حديثنا عن محاربة ثقافة الاستهلاك وعن ترسيخ ثقافة الادخار، سيكون من غير معنى ما لم تتم مكافحة الفساد المالي والإداري؛ حيث إن المفسدين والمرتشين يُنفقون الأموال بسفاهة وطيش؛ لأنهم لم يتعبوا في الحصول عليها مما يؤدي إلى رفع الأسعار ونشر عادات الإنفاق الترفي، كما يؤدي إلى توسع ظاهرة (التسلق الاجتماعي) حيث يسعى كثيرون إلى تقليد المبذرين في سلوكهم المالي، ولو تأملنا في أحوال العالم من حولنا لوجدنا أن الاستهلاك المسرف مقترن بالفساد، وينتقل معه من بلد إلى بلد!

إن في إمكان الصحوة أن تثقف أبناءها بثقافة الادخار المعتدل، كما أن في إمكانها نشر هذه الثقافة بين عامة الناس، وإن لدينا الكثير من الأفكار التي تساعد على ذلك، ولعل منها الآتي:

١ -شيء جيد أن يكون عند المرء حسابان في أحد المصارف، واحد للاستخدام العام

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تهذيب الآثار.

وواحد للتوفير، وإذا كان دخل المرء منخفضًا فإنه بحسن التدبير يمكن له أن يوفر (١٠٪) من مُرتبه أو دخله، وإذا كان دخله مرتفعًا، فقد يستطيع توفير ما يصل إلى (٥٠٪) منه.

٢ - ما يوفره المرء ويدَّخره ينقسم إلى قسمين: قسم يوضع في استثمار ناجح وأمين، ويمكن أن يكون ما يُرصد لتعليم الأولاد في المستقبل جزءًا من هذا القسم، أما القسم الثاني فيكون تحت الطلب من أجل التعامل مع حالة طارئة كمناسبة كبيرة أو عملية جراحية، وما شاكل ذلك

٣ - علينا أن ندرِّب الصغار على الادخار، والطريقة التقليدية المتَّبعة هي قيام الأهل بتخصيص (حصَّالة) لكل طفل يضع فيها الفائض من نقوده، وهي طريقة جيدة، وقد يكون من تشجيع الأهل للطفل على الادخار التزامهم أمامه بإهدائه (٢٠٪) من مجموع ما يدخره.

٤ - الالتزام بميزانية شهرية للنفقات الثابتة للأسرة، ومقاومة الرغبة في شراء ما لا نحتاج إليه.

٥ - هناك تخفيضات وعروض موسمية يمكن للمرء أن يشتري منها ما يسد الكثير من احتياجاته.

٦ - في بعض الأحيان تتحكم المتاجر الكبرى بالناس، وترفع في أسعار معروضاتها، كما أن المتاجر الموجودة في أماكن راقية تبيع في العادة بأسعار أغلى من المتاجر الموجودة في أسواق وأماكن شعبية.

٧ - على المرء أن لا يجعل من شراء الأشياء وسيلة لطرد الملل والسأم، ووسيلة لتهدئة الأعصاب الثائرة؛ حيث إن هناك ما يشير إلى أن الجائعين والغاضبين وأصحاب الأحزان يشترون ما لا يحتاجون إليه

٨ - لا تكثر من الذهاب إلى السوق، واتخذ من تأخير شراء بعض الحاجات وسيلة للتوفير

إننا نأمل أن نرى اهتمامًا بالغًا بهذا الأمر من قِبَل شباب الصحوة، وذلك من خلال إلقاء المحاضرات وتنظيم الدورات وتأسيس مواقع (الإنترنت) حتى نعمم ثقافة الادخار على أوسع شريحة ممكنة، ولا سيما أن العالم يتنافس اليوم في هذا الشأن من أجل تحسين فرص العيش أمام الأجيال القادمة، وكأن عقلاء الأمم يأخذون بقوله ﷺ لسعد بن أبي

وقاص ﷺ: «**إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس**»(١).

وإنْ أَنْس فلا أنسى صورتين رأيتهما في يوم واحد: صورة لوجيه عربي يظهر فيها صحن ضخم لا يقل قطره عن ثلاثة أمتار، وقد وُضِع فيه الأرز الكثير وعدد من الذبائح، وصورة يظهر فيها رئيس لدولة غربية وقد دعا نظيرًا له إلى مطعم للوجبات السريعة! إننا نتباهي بالتكلف والإسراف ويتباهون بالبساطة والاقتصاد!

إن هناك المزيد والمزيد من النصائح، لكن علينا أن نحذر من المبالغة في الحرص على الادخار على أمل أننا سنستمتع بما ندخره في المستقبل، فهذا في الحقيقة فخ يقع فيه كثير من الناس، إن علينا أن لا نتصرف كما يتصرف بعض الحمقى حين يقضون الشطر الأول من حياتهم في اشتهاء الشطر الثاني، ويقضون الشطر الثاني في التأسف على الشطر الأول!

ج - تمويل المشروعات الصغيرة:

هذا النشاط من أكثر الأنشطة أهمية؛ لأن توسعه يعني أشياء كثيرة جميلة ورائعة: إنه يعني أننا نستطيع التخلي عن النظريات والأفكار المعقدة في التنمية الاقتصادية لنعايش الناس البسطاء الذين لا يحتاجون إلا القليل من المال حتى يتخلصوا من وطأة الفقر الأسود، كما أن تمويل الأنشطة الصغيرة يجعلنا نشعر بالحماس؛ لأننا نلمس النتائج العملية لجهودنا، وهو بعد ذلك طريق عظيم إلى تقوية الترابط الاجتماعي، وتقوية الانتماء الوطني.

يشكل تمويل المشروعات الصغيرة أداة مهمة لتحويل أعداد كبيرة من الناس، من متسولين ومتلقين للمعونة إلى أناس يقدِّمون المعونة، ويزكون ويتصدقون، ويَصِلون أرحامهم... تتلخص الفلسفة العميقة لتمويل المشروعات الصغيرة في الحكمة الصينية العظيمة: «إذا أعطيتني سمكة، فقد قدَّمت لي غداء يوم، فإذا علمتني كيف أصيد، فقد قدَّمت لي غداء كل يوم، وإذا علمتني كيف أصنع السنارة فقد فتحت لي بابًا إلى الثراء». إنه لشيء عظيم جدًّا أن نخلِّص أعدادًا كبيرة من المسلمين من الوقوع في قبضة البنوك الربوية وأكل الحرام، وشيء عظيم جدًّا، أن نوجد إطارًا يقدم من خلاله الموسرون قروضًا حسنة لإخوانهم من المسلمين؛ فيفوزوا بالأجر العظيم، ويحظوا بالبركة في أموالهم وأرزاقهم. وأعتقد أن الصحويين يستطيعون من خلال هذه الفكرة تشغيل أعداد كبيرة من الشباب في شيء يرضي اللّٰه تعالى ويعود بالنفع على العباد والبلاد.

---

(١) متفق عليه.

تجربة رائدة:

تدل شواهد كثيرة على أن من الممكن لأبواب عظيمة من الخير أن تغطَّى وتُحجَب عن أنظارنا بقشة أو قطعة من قماش، وتوضح لنا الخبرة العالمية أن شخصًا واحدًا يملك روح المبادرة وشيئًا من الشعور بالمسؤولية، يستطيع أن يزيل تلك القشة أو القطعة من القماش ليتدفق نهر من العطاء، هذا ما فعله د. محمد يونس في (بنغلادش) حين أسس بنكًا لإقراض الفقراء قروضًا صغيرة تمكِّنهم من الاستمرار في مشروعاتهم الصغيرة، وتأسيس مشروعات جديدة دون الحاجة إلى الاقتراض من المرابين الصغار الذين كانوا في كل مكان. **يتمحور مشروع الدكتور محمد يونس في تمويل مشروعات الفقراء حول عدد من المفاهيم الأساسية هي:**

١ - انتقاد مؤشرات التنمية السائدة والنظر باهتمام بالغ إلى ما يحدث من تغيرات إيجابية في حياة الناس الأشد فقرًا والذين يعيشون في قاع المجتمع؛ وذلك لأن وضعية الفئات الأضعف هي المؤشر الحقيقي إلى التقدم والتنمية الناجحة

٢ - إن القرض الحسن حق من حقوق الإنسان، وقد حُرم الفقراء منه لعدم تفعيل هذا المعنى العظيم على الصعيد الشعبي.

٣ - إن التوظيف الذاتي للفقراء، أي مساعدة الفقراء كي يساعدوا أنفسهم يعد المحرك الأساسي لعجلة التنمية في أي مجتمع، وإن إخراج الفقير من أن يكون من أصحاب اليد السفلى ليكون من أصحاب اليد العليا، التي يحبها اللَّه ورسوله هو واجب حضاري تفرضه النظرة إلى الفقير بوصفه إنسانًا كامل الأهلية.

٤ - دلت الخبرة المتراكمة للدكتور محمد يونس على أن المدخل لتحسين حال الأسرة الفقيرة يكمن في تحسين حال النساء فيها، وهذا ما دعا الرجل إلى إعادة اكتشاف الأعمال المنزلية بوصفها مصدرًا لتحسين أوضاع الفقراء

هذه التجربة العظيمة باتت اليوم منتشرة في كثير من بقاع العالم، كما هو الشأن في أمريكا والفلبين وتنزانيا وماليزيا والأردن واليمن[1].

هناك تجارب أخرى ناجحة مثل (الأسر المنتجة) ومثل (باب رزق جميل) وغيرها.

---

(١) تم استنساخ تجربة محمد يونس في اليمن من خلال تأسيس (بنك الأمل)، وقد أخبرني أحد القائمين على ذلك البنك أن التجربة نجحت نجاحًا تامًّا لأن نسبة سداد المقترضين لما اقترضوه هي (١٠٠٪)!.

قد كانت التجارة في الماضي تقوم بدور مكمِّل لما يقوم به الدعاة في نشر الإسلام، ويمكن لحركة واسعة في تدريب الشباب وتمويل المشروعات المتناهية الصغر أن تقوم بدور هائل في التخفيف من آثار البطالة وشرور الفقر المدقع، كما يمكن لها أن تساعد على تحقيق قدر جيد من الاستقرار الاجتماعي، **وأعتقد أنه يمكن لرجالات الصحوة أن يقدِّموا للفقراء المسلمين الكثير من الحلول الناجعة، وذلك من خلال الآتي:**

- السعي إلى إيجاد مجلس منتخَب يمثِّل أعضاؤه كافة الجهات التي ترعى وتمول المشروعات الصغيرة والمتناهية الصغر، وهذا يشكِّل خطوة على طريق إيجاد اتحاد إسلامي عام يجمع كل الجهات التي تسهم في تمويل مشروعات الفقراء، ومهمة هذا الاتحاد الأساسية تمكين كل أعضائه من تقاسم الخبرات والمعلومات وإجراء الدراسات التي تساعد على تطوير تمويل المشروعات الصغيرة.

- لا يكفي لنجاح مشروع تجاريٍّ ما توفير المال ووجود الرغبة في النجاح لدى القائمين عليه، بل لا بد مع هذا من توفير أفكار لمشروعات ناجحة ذات كلفة منخفضة، ولا بد أيضًا من القيام بدراسات جدوى جيدة للمشروعات التي يقترحها الفقراء، وهذا يعني أن توجد لدينا مؤسسات خيرية ليس لها من عمل سوى خدمة هذا الأمر وتقديم النصح للجهات المانحة للقروض وللأشخاص المستفيدين منها.

- يعاني كثير من الأسر المنتجة وأصحاب المشروعات الصغيرة من ضعف الخبرة في إدارة مشروعاتهم؛ حيث إن بعض المشروعات الصغيرة، قد يحتاج إلى عمال وموظفين؛ ولهذا فإننا نحتاج إلى تأسيس بعض المعاهد التي تقدِّم بعض الدورات التدريبية لمن يتولى إدارة تلك المشروعات، وأنا أومن بشدة بعبقرية الحكمة البالغة التي تقول: ليس هناك مشروع فاشل، لكن هناك إدارة فاشلة

- بيئة المشروعات الصغيرة بيئة هشة، وأوضاع معظم من يرغب في إقامتها ليست على ما يرام لا من حيث الثقافة والخبرة، ولا من حيث الانفتاح ومعرفة أحوال الأسواق؛ ولهذا فإن من المطلوب تثقيف أصحاب المشروعات الصغيرة بكيفية تسويق منتجاتهم في أسواق صعبة حيث المنافسةُ على أشدها في كثير من الأحيان، وبعض الأسر المنتجة تحتاج إلى من يقوم بتسويق منتجاتها؛ ولهذا فلا بد من وجود أجهزة تطوعية أو لاربحية للمساعدة في ذلك.

قد رأيت في بعض الدول الأفريقية أُسَرًا تعاني من صعوبة الحصول على وجبة الغداء أو العشاء، وقد أخبرني بعض المطلعين هناك أن بعض الجهات الخيرية ساعدت العديد من الأسر على إنتاج ما يكفي لمعيشة شبه كريمة، وذلك من خلال إعطاء الأسرة الواحدة مبلغًا لا يزيد على مئة دولار ثم تزويدها بالإرشادات المطلوبة لاستثمارها في عمل ناجح!

كم هو رائع أن نحمي ملايين المسلمين من مهانة الحاجة والمسألة، وندفعهم في طريق الإنجاز والإنتاج، وهذا ليس بالعسير إذا توفرت نية الاحتساب وطلب الأجر من اللَّه تعالى، وتوفر قدر من الشعور بالمسؤولية عن العناصر الضعيفة فينا

د - الاستثمار في المعرفة:

في الماضي لم تكن العلاقة بين العلم وقوة الاقتصاد والرفاهية واضحة، فقد مضى على الناس قرون كثيرة وكثير من علمائها فقراء، أما اليوم فالأمر مختلف جدًّا حيث يتشكل رأس مالي بشري جديد، قوامُه المعرفة والمهارة والقيادة والإبداع؛ ولهذا فقد بتنا نسمع مؤخرًا بكثافة عن شيء اسمه اقتصاد المعرفة، ويرى بعض الباحثين أن العالم شهد في الربع الأخير من القرن العشرين موجة أو ثورة ثالثة بعد الثورة الزراعية والثورة الصناعية، وهذه الثورة تتمثل في التجديد الهائل للعلوم وفي التقانة فائقة التطور في المجالات الإلكترونية والفيزيائية والنووية والكيميائية والبيولوجية والفضائية...

المشاركة في هذه الثورة تتطلب العمل على تحسين جودة التعليم في مراحله كافة، وهي غير ممكنة لطلاب لا يحبون الكتاب، ولا يظهرون نوعًا من الشغف بالبحث والإبداع، وهذا ما تشكو منه معظم الدول الإسلامية!

أنا أعرف أن الاستثمار في المعرفة هو في الأساس من شأن الحكومات والشركات الكبرى؛ لأنه يحتاج إلى شيئين: إرادة سياسية وأموال ضخمة، وبالتالي فإن مطالبة الصحويين بذلك تبدو وكأنها غير منطقية، لكن علينا أن نقول أيضًا: إن الحكومات لا تستطيع أن تفعل الكثير من غير مساندة شعبية، ومن غير وعي بأهمية توجهاتها، ثم إن عصرنا هو « عصرالخصخصة » بامتياز؛ حيث إن من المتوقع أن تقوم الشركات الكبرى والصغرى، وأن يقوم كثير من الناس بما كانت تقوم به الأجهزة الحكومية في المراحل السابقة.

وهذه بعض الملاحظات حول الاستثمار في المعرفة:

١ - يمثِّل الوعي، وتمثل الثقافة الأساس الراسخ لكل التحولات والإنجازات

الكبرى، ومن هنا فإن الصحويين مطالبون دائمًا وعلى كل صعيد بشيئين أساسيين؛ الأول: نشر الوعي وتزويد الناس بالثقافة المطلوبة لكل الأشياء التي يرون أن على المجتمع أن يعمل من أجلها وكل الأمور السيئة التي ينبغي عليه أن يتخلص منها، أما الثاني: فيتمثل في تقديم الصحويين لنماذج وبيانات عملية إرشادية من خلال سلوكياتهم ومن خلال برامجهم ومشروعاتهم، وهذا يعني أن علينا أن نستثمر في التعليم وفي المعرفة والتقنية على نحو ظاهر وبنجاح واضح قبل أن نحث الناس على ذلك.

٢ - **سنهضم حق العلم، ونغمط تأثيره في الحياة حين نتحدث عن العوائد المادية المرجوة من السخاء في الإنفاق على تعليم الأولاد، وعلى البحث العلمي؛ وذلك لأن التعليم يُدخل تغييرات كثيرة على شخصية الفرد، ويرتقي على نحو جذري بمكانته الاجتماعية، ويجعل المتعلم أكثر استعدادًا للتكيف مع المتغيرات الجديدة**... ولدينا الكثير من الدراسات والإحصاءات المسحية التي تدل على أن ما يُنفق في المشروعات الاقتصادية، قد يحتاج استرداده إلى نحو من خمس عشرة سنة على حين أن ما يُنفق على التعليم يتطلب استرجاعه وسطيًا عشرَ سنوات، ولدينا بعض التجارب الجميلة في هذا؛ إذ شاع لدى بعض الشعوب الإسلامية مبدأ التعاون الأسري من أجل التعليم؛ حيث إن الأب يتولى الإنفاق على تعليم الولد الأكبر، وبعد تخرجه من الجامعة وتوظفه يبدأ في مساندة أبيه في تعليم الولد الذي يليه، وبعد تخرج الثاني وتوظفه، يشرع في مساعدة والده على تعليم باقي إخوته وهكذا... وأعتقد أن الناس يحتاجون إلى شرح هذه الحقيقة، وإلى تجليتها بالكثير من النماذج والأمثلة.

٣ - أشعر بأن الناس باتوا يدركون اليوم أكثر من أي وقت مضى أن التعليم الضعيف لا يُعدُّ أبناءهم لسوق العمل بشكل كافٍ، ولهذا فإن هناك الكثير من الآباء الذين يبحثون عن مدارس ممتازة في توجيهها وتعليمها، لكنهم مع الأسف لا يظفرون إلا بالقليل مما يريدون!. التعليم الحكومي في معظم البلدان مصاب بالجمود، وعلى الرغم من كثرة الأموال التي تُنفَق عليه، فإن مخرجاته متواضعة، ولهذا أسبابه المختلفة. الاستثمار في إنشاء المدارس والجامعات هو الآخر مربح للغاية؛ حيث يشير عدد من المعطيات الاقتصادية إلى أن عائد الاستثمار في التعليم يتراوح بين (٢٥٪ - ٣٥٪) سنويًا.

ولا أريد أن أخوض في الجدل الدائر حول إيجابية التوسع في التعليم الأهلي، لكن أود

أن أقول: كم هو جميل أن تلتقي الأهداف الدعوية والتربوية للإنسان المسلم مع ما يظنه مصلحة مالية، فهذه في الحقيقة وضعية مثالية ورائعة، لكن التحدي الذي يواجهنا دائمًا هو كيف يمكن لعمل تربوي نبيل أن يحتفظ بأهدافه السامية، ويحافظ على مساره دون أن يتحول إلى عمل تجاري يُضحَّى فيه بكل شيء من أجل زيادة المكسب المادي؟

يمكن للمرء أن يتجاوز هذه العقبة الكؤود بأسلوب محدد ومفهوم، وهو الإقرار بأن لما أنشأه من مدارس ومعاهد وكليات هدفين: هدفًا إصلاحيًّا نهضويًّا وهدفًا ماديًّا، وبعد هذا يوضِّح ملامح كل هدف، ويعطي الأولوية المطلقة لتحقيق الهدف النهضوي، ولو كان المردود المادي أقل مما يتوقع.

بلاد المسلمين مملوءة بالمدارس الضعيفة وغير الجادة، وليس هناك أي مسوغ لتأسيس المزيد منها، إن الحاجة ماسَّة اليوم إلى المزيد من رياض الأطفال والمدارس والجامعات التي تقدم للأبناء رعاية فائقة مع تعليم جاد كثير الواجبات والمتطلبات، وإن لدى الصحويين الكثير من الخبرات المتراكمة في مجال التعليم، ويستطيعون من خلال الاستثمار في هذا المجال النبيل تحقيق اختراقات إصلاحية ونهضوية مهمة.

لا شك أن هناك مجالات معرفية أخرى تحتاج إلى تركيز استثماري خاص مثل مجال نظم المعلومات والبرمجيات وتقنية (النانو) وغيرها، ولن أتحدث عنها لأنني أعتقد أن توجيه الاستثمار نحوها هو من شأن الحكومات، لكن سيكون من المفيد جدًّا حث الشباب المسلم عامة على الاطلاع على النجاحات الباهرة التي حققها الأمريكيون في مجال بناء المواقع الإلكترونية؛ حيث صار رأسمال بعض محركات البحث مثل (جوجل) و (ياهو) خلال سنوات قليلة يضاهي رؤوس أموال شركات عملاقة نشأت قبل أكثر من قرن من الزمان!

المستقبل لن يكون لصالح الاستثمار في المواد الخام الآخذة في النضوب، وإنما سيكون لصالح الأفكار العظيمة والجريئة التي تحرِّض الجامعاتُ الممتازة على بعثها وتوليدها، ولهذا أعود فأقول: إن العمل على تعليم أبنائنا في مدارس وجامعات متقدمة وجادة، يشكل أولوية كبرى تشبه الأولوية في بناء المدارس والجامعات المشار إليها.

واللَّه المستعان.

* * *

النهوض بالسياسة

هذا الموضوع كثير الذيول، متعدد الوجوه، وهو موطن انقسام ونزاع بين تيارات الصحوة، كما أنه موطن خصومة وخلاف بين الصحويين وغيرهم، وإن كنت أعْتقد أن حدة النزاع آخذة في التراجع، كما أن الناس بدؤوا بالإمساك ببعض الخيوط التي تجمعهم في النهاية على صعيد واحد. **الانقسام في مسائل السلطة والسياسية وليد أمور عديدة، منها:**

أ - أن العرب في جاهليتهم لم يكونوا على خبرة بإقامة الدول، ومن كانت له خبرة، فإن خبرته محدودة جدًّا، وتصلح لإدارة دويلة صغيرة ولما بُعث رسول اللَّه ﷺ كانت قيادته للأمة قيادة خاصة، فهو نبي اللَّه المعصوم المبلِّغ عن اللَّه تعالى وهو المجتهد فيما يصلح عموم شؤون الحياة، وهو القائد العسكري الذي يقود الحملات لنشر الإسلام، كما أنه هو نفسه الذي تولى تحديد معالم العلاقات الخارجية مع الأمم الأخرى... **وهذا كله يعني أن الأمة تحتاج بعد وفاة نبيها إلى اجتهاد في كيفية توزيع السلطات التي كانت بيد النبي ﷺ كما أنها في حاجة إلى التفكير فيما تتطلبه إدارة دولة آخذة بالاتساع السريع جدًّا حتى صارت من الضخامة إلى حدٍّ يجعلها تستحق لقب (إمبراطورية) مترامية الأطراف، مما جعل توفير نظم وقوانين كافية لضبط حركة الناس فيها أمرًا في غاية الصعوبة، ولا سيما أن الإرث الحضاري للعرب في هذا ضعيف للغاية**

ب - ذكرت فيما سبق أن من حكمة الخالق -جل وعلا- ومن عظمة الشريعة الغرَّاء أن ما كان يتغير بتغير الزمان والمكان، فإن النصوص فيه تكون قليلة وشديدة العموم كما هو الشأن في العلاقات الدولية وشؤون السياسة وإدارة أمور الحياة المختلفة، وكثير مما يتعلق بالتطور العمراني والمدني، وذلك حتى تتاح مساحة واسعة للاجتهاد والاستنباط والاقتباس من الأمم الأخرى، وهذا ما حدث بالفعل. إن قلة النصوص الواردة في مسائل السياسة تجعل أبواب الخلاف مشرعة على مصراعيها حول الكثير الكثير من القضايا، وهذا ما لمسنا تجلياته عبر التاريخ، وهذا ما نراه في اجتهادات الصحويين اليوم.

ج - كانت مدة الخلافة الراشدة قصيرة؛ ولهذا فإنها لا توفِّر لنا الكثير من النماذج في إدارة الشأن السياسي، وبعد الخلافة الراشدة كان الملك العضود، وكانت الفتن والحروب الأهلية، وهذا كله لم يساعد على بلورة فقه سياسي ثري ومتنوع بما يكفي،

ومع انفتاح العالم على بعضه على نحوٍ مذهل صار للمسلمين تطلعات وهموم جديدة في مسائل السياسة، وإن من الحكمة والمصلحة معًا عدم تجاهل تلك التطلعات والهموم، ولا سيما إذا وجدنا أن لدى بعض الأمم من غير المسلمين الكثير من التجارب الناجحة في منع الاقتتال الداخلي، وفي التقليل من الفساد المالي والإداري، وفي شعور الناس بأن لهم كلمة مسموعة في اختيار من يصرِّف أمورهم

ولا بد لي من القول: إن النهوض بالسياسة يشكِّل تحديًا لأمة الإسلام عامة، وللصحوة الإسلامية خاصة؛ حيث إن كثيرًا من الدول الإسلامية توصف بأنها دول غير مستقرة أو فاسدة، كما أن نحوًا من (٧٠٪) من لاجئي العالم مسلمون، وهذا بسبب الاضطراب الداخلي أو الاستعمار الخارجي، ونحن إلى جانب هذا نعاني من نوعٍ من الانقسام في الوعي السياسي، حيث إننا تائهون بين ماضٍ سياسي لا نعرف كيف نحلِّله وكيف نستفيد منه، وبين واقع عالمي لا نعرف كذلك كيف نتلاءم معه، وكيف نوظفه؟!.

لعلي هنا أتحدث باقتضاب شديد عن بعض المفاهيم والإجراءات التي يغلب على ظني أنها تساعد على تحسين الممارسة السياسية في بلاد المسلمين لتكون أقرب إلى الاستقامة وأكثر نفعًا للعباد والبلاد، وذلك عبر النقاط الآتية:

١ - الخيار بين السيئ والأسوأ:

هذه نقطة مهمة، فقد نرجِّح أمرًا من الأمور لا لأنه الشيء المناسب أو الشيء الفاضل، ولكن لأنه يمثل أخف الضررين، وهذا كثيرًا ما يكون في شؤون السياسة، فالبشرية مرتبكة ارتباكًا عظيمًا في كيفية تأسيس الصلاحيات وفي تنظيم شؤون المعارضة وانتقال السلطة وشؤون الشورى وأمور كثيرة من هذا القبيل، وإن كل ما يُنتجه البشر من نظم موسوم بالقصور والاضطراب، لكن يظل هناك ما هو سيئ، وما هو أسوأ، **وأنا أهيب بالصحويين الذين لا يعجبهم نمط معين في الحكم أو مذهبية معينة في السياسة أن يطرحوا ما يعتقدون أنه الأفضل، وأن يدلونا على آليات تنفيذه، فطرح النظم المثالية سهل، ولكن ما قيمة نظام لا نعرف كيف نطبقه؟ نظام نصف مثالي يمكن تطبيقه خير من نظام ممتاز لكن لا سبيل إلى جعله واقعًا ملموسًا**، واللَّه - جل وعلا - لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ولم يكلف عباده بما يوقعهم في الحرج، ولا يليق أن يكون كل ما لدينا عبارة عن كلام في كلام والناس يشكون مما هم فيه، ويتطلعون إلى ما هو أفضل أو أقل سوءًا.

٢ - لا مسوغ للتشدد في الإنكار:

رأيت كثيرًا من الصحويين وقد اشتدوا في الإنكار على من يخالفهم من الباحثين الإسلاميين فيما يذهبون إليه في بعض مسائل الحكم والسياسة؛ حيث إن من الشباب من يعتقدون أن أسلوب الخلفاء الراشدين في الحكم يصلح لكل زمان ومكان، وأن اقتباس أي شيء من النظام الديمقراطي يشكل نوعًا من الردة عن المذهبية الإسلامية، وفي هذا الكثير من الغلو وضيق الأفق، فالنصوص في باب السياسة الشرعية - كما أشرنا قبل قليل - قليلة والاجتهادات كثيرة، واللّه تعالى لما أذن لأهل العلم بالاجتهاد، أذن لهم بالاختلاف، وقد عتب الإمام الجويني في كتابه (الغياثي)[1] على صنيع الماوردي في كتابه الأحكام السلطانية؛ وذلك لأنه ساق المسائل الظنية المتنازع فيها مساق المسائل المعلومة المتفق عليها، وحجة الجويني ما أشرت إليه من ندرة النصوص في مجال السياسة الشرعية، مما جعل الاجتهاد في مسائلها كثيفًا

وقد أُجريت انتخابات تشريعية في إحدى الدول العربية منذ مدة قصيرة، وقد ترشح لخوضها تيار إسلامي كبير، فما كان من بعض التيارات الإسلامية الأخرى إلا أن حجبت أصواتها عن مرشحي ذلك التيار، وحجتهم في هذه أن طرح ذلك التيار ليس إسلاميًّا بما يكفي، وقد يكون ما يقولونه صحيحًا، لكن السؤال هو: ما الخيارات التي بقيت لهم بعد ذلك؟ بقي أمامهم خياران: **الأول**: أن يمنحوا أصواتهم لمرشحين علمانيين أو نفعيين يختلفون معهم في أمور كثيرة، و**الخيار الثاني**: هو الامتناع عن التصويت، وهما خياران سيئان بكل ما تعنيه الكلمة!

إن كثيرًا مما يقال اليوم في النهوض بالسياسة، وتجديد طرق ممارستها ليس فيه أي نصوص مأثورة، ولهذا فإنه ينبغي التسامح معه؛ لأن المهم هو عدم مصادمة الأصول الكبرى والنصوص القطعية ومقاصد الشريعة الغراء، وقد علّق ابن عقيل الحنبلي على قول الشافعي: « لا سياسة إلا ما وافق الشرع » بقوله: « السياسة ما كان فعلًا يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد، وإن لم يضعه الرسول، ولا نزل به الوحي. فإن أردت بقولك « إلا ما وافق الشرع »، أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع فعلًا فهو تغليط للصحابة... ».

---

(١) انظر (ص ١٤٢).

٣ - من أين يبدأ التغيير؟

كثير من الصحويين يركِّزون على إصلاح الشأن الاجتماعي عن طريق الدعوة والعمل الخيري وتقوية اللُّحمة الأهلية... ومن الصحويين من يعتقد أن هذا الأسلوب في الإصلاح غير مجدٍ، ولهذا فإنهم يركِّزون على إصلاح النظم والقوانين، ويعدون النجاح في الانتخابات هو البوابة الرئيسة لذلك، أما الفريق الثالث فإنه يرى أن المزج بين الأسلوبين هو الذي يأتي بالثمرات اليانعة، **وأود أن أوضِّح في هذا الشأن المعاني الآتية:**

أ - أهداف الإصلاح يجب أن تكون دائمًا واسعة ومتعددة، حتى يجد أي مسلم خيِّر المجال الذي يلائم إمكاناته وظروفه، وسيكون حشر أعداد كبيرة من الناس في مجال واحد كالوعظ أو التربية أو السياسة أو تعليم الناس الفقه شيئًا غير جيد؛ لأنه سيُذكي روح الخصومة والمنافسة بينهم، والأهم من هذا أن مجالات أخرى عديدة ستكون شبه مهملة، ومن هنا فإن فتح كل ما يمكن فتحه من مجالات الإصلاح والتغيير يظل شيئًا جيدًا ومثمرًا، وعلينا دائمًا أن نتذكر قوله ﷺ: «**اعملوا فكلٌّ ميسَّر لما خُلق له**»[(١)]؛ حيث إنه يشير على نحو خفي إلى أهمية أن يجد كل مسلم قادر على العطاء المجالَ الذي يسَّره اللَّه تعالى له، وهذا يكون من خلال إنشاء وتأسيس أكبر عدد ممكن من الأطر والبرامج والأنشطة والمؤسسات ذات النفع العام والمُركَّز والمراعي للأولويات.

ب - كثير من الصحويين يعتقدون أن الوصول إلى سدة الحكم سيساعدهم على نشر أفكارهم ومبادئهم، وسيمكِّنهم من تغيير النظم والقوانين لتكون متوافقة مع الشريعة الغرَّاء، وهذا الاعتقاد ليس خاطئًا بصورة كاملة، لكنه ناقص، ونقصه يأتي من عدم استيعاب الواجبات التي تترتب على من هم في موضع القيادة وعدم استيعاب المشكلات التي يثيرها كون جماعة أو تيار في المقدمة. أنا أعتقد أن السياسة لا تستطيع جعل الناس أكثر تدينًا، ولا تستطيع تغيير أفكارهم وعقائدهم، ولدينا ما لا يحصى من التجارب التي تشير إلى هذا، ويكفي منها أن تتأمل في الآثار العقدية والفكرية التي تركها الحكم الشيوعي في دول حلف وارسو عامة، وفي الجمهوريات الإسلامية خاصة، فقد عاد المسلمون إلى عقيدتهم، وعاد النصارى إلى نصرانيتهم، وبعض دول حلف وارسو التحقت بحلف شمالي الأطلسي، وبعضها لحق بالاتحاد الأوربي...

---

(١) رواه البخاري.

إذن السياسة تستند إلى ما هو متوفر في المجتمع من عقائد وأخلاق وأعراف، ومن يتجاهل ذلك، فإن مصيره هو الفشل المحتوم عاجلًا أو آجلًا

ما الذي يعنيه هذا؟

إنه يعني شيئًا مهمًّا، هو أن هداية الناس وتوجيههم وتفقيههم في أمر دينهم وتوعيتهم بمتطلبات العيش بزمانهم، وبالتغييرات والإصلاحات التي يمكن أن يقوموا بها على صعيدهم الشخصي - هو الجهد الأساسي الذي ينبغي القيام به، وعلى مقدار ما يحصل من تقدم في هذه الأمور يصبح التقدم على الصعيد السياسي ممكنًا وسهلًا، وقد يقول قائل: إن هذا يحتاج إلى عمل طويل، وفيه نوع من التمييع للقضية. أقول: هذا صحيح، ولكن العكس مأساوي؛ إذ إن استخدام السلطة والأدوات السياسية لحمل الناس على أفكار ومبادئ معينة سوف يفسَّر على أنه استغلال لقوة الدولة في إيجاد أوضاع تخدم القائمين على الحكم، وتحسِّن في موقفهم الانتخابي، ويترتب على هذا نوع من النفور من المبادئ والأفكار وممن يقف وراءها. الوضع السائد بأخلاقه وظروفه ومعطياته يشرط طبيعة السياسة وطبيعة الأدوات التي تستخدمها على ما تقرره السياسة الشرعية والحكمة السياسية، وإن التجاهل لهذه الحقيقة خطير للغاية

إن الناس اليوم ينتظرون من الحكومات أشياء قليلة، منها رعاية مصالحهم وحماية حقوقهم والعدل بينهم، وتوفير فرص عمل لأبنائهم، وحين يأتي من يقصِّر في هذه الأمور على نحو ظاهر، فإنه سيقابَل بالسلبية والاحتجاج. حين تساند الأكثرية فكرة أو مبدأ، فإن من السهل إصدار تشريع به، وهذا ما تعمل عليه الدول الناجحة في العالم.

ج - دلت تجارب كثيرة على أن صلاح المجتمع لا يؤدي بطريقة آلية إلى صلاح الدولة، فإذا قلنا: إن(٤٠٪) من أفراد المجتمع الفلاني يقيمون الصلاة، ويؤدون الزكاة، فإن هذا لا يعني أننا سنجد النسبة نفسها بين كبار موظفي الدولة، وواقع معظم الدول الإسلامية يشهد على هذا، ولا نستطيع استثناء الدول التي تجري فيها انتخابات، ولهذا العديدُ من الأسباب مما يعني أن الظن بأن العمل الدعوي والخيري يؤدي إلى إصلاح الحكومات ظن في غير مكانه، لكن علينا أن نقول أيضًا: إن من الصعب جدًّا أن تكون الحكومات أفضل من شعوبها؛ حيث إن أصحاب القرار في بلد سكانُه سبعون مليونًا يعدون مئات الألوف، فإذا كانت أغلبية المواطنين غير ملتزمة بأحكام الإسلام وآدابه، فمن أين يمكن الحصول على هؤلاء ؟

ومما يُذكر في هذا السياق أن عمر بن الخطاب ﷺ دخل على مجموعة من الصحابة، فسألهم عما يتحدثون فيه؟ فقالوا: نتمنى... فقال عمر: أما أنا فأتمنى أن يكون عندي ملء هذا البيت رجالًا من أمثال سعيد بن عامر الجمحي كي أستعين بهم على تصريف أمور المسلمين، مع أن الصحابة كثيرون جدًّا في أيام عمر، لكن من يجمع بين أعلى درجات الصلاح وأعلى درجات الكفاءة في القيادة دائمًا قليلون بل نادرون. ويروى أن أحدهم قال لعلي بن أبي طالب ﷺ: إنك لا تسير فينا سيرة الشيخين أبي بكر وعمر؟! فقال: نعم، الشيخان كانا أميرين على أمثالي، وأنا أمير على أمثالكم، وهذا واضح جدًّا في أن مستوى السياسات ونوعيتها ومستوى القادة ونوعيتهم ينسجمان دائمًا مع المستوى الشعبي العام.

إذن ينبغي بذل الكثير من الجهود على الصعيد التربوي والأخلاقي كما يجب بذل الكثير من الجهود الدعوية والإصلاحية بين النخب السياسية والكثير من الجهود من أجل رفع درجة الشفافية في مجال التوظيف وممارسة الوظائف الكبرى.

د- يقرر القرآن الكريم أن التغيير في حياة الأمم يبدأ بتغيير ما في النفوس حيث يقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الرعد: ١١]، ويقول: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ﴾ [الأنفال: ٥٣]. تغيير ما في النفوس والعقول هو الشيء الذي بدأ به رسول اللّه ﷺ في مكة المكرمة، حيث لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريعات ومرحلة بحث للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وإنما بناء العقيدة والتصور ومنهج التفكير والفهم، ولا يعني هذا بالطبع أن نفعل ذلك تمامًا في أيامنا هذه، لكنه يعني إعطاء الكثير من الاهتمام لتزكية النفوس وتطهير القلوب وبناء الفكر المنهجي القويم؛ حيث إن الأصل هو أن يستقيم الناس، ويحاولوا القيام بشؤونهم مع أقل حضور ممكن للحكومات، وهذا لا يكون إلا إذا كان لدينا مواطنون يغلب عليهم الصلاح والاستقامة، وهذا العمل الإصلاحي ينبغي القيام به في حال وجود الحكومة المسلمة، وفي حال غيابها، وقد قامت في بعض الأقطار الإسلامية حكومات مهتمة بتطبيق الشريعة أو تطبق الكثير من أحكامها، **وقد رأينا تراجع الجهد الدعوي والتربوي لدى كثير من الصحويين في تلك البلاد، وذلك اتكاءً على ما يمكن أن تسنه الحكومة من قوانين ونظم، أو على ما يقوم به موظفوها من إرشاد وتوجيه، وهذا شيء خطير وخاطئ، فالنظم والقوانين تساعد على حماية المجتمع، لكنها لا تنشئ مجتمعًا، وهذا هو سر تأخير نزول أحكام الحدود والعقوبات على النبي ﷺ**

إن الهدف من تطبيق الشريعة هو إحياء الملة وهذا لا يكون إلا إذا كان الالتزام بالأحكام والآداب الشرعية جزءًا من الثقافة العامة السائدة في الحياة اليومية، **وهذا لن يكون إلا إذا تغلغلت تعاليم الإسلام في أعماق المسلمين، وإلا إذا انجذبوا إليها وأحبوها، وهذا كله يتم إذا استخدمنا في هداية الخلق التربية والدعوة والإقناع، وليس السلطة**

٤ - ماهية الدولة الإسلامية:

الحقيقة أن تصريف شؤون الدولة بعد وفاة النبي ﷺ لم يكن من الأمور التي يهجس بها الصحابة - رضوان الله عليهم - إنهم كانوا يعتقدون أن الإسلام عبارة عن حركة مدٍّ هائلٍ لا ينبغي أن تتوقف عند أي حد حتى يعم نوره العالمين، وإن طبيعة مداولاتهم في سقيفة بني ساعدة تشير إلى هذا المعنى، ومن هنا نستطيع القول: إنه ليس لدينا نصوص صريحة تحدد نموذجًا معينًا للحكم في الإسلام؛ ولهذا فإن لعلماء المسلمين أن يجتهدوا في كل عصر في شأن الدولة الإسلامية، بما يساعد على تجسيد المبادئ الإسلامية في السياسة والحكم، وبما يحقق مصالح الناس، ويجعلهم أقرب إلى الصلاح، والدليل على هذا واضح، وهو أن كل واحد من الخلفاء الراشدين قد ولي أمور المسلمين بطريقة تختلف عن طرق تولية إخوانه.

فأبو بكر ﷺ بويع بالخلافة بعد المداولات والمشاورات التي جرت بين كبار المهاجرين والأنصار. أما عمر ﷺ فقد تم توليه عن طريق العهد من أبي بكر بعد أن استشار عددًا من وجوه الصحابة وأعيانهم، أما عثمان ﷺ فمن المعروف أن عمر ﷺ اختار ستة من كبار الصحابة ذوي المكانة في نفوس المسلمين في داخل المدينة وخارجها حتى يختاروا واحدًا منهم لإمرة المؤمنين، وقد وقع الاختيار على عثمان ﷺ بحيثياته المعروفة. وأما عليٌّ ﷺ فقد تمت مبايعته بعد مقتل عثمان في ظل ظروف تموج بالخوف والفتنة، وقد بايعه المهاجرون والأنصار بالحيثيات المعروفة أيضًا، وأنا أتساءل: ماذا لو استمرت الخلافة الراشدة قرنًا أو قرنين؟ أليس من الممكن أن يكون لدينا أربع طرق أخرى لاختيار أمير المؤمنين؟ هذا ما أعتقده.

في ساحة الصحوة وفي الساحة الثقافية والسياسية عامة مجادلات وسجالات كثيرة في ماهية الدولة الإسلامية وطبيعتها، فمن قائل: إن الدولة الإسلامية هي دولة مدنية ديمقراطية، ومن قائل: إن الدولة الإسلامية هي نصف مدنية، أو هي دولة مدنية بمرجعية إسلامية، وثمة من يرون أنه ليس هناك شيء اسمه «نظام الحكم في الإسلام»، ومن ثم

فإن الدين ينبغي أن يظل معزولًا عن الممارسة السياسية، وينبغي أن يُنظر إليه على أنه شأن خاص لمن يؤمن به! **وأنا أود أن أشير في هذه المسألة المهمة إلى الأمور الآتية:**

أ - يخشى كثير من الليبراليين والعلمانيين وغيرهم من فكرة الدولة الإسلامية؛ لأنها تلتبس لديهم بنظام الدولة الدينية (الثيوقراطية) والتي تعني (حكم اللَّه) أو (حكم رجال الدين) والتي نشأت في أوربا في القرون الوسطى، وبعض الصحويين غير العارفين بطبيعة الدولة الإسلامية وبطبيعة العصر الذي نعيش فيه... يعمقون تلك الخشية في نفوسهم حين يصورون الدولة الإسلامية وكأنها دولة سَوق الناس بالعصا إلى التدين، أو دولة كتم الأنفاس، أو دولة الانغلاق عن العالم، أو دولة سيطرة الإسلاميين على كل مفاصل الحياة...

الدولة التي تلتزم بأحكام الإسلام وبأدبيات السياسة الشرعية لا تكون أبدًا دولة دينية، فالقرآن الكريم أَسَّس منذ البداية مشروعية مساءلة الحاكم المسلم عن اجتهاداته وتصرفاته، وهذا ما نلمسه في آيات العتاب للنبي ﷺ كما هو الشأن في الإذن لبعض المنافقين بالتخلف عن بعض الغزوات والعتاب في ابن أم مكتوم وغير ذلك... مع أن النبي ﷺ معصوم فكيف تكون المساءلة لغير المعصوم؟

وقد عرض ﷺ على أصحابه أن يقتصوا منه في غير مناسبة، وذلك كي يؤكد إمكانية ممارسة المحاسبة والمساءلة عمليًّا من قبل الرعية، ومما ورد في هذا ما ذُكِر من أنه ﷺ صعد المنبر قبل وفاته، وقال: « **أيها الناس، ألا إنه قد دنا مني حقوق من بين أظهركم، فمن كنت جلدت له ظهره فهذا ظهري فليستقد منه، ألا ومن كنت شتمت له عِرْضًا فهذا عِرْضي فليستقد منه** »(١)، ومضى على هذا خلفاؤه من بعده فهذا أبو بكر ﷺ يقول للناس: « إن استقمت على طاعة اللَّه، فأعينوني عليها، وإن زغت عنها فقوموني »، كما قال أيضًا: « أيها الناس أطيعوني ما أطعت اللَّه فيكم، فإذا عصيت اللَّه، فلا طاعة لي عليكم ». وعمر من بعده يقول كلامًا نحوًا من كلامه، ويضيف: « رحم اللَّه امرأً أهدى إلى عمر عيوبه ».

ب - الدولة الإسلامية ليست دولة دينية ترى في نفسها العصمة، وترى لها حق الطاعة المطلقة على الناس، كما أنها ليست دولة مدنية يتولى الناس فيها وضع الدستور الذي يُعجبهم، ويُصدرون التشريعات التي يرون أنها ملائمة لهم. قد يقول قائل: إذا لم تكن الدولة الإسلامية دولة دينية ولا دولة مدنية، فماذا تكون إذن؟

---

(١) أخرجه الطبراني.

الدولة الإسلامية دولة ذات نمط متميز عن باقي أنماط الدولة، وهذا النمط ترسم ملامحَه النصوصُ التي يؤمن بها المسلمون إلى جانب (منطقة العفو) أو ما يسمى بـ (الفراغ القانوني)؛ حيث يكون للفقيه الدستوري أن يشرِّع ما يحقق مقاصد الشريعة ومصالح الناس بما لا يتعارض مع الثوابت والأصول، ومن هنا يمكن القول: إن الدولة الإسلامية تفترق عن الدولة المدنية في أنه لا يجوز للحاكم المسلم أن يطلب رأي الناس ولا أن يصغي إليه في تحريم مباح أو تحليل محرَّم؛ لأن الإيمان باللَّه ورسوله يتطلب من الحكومات والشعوب جميعًا الإذعان لأمر اللَّه وشرعه، يقول اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] ويقول جلَّ شأنه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] والنصوص في هذا كثيرة جدًّا.

وتلتقي الدولة الإسلامية بالدولة المدنية في أنها تقوم على رضا الناس وموافقتهم عن طريق البيعة أو الشورى أو الانتخاب، على من يسوس أمرهم، وعلى حقهم في محاسبته إذا أخطأ وعزله إذا انحرف، وحقهم كذلك في رفض ما لا يرضونه من مناهج ثقافية واجتماعية واقتصادية...

إن الإسلام جاء لتحرير البشرية من الظلم والاستغلال، وعلى الرغم من سمو مبادئه وعظمة تشريعاته، فإنه لا يُكره أحدًا على اعتناقها، فكرامة الناس وحريتهم أساس في تكليفهم، وأساس في حكمهم وقيادتهم وتربيتهم، وقد ورد عنه ﷺ أنه قال: « **ثلاثة لا تجوز صلاتهم آذانَهم: العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة بات زوجها عليها ساخطًا، وإمام قوم وهم له كارهون** »[(١)]، وصح عنه أنه قال: « **خير أئمتكم** - أي حكامكم - **الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم** - أي تدعون لهم - **ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم، ويبغضونكم** »[(٢)].

لا شك أن هناك تفاصيل كثيرة في هذا الشأن لا أرى من المناسب التحدث عنها في هذا المقام.

ج - كانت الدولة في عهده ﷺ بسيطة للغاية مع أنه كان في الإمكان إنشاء أجهزة

---

(١) رواه الترمذي وغيره.

(٢) رواه مسلم.

حكومية لتسيير الشأن العام وضبط إيقاع الحياة في المدينة المنورة وما حولها - على الأقل - لكن ذلك لم يحدث؛ لأنني أعتقد أنه ينبع من صميم الرؤية الإسلامية للدولة، تلك الرؤية التي تقوم على أن الحكومة كلما كانت أجهزتها أصغر، وكان موظفوها أقل كانت أقرب إلى الصلاح والاستقامة؛ وذلك لأن وجود الدولة في حياة المسلمين هو وجود ضرورة واحتياج، وعلى مدار التاريخ كان تضخم الحكومات علامة مرض، وليس علامة صحة؛ وذلك لأن الحكومة مثل أي عضو من أعضاء الجسد يتضخم حين يصاب أو يفسد، وهذا على عكس المؤسسات الاجتماعية، فكثرتها علامة صلاح وخيرية، وما أبلغ قول أحدهم: « الدولة وليدة عيوبنا، والمجتمع وليد فضائلنا »، إن الناس حين تسوء أخلاقهم وسلوكياتهم يصبح تسيير أمورهم صعبًا، مما يستدعي المزيد من النظم المعقدة والمزيد من الدوائر والأجهزة الحكومية، مما يؤدي إلى تضخم الدولة، وقد لمح هذا المعنى قديمًا عمر بن عبد العزيز - رحمه اللَّه - حين قال: « يحدث للناس من الأقضية على مقدار ما يُحدثون من الفجور »

الدولة الفاضلة هي التي تربي الفرد وتنشئ الوضعيات والنظم التي تجعل الناس أكثر استغناءً عنها وأقل احتياجًا إليها، وهذا يعني أن تتجسد وظائف الدولة في التخطيط والإشراف والرقابة والمتابعة، مع القليل جدًّا من الأعمال التنفيذية، وهذا يكون حين تسير الحكومة على قاعدة: نقوم بما يعجز الناس عن القيام به. ومن هنا فإن مطالبة كثير من الصحويين بتوسيع دور الحكومات في الحياة العامة ليست بالشيء الصحيح، فالمطلوب دائمًا هو العكس قد يقول قائل: هذا يعني التوسع في عمليات الخصخصة والجنوح بالتالي نحو المذهب الرأسمالي في الاقتصاد؟ وأقول: هذا صحيح، فالخصخصة إذا تمت بطريقة نزيهة وصحيحة مع استمرار إشراف الحكومة وضمانها لمصالح الضعفاء خير من التوسع في القطاع العام، وأقرب إلى الصلاح وتحقيق المصلحة.

٥ - خضوع قيام الدولة للموازنة:

لا ريب في أن الناس حين يكون فيهم من يأمرهم بالقيام بأمر اللَّه تعالى واتباع شريعته، فإن عليهم أن يسمعوا له، ويطيعوا، بل عليهم أن يدافعوا عنه، ويحموه، ولا يحل لأي شعب أكرمه اللَّه بتطبيق الشريعة أن يتنازل عنها، ويسعى إلى نظم وقوانين تتصادم معها، وأظن أن هذا مما لا ينبغي الاختلاف فيه، لكن الذي يحتاج إلى تفكر وتنظير ما هو

سائد في معظم الدول الإسلامية من تطبيق منقوص أو جزئي لأحكام الشريعة، بل ما هو سائد من عداء ومناكفة لروح التدين والمتدينين عامة . وهذه مقاربة سريعة لهذه المسألة الشائكة عبر المفردات الآتية:

أ - على كل مسلم أن يعتقد بصلاحية عقيدة الإسلام ومنطلقاته ومقاصده العامة لجعل الناس على الطريق الصحيح في كل ما يمسُّ حياتهم ومصالحهم في الدنيا ومآلهم في الآخرة، وهذا الاعتقاد يقتضيه الإيمان بشمولية الإسلام وكونه منهج حياة.

ب - حدث خلال العقدين الماضيين تقدم مهم جدًّا لدى كثير من الصحويين حول آلية قيام الحكومة الإسلامية، وهذا التقدم يقوم على قناعة تامة بعدم جدوى العنف أو الانقلاب في إنشاء الدولة الإسلامية، فقد صار الصبر والعمل السلمي التراكمي وتغيير القناعات - من الأمور التي تشكل نصاب الأسلوب الناجع في تأسيس الحكومة المسلمة، ومن يعمل من الصحويين اليوم بعيدًا عن هذه الرؤية قليلون جدًّا، ومعظمهم من الشباب المتهور وغير المتعلم بما يكفي. هذا التغير الذي حدث سيدفع بالمهتمين بالعمل السياسي من الصحويين في اتجاه الاطلاع على تجارب الأمم الأخرى في تغيير بنية الحكومة وتوجهاتها العامة، وهذا هو الذي يحدث اليوم فعلًا

ج - لو جاء وفد من مسلمي فرنسا أو ألمانيا أو الصين... إلى فقيه يسترشدونه فيما عليهم القيام به من أجل بسط نفوذهم في بلادهم على الصعيد السياسي، فما الذي يمكن أن يقوله لهم، إذا كان ذلك الفقيه يعرف بأنه لا أمل أمام المسلمين في فرنسا - مثلًا - في بلوغ ذلك عن طريق انقلاب عسكري أو ثورة مسلحة؛ لأن ذلك غير وارد هناك؟ أتوقع أن يقول لهم الآتي:

١ - ادخلوا الانتخابات التي تجري في بلادكم بكثافة وحرص.

٢ - رشحوا لخوضها كفاءات إسلامية عالية، وحريصة تمثلكم وتحرص على مصالحكم.

٣ - لا تشتتوا أصواتكم، ولا تسمحوا للتنافس بين مرشحيكم في الدائرة الواحدة.

٤ - إذا لم تستطيعوا ترشيح بعض المسلمين في بعض الدوائر، فامنحوا أصواتكم إلى المعتدلين والمتعاطفين معكم، ولا تمنحوا أصواتكم لأحد من غير أخذ وعد منه بتحقيق بعض مطالبكم.

٥ - يجب أن يشعر أهل البلد الذي تقيمون فيه أنكم جالية محترَمة ومنتِجة حتى تكسبوهم لنصرة قضاياكم والتحالف معكم.

٦ - هذا كله على المدى القريب، أما على المدى البعيد، فلتكن لكم خطة واسعة في دعوة الناس عندكم للإسلام حتى تصبحوا ولو خلال قرن أكثرية في البلد، وحينئذ يمكن لكم تغيير الكثير من القوانين السارية.

أعتقد أن هذا هو العمود الفقري لما يمكن أن يرشدهم إليه.

د - لو خطونا خطوة أخرى إلى الأمام ودلفنا إلى تفحص وضع تطبيق الشريعة في البلدان الإسلامية، فإننا سنجد أن تطبيقها في معظم الدول الإسلامية منقوص وجزئي، بل سنجد أن بعض حكوماتها تنفر من التدين وأهله، فلو أن علماء أهل بلد من تلك البلدان ووجهاءه وأهل الرأي والنفوذ فيه - وهم الذين كانوا يسمَّون أهل الحل والعقد - رأوا - مثلًا - أن الظروف الداخلية والدولية لا تسمح بتطبيق الحدود أو بعضها، ورأوا أن البداية الصحيحة للإصلاح تكون بمحاربة الفقر أو بالعمل على استقلال القضاء ونزاهته، أو بالعمل على إصلاح التعليم.. فما حكم تنفيذ ما رأوه من ذلك؟ هل لهم ذلك، أو أن هناك خطة أخرى ينبغي عليهم الالتزام بها؟

في اعتقادي أن عليهم أن يعملوا على ما ظهر لهم، فاللَّه الكريم الرحيم لا يكلفهم بما لا يطيقون، وليس عليهم أن ينصاعوا لرأي أهل بلد آخر في تدبير شؤونهم. ولو أن حاكمًا مسلمًا لديه اعتقاد جازم بضرورة الانصياع لأمر اللَّه على نحوٍ كامل، ولكنه يرى أن هناك أمورًا معينة لا يستطيع تطبيقها في دولته بسبب رفض داخلي شديد - كما هو شأن النجاشي مع قومه فيما يغلب على الظن - أو بسبب ظروف دولية قاهرة، فهل له أن يؤجل من تطبيق بعض أحكام الشريعة إلى أن تتاح الفرص الملائمة؟ أو أن عليه أن يطبق الشريعة كاملة وليكن ما يكون؟ لا شك أن عمله يخضع للموازنة، حيث لا يصح القيام بعمل يسبِّب من الشر والأذى والفتنة أكثر مما يجلبه من الخير، لكن يكون المطلوب في هذه الحالة أن ينال موافقة أهل العلم والرأي والشورى على ذلك؛ حيث إن من المهم جدًّا أن يطمئن كل الغيورين على إنفاذ شرع اللَّه تعالى على أنهم يبذلون كل جهد ممكن، ويفعلون فعلًا أفضل ما يمكن فعله، وهذا يستدعي أن تكون الثقة والمكاشفة والشفافية والشورى هي السائدة

وأنا أرى أن الأمر قد يتجاوز كل هذا إلى مسألة الدفاع عن البلاد في وجه الغزو الأجنبي، فلو أن الأعداء احتلوا بلدًا من بلاد المسلمين، واجتمع قادة البلد وعلماؤه وأهل الشوكة فيه، ورأوا أن المقاومة المسلَّحة ستؤدي إلى قتل كثير من الأنفس دون أن تؤدي إلى إخراج العدو؛ ولهذا فإنهم قرروا أن يُخرجوه عن طريق العصيان المدني ورفض التعامل معه، أو عن طريق قطع المؤن عن جيوشه واستنزافه اقتصاديًّا... فهل لهم ذلك، أو أنه لا بد من استخدام السلاح، بقطع النظر عن النتائج المتوقَّعة؟

الحكم لا يختلف عما ذكرناه؛ لأن المسألة تخضع لتحقيق المصالح ودرء المفاسد.

ما الذي يعنيه هذا؟

إن هذا أحد تجليات رحمة اللّه تعالى بعباده، وهو دليل على سماحة هذا الدين ويسره وواقعيته وكون تكاليفه دائمًا في إطار الطوق والوسع، ويعني هذا شيئًا آخر هو أن أعيان الأمة على اختلاف تخصصاتهم وانتماءاتهم يتحملون مسؤولية عظمى، هي مسؤولية فهم الواقع وملابساته وفهم الظروف الدولية على نحو جيد بالإضافة إلى امتلاك رؤية بعيدة المدى للأسس والآليات التي يجب عليهم استخدامها في تمكين الدِّين في النفوس والأوضاع العامة، ما دام فهمهم لكل ذلك سيكون هو المنطلق لجهد الأمة جميعها على طريق النهوض بالسياسة الإسلامية وتشييد أركان الدولة المسلمة.

إن كثيرًا من شباب الصحوة يتهمون كل من يدعو إلى امتلاك البصيرة في مسائل السياسة والحكم - بالعمالة أو الجبن أو الحرص على المصالح الشخصية، وحين تسألهم عن رؤيتهم الشخصية لما ينبغي عمله تجاه هذه المسائل، فإنك إما أن لا تسمع أي شيء، وإما أن تسمع كلامًا مثاليًّا ليس هناك أي آلية لتنفيذه!

٦ - فصل النشاط السياسي عن النشاط الدعوي:

إن الإسلام يحث كل مسلم على أن يدعو إلى اللّه تعالى على مقدار ما يعرف ويُحسن، وهذا واضح في قوله ﷺ: « **بلغوا عنِّي ولو آية** »[1]. كما أن مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحمِّل كل مسلم - بحسب استطاعته - نوعًا من المسؤولية عن نشر الخير والحفاظ على سلامة المجتمع المسلم من الانحراف والجريمة، ثم إن (**الشمول**) **شديد** **الإغراء، على حين أن التخصص يحتاج إلى التركيز** والتعمق والتكيف... ولهذا فإن من

(١) رواه البخاري.

السهل أن تجد الجماعة الإسلامية الواحدة نفسها وقد انخرطت في أنشطة سياسية واجتماعية وتربوية كثيرة وعديدة، وأنا شخصيًّا أرى أن هذا غير جيد، وله سلبيات عديدة، ولعلي أسلط الضوء على هذه المسألة عبر النقاط الآتية:

١ - مجال السياسة مباين لمجال الدعوة، وذو طبيعة مختلفة؛ حيث إن السياسة هي دائمًا مركز توازنات وتحالفات وتنازلات، ولا يستغني أي سياسي عن شيء من المناورة والمخاتلة، أو ما يُسمى بـ (الدبلوماسية)...

أما الدعوة فإنها تبليغ للرسالة وعمل على هداية الخلق، وهذا يجعل الناس ينظرون إلى الداعية على أنه قدوة لهم، ويفترضون فيه البعد عن المصالح الشخصية، وحين يعمل الداعية في السياسة فإن الصورة الذهنية التي رسمها له الناس تضحى مضطربة ومشوشة، وكم هو مزعج أن يتحدث خطيب الجمعة عن الزهد أو الورع أو الاستعداد للآخرة في الخطبة الأولى، ثم يتحدث في الخطبة الثانية عن غريمه السياسي فلان أو غريم جماعته الحزب الفلاني، أو يتحدث عن فضائل فلان المرشَّح للانتخابات الفلانية..!

بعض الجماعات الإسلامية انخرطت في العمل السياسي إلى جانب حضورها الكثيف في المجال الدعوي، وإذا بخطابها يُصبَغ بصبغة سياسية شاملة، أدت إلى فقدانه نكهته الإيمانية والروحانية، وهذا جعلها تخسر الدعوة، ولم يساعدها على كسب السياسة

٢ - من الصعب التفريق بين مبادئ الأشخاص ومصالحهم وبين عقائدهم وطروحاتهم؛ ولهذا فإن انهماك الدعاة في الشأن السياسي وشحن خطابهم السياسي بالمبادئ والقيم الإسلامية سيفسَّر من قبل السياسيين المنافسين على أنه استغلال للدين وقيمه في تحقيق الغلبة على الخصوم، وهذا ما نلمسه اليوم في أكثر من بلد إسلامي، والأهم من هذا **أننا نريد للإسلام أن يظل جذعًا مشتركًا للأمة بأكملها، ولا نريد لقيمه وأحكامه أن تُستهلك في المهاترات السياسية؛ حيث سيعتقد كثيرون أن في الحطِّ من** شأنها، وضرب صلاحيتها ومنطقيتها **نوعًا من النصر على الحاملين لها والداعين إليها،** وأظن **أن** هذا واضح وملموس اليوم

٣ - حين نفصل بين النشاط السياسي والنشاط الدعوي فإننا نحمي الدعوة من انتكاسات السياسة والسياسيين، كما أننا نحمي النشاط السياسي من الأخطاء التي يقع فيها بعض الدعاة، لكن هذا يستلزم شيئًا مهمًّا، هو تفهم الداعية لطبيعة العمل الذي يقوم

به السياسي، وتفهم السياسي للعمل الذي يقوم به الداعية، وهذا يجعل الفصل الذي ندعو إليه مثمرًا وخاليًا من السلبيات. ووظيفة هذا التفهم تتمثل في منع التصادم، وفي توفير مناخ للدعم الذي يحتاجه كل منهما من الآخر، ولا سيما في أوقات الأزمات.

٧ - تخفيف الطلب على السلطة:

من سنن اللَّه تعالى في الخلق أنه حين يَضيق مسارٌ اجتماعي ما، فإن الطلب يشتد على المسارات الأخرى وهذا ما نجده من التزاحم والتدافع على الوظائف العليا والمناصب وكل مواقع النفوذ؛ وأشعر أن عليَّ أن أوضح الأمور التالية:

أ - لدى البشر نزوع فطري إلى التمتع بالسلطة والقوة والتأثير، والزاهدون في ذلك قليلون، **وحين نجد من يأبى العمل في وظيفة كبيرة، فإن رفضه هو نتيجة التحوير الذي أدخلته الثقافة المكتسَبة على الطبيعة البشرية**

ب - ليس الحرص على الإمارة في الرؤية الإسلامية بالشيء المحمود، بل هناك تحذير وترهيب من الإقدام عليها، وقد صحَّ عنه ﷺ أنه قال: « **إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعمت المرضعة، وبئست الفاطمة** »[1] وصحَّ عنه كذلك أن أبا ذر ﵁ قال: يا رسول اللَّه ألا تستعملني؟ فقال له: « **إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزيٌ وندامة إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها** »[2]، وصحَّ عنه أنه نهى بعض أصحابه عن سؤال الإمارة، وقال لأحدهم: « **لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتَها عن مسألة وكِلت إليها، وإن أعطيتَها عن غير مسألة أُعنتَ عليها** »[3]. ومن أجل هذا رفض عدد من أكابر هذه الأمة القضاء كما فعل أبو حنيفة والشافعي وغيرهما. **لا شك في عظم ثواب من نال الوظيفة بطريقة مشروعة، واستطاع من خلالها قضاء حوائج الناس والارتقاء بالوضع العام، كما أن تولي منصب من المناصب قد يصبح واجبًا إذا تعين شخص محدد له، على ما هو معروف؛ لكن يظل الزهد في طلب المناصب والإعراض عنها والتماس من هم أهلٌ لها أَوْلى وأحوط**

ج - يصبح الإقبال على السلطة والسعي إليها أكثر عنفًا، حين تعني الوظيفة الكبيرة وجود مصدر غير محدود للثراء والنفوذ، على ما هو الحال في الدول الفاسدة؛ ولهذا

---

(١) رواه البخاري. (٢) رواه مسلم.

(٣) رواه الشيخان.

فنحن نشاهد في تلك الدول أمورًا مذهلة خلال الحملات الانتخابية، حيث يدفع بعض المرشحين أموالًا طائلة من أجل الفوز بمقعد في البرلمان أو مجلس الشعب، وهم يعرفون أنهم سيسترجعون أضعاف ما دفعوه بطرق مختلفة، وهذا شيء يُثير الأسى والأسف، إذ يُفترَض فيمن يمثِّلون الأمة أن يكونوا من أهل الأمانة والنزاهة والعفة والمروءة، لكن هذا على ما يبدو هو جزء من ضريبة التخلف والفساد والجهل!

د - فطر اللّه الإنسان على السعي إلى تحقيق ذاته، وذلك من خلال امتلاك مشاعر الرضا عن الذات والتميز على الأقران والإحساس بدور فاعل في الحياة، وإن الحصول على كل هذا لأعدادٍ كبيرة من الناس يحتاج إلى أعداد هائلة من المؤسسات والأطر والبرامج والأنشطة الدعوية والأدبية والاجتماعية ذات الطابع التطوعي، وحين تكون هذه المؤسسات شحيحة في بلد من البلدان، فإن الناس يتهافتون على المجال السياسي، وعلى الوظائف الكبرى والمناصب القيادية بوصفها أدوات شبه مضمونة لتحقيق الذات، وهذا ما نلمسه في الواقع، فالدول الغنية بالمؤسسات والأنشطة الاجتماعية تشهد تزاحمًا أقل على السلطة، وتتم فيها استقالة الموظفين الكبار لأدنى خطأ يُرتكب من قِبلهم، أو من قِبل بعض من تحت إدارتهم بسبب ضغط العُرف الاجتماعي والحزم القانوني. إذن يمكن القول: **إن على الصحويين أن يعملوا على تخفيف الطلب على السلطة والوظائف الكبرى من خلال أمرين اثنين:**

الأول: إشاعة ثقافة الشعور بالمسؤولية تجاه الإمارة والولاية وأعبائهما الثقيلة.

الثاني: إثراء الحياة العامة بالأنشطة التي تساعد الناس على تحقيق ذواتهم وإبراز مواهبهم، ولكن كل ذلك سيكون محدود التأثير ما لم يتم إغلاق الأبواب الخلفية للوظائف حيث تتدفق المنافع غير المشروعة.

٨ - مركزية أقل:

لدى الإنسان نزوع عفوي إلى توسيع النفوذ، وهذا النزوع يكون بصورة مكبَّرة على مستوى الحكومات، والناس يميلون إلى جانب هذا إلى أن يشاركوا في إدارة شؤونهم، كما يحبون أن يُستشاروا في كل ما يعنيهم، وإذا رجعنا إلى التاريخ، فإننا سنجد أن الدول الإسلامية المختلفة كانت تأخذ بنظام عدم تركيز السلطات في أيدي كبار الموظفين في العواصم، وربما كان ذلك بسبب صعوبة العمل بالنظام المركزي في الحكم لصعوبة التواصل بين أجزاء الدولة. وهناك من يقول: إن اللامركزية في حكم العباسيين هي

التي أدت إلى تصدع الدولة وتفتيتها، ومهما يكن من أمر، فإننا نرى أن النظام المركزي في إدارة البلاد يكون ضروريًّا عند نشوء الدول كما أنه ضروري في حالة انتشار العداء القومي أو المذهبي أو الطائفي داخل البلد. أما بعد أن تستقر الدولة وبعد توفر درجة حسنة من الوئام بين مكوِّناتها المختلفة، فإن الحكم اللامركزي هو الأصلح، ولا بد من القول: إنه ليس هناك حكم مركزي مطلق، كما أنه ليس هناك حكم لا مركزي كامل، فكل النظم فيها شيء من المركزية واللامركزية، والتفاوت في النِّسب. **يرى كثير من فقهاء القانون أن النظام اللامركزي في الحكم يحقق الكثير من الفوائد والمنافع، من أهمها:**

- شعور الناس بالكرامة والمسؤولية من خلال توليهم إدارة الكثير مما يتعلق بحياتهم اليومية.

- توزيع مكامن النفوذ على أعداد كبيرة من الناس، وهذا يخفِّف من إمكانات التفرد بالسلطة من قبل مجموعة قليلة من الرجال.

- تسهم اللامركزية في تقوية اللُّحمة الاجتماعية، وتُضعف حجج أهالي بعض الأقاليم المثيرة للشغب، والراغبة في الانفصال؛ لأن اللامركزية تجعل ما يتم الحصول عليه من مكاسب من وراء الانفصال محدودًا وضئيلًا.

- إنعاش الأقاليم وتحسين وضعيات الأطراف، وهذا يخفِّف من الهجرة إلى العواصم والمدن الكبرى.

- المهم في الرؤية الإسلامية للسياسة والحكم ليس حرص الدولة على تطبيق الشريعة الإسلامية فحسب، وإنما خضوع الدولة نفسها للشريعة، وإمكانية هذا في ظل الحكم اللامركزي أفضل؛ لأن كشف المفسدين يكون أسهل، كما أن مراقبة الناس لمسؤوليهم المحليين تكون أشد فاعلية.

- السرعة في إنجاز المهام وتحقيق الكفاءة في العمل الإداري.

- يصبح حرص الناس على استقامة الحياة العامة في بيئاتهم المحلية أفضل بكثير بسبب أنهم يعرفون أن عليهم أن يتحملوا مسؤولية إصلاح ما فسد في ديارهم.

هذا كله يجعلنا نعتقد أن علينا تشجيع النظام اللامركزي، وتشجيع الانتقال إليه بالتدرج؛ وذلك حتى ندعم الروح الجماعية لأكبر عدد ممكن من الناس مع إمكانية اكتساب خبرة إدارة الشؤون المحلية، وخبرة الارتقاء بها.

٩ - طمأنة المنافسين:

من المهم أن يدرك الصحويون أن الزمان الذي نعيش فيه مختلف عن زمان الأمويين والعباسيين، فالنسيج الاجتماعي والاتجاهات الثقافية والتطلعات والولاءات والإيمان بالمسلَّمات والحقوق والواجبات، كل ذلك مختلف، أضف إلى هذا أننا جزء من العالم، بل نحن الجزء الأضعف منه؛ ولهذا فإننا إذا تجاهلنا كل ذلك فإن مجتمعاتنا ستتفجر من الداخل، وستصبح مجتمعات فتن وحروب ومؤامرات، **وفي أجواء كهذه لا يتألق الإيمان، ولا يتم إرساء دعائم الدين والتدين. وقد أشرت في غير موضع إلى أن السياسة هي فن الممكن، كما أنها فن التوازنات، وأحيانًا تكون فن الاختيار بين السيِّئ والأسوأ**

انطلاقًا من كل هذا فإني أقول: إن بعض تيارات الصحوة يجعلون من أنفسهم مصدرًا لإخافة كل مَنْ حولهم؛ لأنهم يوحون إليهم بطرق شتى أنهم إذا وصلوا إلى السلطة، فإنهم سيفعلون كل ما يحلو لهم، كما أنهم من خلال الكثير من تصريحاتهم يتركون انطباعًا لدى منافسيهم بأنهم إذا شكلوا حكومة، أو أقاموا دولة فسيكون من الصعب نزعها منهم بأي وسيلة من الوسائل، وعلينا أن نعترف أن الوضع في هذه المسألة آخذ في التحسُّن، **ولي هنا عدد من الملاحظات**:

أ - من الصعب جدًّا أن تقوم حكومة تتحدث باسم الإسلام، وتريد من الناس أن يلتزموا بشرائعه في سرهم وعلنهم من غير رغبة وموافقة نسبة عالية منهم تتجاوز النصف، وهذا هو معنى الشورى والحكومة الشورية؛ حيث إن من غير الصواب أن يتشبث أي فصيل أو تيار أو حزب بالسلطة، مع عدم موافقة معظم الناس، ومن هنا فإن على كل من ولي وظيفة أو شغل منصبًا من المناصب عن طريق بيعة الناس أو اختيارهم أو انتخابهم له بأي أسلوب من الأساليب المعبِّرة عن رضاهم أن يكون مستعدًّا للتخلي عنه حين تظهر غالبيتهم عدم الرغبة فيه، أو حين تظهر الرغبة في إمرة منافس له، وقد سقت النصوص الدالة على ذلك.

ب - إذا أراد الواحد منا أن يفهم مشاعر الآخرين ومصالحهم تجاه سلوكياته، فلينظر إلى مشاعره ومواقفه تجاه تصرفاتهم، فهذا يجعله يفهم الأمور بشكل أوضح، وإن مما يساعدنا في هذا أن ننظر إلى أوضاع الأقليات الإسلامية في العالم، حيث إننا نغضب، ونندِّد، بل إننا أحيانًا نُظهر الاستعداد للقتال والمجابهة حين نجد أقلية إسلامية مهضومة الحقوق، أو محرومة من المشاركة في تقرير مصيرها أو اختيار من يدير شؤونها، ولدينا

الكثير من الأمثلة على هذا؛ فلماذا نكيل بمكيالين، ونريد من الناس أن يتابعونا على شيء نحن لا نرضى متابعتهم فيه؟! نحن نعرف أن لأمة الإسلام خصوصية، ونحن نعرف أن لدينا ثوابت لا يصح التنازل عنها، لكننا نعرف أيضًا أننا مأمورون بتقوى اللّه تعالى على مقدار ما نستطيع كما أن علينا في مجال السياسة أن نعمل أفضل ما يمكن عمله على طريق تحصيل خير الخيرين، ودفع شر الشرين، وهذا يتيح للسياسي المسلم مجالًا رحبًا للحركة، وهذا من حكمة اللّه تعالى ورحمته ولطفه بعباده

ج - ليس من الحكمة ولا من المصلحة إشعار الآخرين بأنك ستقلب الطاولة عليهم؛ لأن هذا سيخيفهم منك، وسيجعل الهمَّ المسيطر عليهم هو عدم تمكينك من ذلك، كما أن ذلك يُغريهم بأن يسعوا إلى قلب الطاولة عليك حين يمكنهم ذلك، وفي هذا خسارة للعباد والبلاد وإشاعة للفوضى، وفيه منافاة للمقاصد العليا للشريعة الغراء. المطلوب هو اتباع منهج النبي في الإبقاء على القاسم الأخلاقي والحقوقي والاجتماعي المشترك وتعزيزه بكل وسيلة ممكنة، ونجد هذا واضحًا في قوله ﷺ: « إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق »[1] ومدح ﷺ « حلف الفضول » الذي تعاهدت فيه قبائل عدة في الجاهلية على نصرة المظلوم حيث قال: « شهدت في دار عبد اللّه بن جُدْعان حلفًا ما أحب أن لي به حُمُرَ النعم، ولو أُدعى إلى مثله في الإسلام لأجبت »[2].

الصحويون مهما كانت نسبتهم عالية في المجتمع فإنهم لا يستطيعون حمل كل هموم الوطن وأعبائه، كما أن التقدم في الإصلاح يحتاج إلى نوع من الإجماع الوطني على بعض القيم والملفات والمسائل الجوهرية؛ ولهذا فإن البحث عن حلفاء وشركاء من أجل التقدم يظل أمرًا ملحًّا ومهمًّا، ولا يكون هناك تحالف ما لم يكن هناك شعور بالثقة المتبادلة وشعور بالندية والتساوي في الحقوق والواجبات. إن من سنن اللّه تعالى في الخلق أن البلاد تخسر عطاءات ومساهمات كل أولئك الذين يتم تهميشهم لأي سبب من الأسباب، وأمتنا في حالة من الضعف تجعلها في حاجة ماسة لأي مشاركة إيجابية من أي واحد من أبنائها.

د - الانخراط في مشروعات وبرامج مشتركة من أفضل الوسائل التي يمكن أن تُستخدم في تطمين المتنافسين، والحقيقة أن المناوئين للصحوة مهما كانوا بعيدين عن

(١) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة.
(٢) أخرجه البيهقي.

رؤاها ومنهجياتها، فإنه يظل ما هو متفق عليه بين المخلصين من أبناء البلد أكثر مما هو مختلف فيه، ولكن بسبب سوء التقدير والتحسس النفسي بالإضافة إلى شيء من الأنانية يبدو الاتفاق على أي شيء وكأنه مستحيل أو كالمستحيل! **ولعل مما يمكن طرحه بوصفه أطرًا وبرامج مشتركة الآتي:**

- الدعوة إلى أمهات الفضائل، مثل: الصدق والعدل والنزاهة والأمانة والتسامح والتعاون والإتقان...
- بناء المرافق العامة ومساعدة العناصر الضعيفة في المجتمع.
- مكافحة الفساد والوقوف إلى جانب المظلوم.
- نشر ثقافة النهضة وأدبياتها.
- إجراء بحوث ميدانية حول المشكلات التي تعاني منها شرائح عريضة من المجتمع.
- بلورة رؤية مستقبلية للتنمية في البلد، ومحاولة اكتشاف بعض الأولويات في ذلك.
- إشاعة ثقافة الحوار والتفاوض وإدارة الخلاف.

هـ - على الصحويين أن يدركوا أن منح الناس ثقتهم لحزب أو تيار كي ينوب عنهم، أو يصرِّف شؤونهم لا يعني تجاهل الفرقاء الآخرين طول مدة ولايته؛ لأن هذا يعني أن يصبح البلد ألعوبة في أيدي أحزاب متنافسة ومتشاكسة تمضي به مرة ذات اليمين ومرة ذات الشمال؛ حيث يصبح الشغل الشاغل للخلف هو هدم ما بناه سلفه، وفي هذا إضرار بالغ الشدة بمصالح العباد والبلاد، إن على الدولة في الرؤية الإسلامية أن تقدم الإطار القانوني الذي يتيح لكل التشكيلات الاجتماعية التعبير عن رأيها فيما يخص الشأن العام ما دام ذلك التعبير لا يصادم الثوابت والكليات التي يشكل الإيمان بها الأرضية المشتركة لأبناء البلد الواحد، وإذا نظرنا إلى نقد كثير ممن هم خارج الصف الإسلامي، فسنجد أن أكثره يتعلق بأمور خلافية اجتهادية أو إجرائية تنظيمية، وهذا شيء مفيد جدًّا للمصلحة العامة ومفيد لمن بيدهم السلطة أيضًا.

الخلاصة:

لكل هذا فإن علينا دائمًا أن نبحث عما يجمعنا، وليس عما يفرقنا، وأن ندرك على نحو جيد أن العدل ومنح الناس حقوقهم وحفظ كراماتهم من الأمور الجوهرية في استقرار المجتمعات، وفي تقدمها.

١٠ - من أجل الشفافية:

معظم دول العالم مهتمَّة اليوم بمسألة الشفافية ومكافحة الفساد المالي والإداري، وذلك لوجود شعور قوي بأن الفساد يهدد ثروات الدول؛ ولا سيما الدول النامية، كما أنه يشوِّه السياسات التنموية، ويُضعف الثقة بالمؤسسات العامة، وهو إلى جانب ذلك يلوِّث بيئات الأعمال، فتصبح أقل قدرة على جذب الاستثمارات الأجنبية. والحقيقة أن السنوات العشر الأخيرة شهدت ما يشبه الطفرة في هذا الموضوع؛ حيث صدرت قرارات كثيرة في كثير من الدول العربية والإسلامية بشأن الشفافية ومكافحة الفساد، وصار هناك نوع من التنافس بين بعض الدول حول تحسين مركزها في التقرير السنوي الذي تصدره منظمة الشفافية الدولية المتمركزة في برلين، كما أن تناول وسائل الإعلام لمسائل الفساد صار أكثر جرأة وأوسع نطاقًا، وهذه كلها مؤشرات إيجابية، **لكن مع كل هذا فإن معظم الدول الإسلامية تعاني من درجة منخفضة في الشفافية ودرجة عالية من انتشار الفساد، مما يعني أن الطريق نحو وضعية تسودها النزاهة ما زال طويلًا!!** **وهذه بعض الملاحظات حول هذه المسألة المهمة:**

أ - ما معنى الشفافية ؟

الشفافية تعني الوضوح والتصرف بطريقة مكشوفة، كما تعني إتاحة المعلومات المتعلقة بالمؤسسة أو الجهة أو الدائرة الحكومية... لمن له علاقة بها أو له مصلحة في الاطلاع عليها. الشفافية تقوم على التدفق الحر للمعلومات وعلى حرص أصحاب القرار على تسهيل معرفة وسائل الإعلام وأجهزة الرقابة والتفتيش والأجهزة القضائية والرأي العام... بأوضاع مؤسساتهم وحيثية القرارات التي اتخذوها وأسبابها، وما ترتب عليها من نتائج، وما أحدثته من تداعيات.

ب - الشفافية مبدأ إسلامي:

إن سيرة نبينا ﷺ قبل البعثة وبعدها نموذج لسيرة القائد الفذِّ في وضوح كل تفاصيلها، وحين تطالعها تجد بساطة متناهية في كل ما يتعلق بحياته الشخصية، وبلغ الأمر في شفافية حياته الخاصة أن خادمه في فترة من الفترات كان طفلًا يهوديًا، مع أن اليهود كانوا من ألدِّ أعدائه، بل إن شفافيته ﷺ بلغت به أن يفسِّر أمورًا لم يكن مطالَبًا بتفسيرها، وهذا ما نجده واضحًا فيما ورد من أن زوجه صفية جاءت إليه تزوره ليلًا في اعتكافه في المسجد في

العشر الأواخر من رمضان، فتحدثت عنده ساعة، ثم قامت فقام رسول اللَّه ﷺ يشيعها، فلما كانت عند باب أم سلمة مرَّ رجلان من الأنصار، فسلَّما على رسول اللَّه، وأسرعا في مشيتهما، واستحييا من النبي ﷺ فقال لهما: « **على رسلكما (أي لا تسرعا) إنها صفية** »، فقالا: سبحان اللَّه يا رسول اللَّه! فقال: « **إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا** »[1]. وهذا لا يحتاج إلى تعليق!

وهذا عمر بن الخطاب يزيل شك أحد الصحابة- رضي اللَّه عنهم أجمعين - حول سيرته المالية على نحو ما ذُكِر من أنه أتت ثياب من اليمن فوزَّعها أمير المؤمنين ﷺ على الناس، لكل مسلم ثوب، وبقي ثوب لأمير المؤمنين، فلبسه، فوصل الثوب إلى ركبتيه - كان عمر رجلًا طويلًا - فقال لابنه عبد اللَّه: أعطني ثوبك الذي هو حصتك، فأعطاه إياه، فوصل عمر ثوبه بثوب ابنه عبد اللَّه، وصعد المنبر يخطب في الناس، فحمد اللَّه، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس اسمعوا لما سأحدثكم عنه: فقال سلمان الفارسي: لا نسمع ولا نطيع! فقال عمر: ولِمَ؟ فردَّ سلمان: لأنك تلبس ثوبين وتُلبسنا ثوبًا واحدًا. فقال عمر: يا عبد اللَّه قم فأجب، فقام عبد اللَّه والناس سكوت فقال: إن أبي رجل طويل لا يكفيه ثوب، فأعطيته ثوبي، فوصله بثوبه، ولبسهما. فقال سلمان: يا أمير المؤمنين الآن قل نسمع، ومُر تُطَع.

إن هذه الواقعة تعبِّر عن سهولة تواصل الناس مع أمرائهم، وتعبر عن سهولة وصول الرعية إلى المعلومة، وإلى التفسير الذي يحتاجون إليه. وأنا أود أن يقدِّم الصحويون نموذجًا متألقًا في الشفافية من خلال سيرتهم الشخصية، ومن خلال مؤسساتهم المختلفة، أتمنى أن يقدم كل صحوي يتقلَّد منصبًا رفيعًا بيانًا بممتلكاته المنقولة وغير المنقولة، وأن يقدِّم بيانًا آخر بها عند تركه للمنصب، وأتمنى أن تكون المؤسسات التي يديرها صحويون قدوة لغيرها في الوضوح والشفافية والنزاهة، ولا ينبغي أن يقتصر هذا على الوظائف والمؤسسات التجارية، بل ينبغي أن يظهر في الأعمال الدعوية أيضًا، وقد كنت ذكرت أن معظم الصحويين لا يميلون إلى الحديث عن المشكلات التي واجهت مؤسساتهم الدعوية وجماعاتهم، ولا يمارسون التحليل والتعليل عند الحديث عن مسيرتهم الدعوية، وهذا يشكِّل أزمة لمن يحاول فهمهم والكتابة عنهم بل لمن يريد أن يتعامل معهم!

---

(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

ج - تدعيم الشفافية:

الفساد موجود في كل المجتمعات بِنِسَب مختلفة، وهناك شعور عام في معظم بلاد العالم بضرورة محاصرة الفساد والمفسدين، وينبغي أن ننظر إلى نقص الشفافية وما يلازمه من الفساد على أنه فشل المؤسسات في تنظيم وضعها على نحو جيد وفي ضبطها قانونيًّا ومحاسبيًّا قبل أن يكون نقصًا في الوازع الديني أو نقصًا في التربية والاستقامة لدى بعض الأفراد

السؤال الذي يطرح نفسه: هو ما الذي يجب القيام به من أجل تدعيم الشفافية وجعلها جزءًا من منهجنا في حياتنا العامة؟

لعلي في مقاربة هذا الجواب أوضِّح الآتي:

١ - التكتم والعمل على أن يكون كل شيء مبهمًا جزء من ثقافتنا، ومنا من يفعل ذلك خوفًا من العين أو الحسد، ومن يفعله خوفًا من كيد الآخرين أو تداول سيرته وأوضاعه على ألسنة الناس... ويبدو أن تشجيع البوح والتحدث عن الخبرات الشخصية والأوضاع الخاصة والعامة يظل من مسؤولية قيادات المجتمع ومثقفيه؛ لأن الناس يقتدون بهم، وإن كتابة السير الذاتية، بالإضافة إلى التحدث إلى وسائل الإعلام والتفاعل مع تساؤلات الإعلاميين من الأمور التي تساعد على ذلك.

٢ - كلما كانت المؤسسات والجهات الحكومية المختلفة أفضل تنظيمًا صارت الشفافية أعلى، وتراجع الهدر والفساد، وفي هذا السياق فإن المهم أن يكون هناك تحفيز على التنظيم الجيد للقطاع العام والخاص، وإن من جملة ذلك وجود رؤية ورسالة وسياسات واضحة لجميع المؤسسات الخاصة والعامة، وأن يكون لديها مواقع على (النت) تُفصح فيها عن أنشطتها وعقودها وخططها المستقبلية وكل ما يجعلها أكثر وضوحًا، وكل ما يجعل معرفة الناس بها وبعلاقاتها ومعاملاتها أفضل.

٣ - يجب أن يشعر جميع موظفي الحكومة والقطاع الخاص أنهم قد يتعرضون للمساءلة الجادة والدقيقة في أي وقت، وينبغي أن يكون هناك قانون يُلزم الجميع بالردِّ على التساؤلات التي تثيرها الصحافة والرد على التهم التي تُوجَّه إلى أيٍّ منهم من أي جهة كانت، وهذا يعتمد في الحقيقة على نشاط الهيئات الرقابية، وعلى حيوية المجتمع في متابعة مصالحه وحماية مكتسباته، وإن عدم اهتمام الناس بإصلاح مجتمعاتهم وتتبع

المفسدين وتوثيق إساءاتهم يشجِّع على انتشار الفساد؛ ولهذا فإن صلاح المجتمع وطهارته واستقامة أموره، مسؤولية عامة، لا يكاد يُستثنى منها أحد، والمشكل أن معظم الناس لا يعرفون شيئًا عن إساءة استغلال السلطة، ولا عن الممارسات الإدارية الخاطئة، كما أنهم لا يملكون الثقافة التي تمكنهم من الإسهام في مكافحة الفساد، وهذا أحد ضرائب التخلف.

٤ - إن (الأتمتة) تساعد كثيرًا على تقليل الفساد؛ حيث يتراجع دور الموظف في الكثير من الإجراءات، ولعل عدم تسلم الموظف للمال بسبب السداد الإلكتروني للرسوم والمخالفات وأجور الخدمات... من الفوائد الظاهرة للأتمتة في هذا!

٥ - يجب أن تقدم كل مؤسسة ومنظمة وهيئة تعهدًا مكتوبًا بإتاحة كل ما لديها من معلومات عن عملياتها وعلاقاتها لكل من له علاقة بها من العملاء ورجال الإعلام والقضاء والباحثين مما لا يؤثر على مصالحها وخططها المستقبلية.

٦ - أعتقد أن كل بلد إسلامي في حاجة إلى هيئة وطنية للنزاهة والشفافية ومكافحة الفساد، ويجب أن تكون صلاحيات هذه الهيئة واسعة جدًّا، وأن تُقدَّم لها كل التسهيلات الممكنة والحقيقة أن كثيرًا من الدول العربية والإسلامية قد أنشأت هيئات ولجانًا وطنية للنزاهة، لكن تأثيرها في الحد من الفساد ما زال محدودًا، وربما كان السبب في ذلك محدودية ما تملكه من تفويض وضآلة ما لديها من إمكانات.

٧ - لا بد من تعزيز القيم الدينية والأخلاقية الفاضلة؛ حيث إن ضعف الإيمان وضعف الضمير والرقابة الداخلية من الأسباب الأساسية في جعل الناس يقعون في المحرمات والشبهات دون خوف أو نظر في العواقب، والحقيقة أن الأسرة مسؤولة مسؤوليةً كبيرة عن بناء الوازع الداخلي وإيقاظ شعور الأبناء حيال الحلال والحرام في مسائل الرزق والكسب والتعامل المادي عامة، وأعتقد أن لنا أن نعوِّل على الأمهات والزوجات في هذا الأمر؛ وذلك لسببين:

الأول: هو أنهن يقمن بمعظم العبء التربوي في البيوت وتأثيرهن في الأبناء أعظم من تأثير الآباء.

الثاني: أن حساسية المرأة نحو الكسب الحرام أفضل من حساسية الرجل في أكثر الأحيان، وكم رأينا من الزوجات الفاضلات اللواتي وقفن سدًّا منيعًا في وجه الكسب غير المشروع الذي كان يستسهله الأزواج، وينغمسون فيه

وعلى الدعاة والوعاظ وطلاب العلم، وخطباء المنابر أن يركزوا في أحاديثهم على تعليم الناس الأحكام الفقهية عامة، وما يتعلق بالمعاملات خاصة؛ لأن كثيرًا من الناس لا يملكون أي ثقافة شرعية في هذا الشأن، وحبذا لو كان لدينا سلاسل فقهية مبسَّطة حول قضايا الربا والعقود والعلاقات المالية عامة، فالناس في أمسِّ الحاجة إلى هذا!

٨ - لبيئة العمل تأثير كبير في استقامة الموظفين وانحرافهم، **وإن من سمات بيئات العمل الجيدة الآتي**:

أ - شعور العاملين بالرضا عن أوضاعهم الوظيفية، وذلك على صعيد الأجور والمرتبات والمكافآت وعلى صعيد التعامل الأدبي والاجتماعي، ونحن نعرف أن كثيرًا من الفاسدين يعملون في بيئات جيدة، وتتمتع بكل المواصفات المطلوبة، كما أن كثيرًا من المرتشين هم من أصحاب الثروات، ولهذا فإن الحديث عن البيئة وتحفيزها على الاستقامة ليس صحيحًا.

وأنا أقول: إن الذين يخرقون النظم القانونية والمالية في البيئات السيئة أضعاف هؤلاء، ونحن حين نتحدث عن البيئة الجيدة لا نقصد أن الإنسان حين ينال كل حقوقه يصبح صالحًا، وإنما نقصد أن البيئة الجيدة تقلل مسوغات الفساد، كما تقلل فرص حدوثه.

ب - الإهمال وضعف الرقابة سببان جوهريان لحدوث الفساد؛ ولهذا فإن المتابعة الموضوعية من قبل المُدراء والرؤساء ذات تأثير كبير في نزاهة الموظفين واستقامتهم، والمشكل هنا أن بعض المدراء يتواطؤون مع بعض موظفيهم، ومن هنا فإنه قد ورد ما يؤكد تأكيدًا عظيمًا على صلاح من يتولى مناصب قيادية أو إدارية والتحذير الشديد من التساهل في ذلك أو تجاهله، على نحو ما نجده في قوله ﷺ: « **من قلَّد رجلًا عملًا على عصابة (جماعة) وهو يجد في تلك العصابة أرضى للَّه منه فقد خان اللَّه ورسوله وخان المؤمنين** »(١).

ج - لو نظرنا إلى المؤسسات الفاشلة فإننا نجد أنها مشحونة بالخلافات والتحزبات والمؤامرات، ونجد أنها ممزقة من الداخل؛ حيث ينتقد كل موظف رؤساءه وزملاءه، ويتلقى النقد منهم. في جوٍّ كهذا يسهل انتشار الفساد، وتفقد العناصر الصالحة هيبتها وتأثيرها؛ ولهذا فإن بث الروح الجماعية في المؤسسات الحكومية والأهلية على درجة عالية من الأهمية، وإن تناول الطعام والرحلات وممارسة الرياضة والتدريب... كل ذلك حين يتم

---

(١) رواه الحاكم وصححه، وهناك من يقول: إنه من كلام عمر بن الخطاب.

بصورة جماعية يعزز الرابطة النفسية والروحية، وتصبح بذلك بيئة العمل أقرب إلى الصلاح.

٩ - مهما صار التفكك الاجتماعي مستفحلًا، فإن الناس يظلون حريصين على سمعتهم وحذرين من أن يُتَّهموا بالسرقة أو الرشوة أو الاحتيال... ولهذا فإن من المهم أن تتاح الفرصة لوسائل الإعلام كي تُسهم في كشف الفساد والمفسدين. لا شك أنه قد يُتهم بعض الأبرياء، وقد تشوَّه سمعة إنسان بسبب خطأ مقصود أو غير مقصود، كل هذا وارد، لكن ميزات حرية النشر أكبر بكثير من هذه المحاذير، ويجب أن يكون القضاء حاسمًا ونشطًا في الفصل في الخصومات حتى ينال الذي يتهم الناس، بغير علم وبغير دليل العقوبة المناسبة. وإذا تأملنا في أحوال العالم المعاصر، فإننا نجد أن منح وسائل الإعلام حرية النشر لا يقضي على الفساد، لكنه يُلجِئ المفسدين إلى أضيق الطرق، وبهذا تتراجع نسبة الفساد، وتختفي صور الفساد الفج والمكشوف.

١٠ - هناك ظروف محددة تساعد على انتشار الفساد أكثر فأكثر، **ومن تلك الظروف: ثلاثة ظروف** أساسية:

أ - مرور البلد بمرحلة حرب أو بأحداث عنف كبيرة تؤدي إلى اضطراب النظام العام، ويؤيد هذا أن أكثر الدول فسادًا حسب تقرير منظمة الشفافية الدولية دول محرومة من السلام؛ مثل: الصومال وأفغانستان والعراق.

ب - النمو السريع والتحديث عالي الوتيرة من عوامل انتشار الفساد؛ حيث يفقد المجتمع توازنه الداخلي، فتتآكل بعض القيم، وتبرز مصادر جديدة للدخل وتلوح فرص للكسب وبناء النفوذ على نحو غير مألوف، ولدينا شواهد كثيرة على هذا.

ج - **حجم الدولة؛ إذ إن من الواضح أنه كلما زاد عدد أفراد الشعب صارت إمكانية الفساد أكبر، وهذا واضح جدًّا، في تقرير منظمة الشفافية الدولية؛ حيث إن الدول العشر الأشد شفافية دول صغيرة، كما هو الشأن في فنلندا وإيسلندا وسنغافورة والنرويج والسويد والدنمارك. ويبدو أن الناس حين يكثرون في بلد تصبح سيطرة الحكومة عليهم أصعب، كما أن انتقال المبادئ والآداب من جيل إلى جيل يصبح أضعف بسبب إرهاق متطلبات المعيشة**

إن الشفافية مطلب خلقي واقتصادي، كما أنها أداة من أدوات التنمية الجيدة؛ ولهذا فإن من المهم الالتزام بها في كل ميادين الحياة.

الخاتِمَة

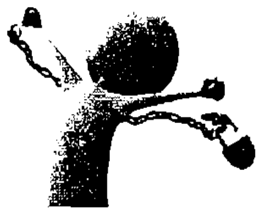
الحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات، **وبعد:**

فإن ظاهرة الصحوة ظاهرة كبرى تضم عشرات بل مئات الملايين من المسلمين، ومن الطبيعي في حالة كهذه أن يكون ما نقوله دقيقًا وموضوعيًّا بالنسبة إلى تيار أو جماعة أو شريحة، وأن يكون دون ذلك بالنسبة إلى تيار وشريحة أخرى، وهذا من جملة القصور المستولي على جملة البشر، ثم إن ضخامة ظاهرة الصحوة تجعل وقوع الأخطاء لدى من ينتسب إليها أمرًا لا مفرَّ منه، فالصحويون لا يدرسون في جامعة واحدة، أو يتتلمذون على شيخ واحد، كما أن المسافة التي تفصل بين صحوي وصحوي كثيرًا ما تكون طويلة، كتلك المسافة التي تفصل بين السابق بالخيرات والظالم لنفسه؛ ولهذا فلا ينبغي أن نجزع من كثرة الأخطاء وكثرة الانتقادات التي نسوقها، أو تلك التي تفد إلينا من هنا وهناك، بل علينا أن نجزع من الاستمرار في الخطأ. **لا أخفي أنني كنت قلقًا خلال كتابة هذا الكتاب، فأنا أود أن أنصح للصحوة، وأن أحاول الإسهام في جعلها على حال أفضل، وفي نفس الوقت أحاول أن لا أحطم المعنويات، وأن لا أبذر بذور اليأس والإحباط؛ ولهذا فإني أرجو أن يُفهَم النقد الموجَّه للصحوة على أنه دليل عظمتها وأهميتها؛ لأن الظواهر والأعمال التافهة أقل من أن يتوقف عندها أحد**

أخيرًا فإني أود أن أنبهإلى أنني لم أستطع أن أقول كل ما ينبغي أن أقوله، وذلك لعدد من الأسباب، لكن حاولت أن لا أقول أي شيء لا أعتقده، وأرجو أن أكون قد وُفِّقت في ذلك. وأنا أعرف أن بعض الناس لا يرتاحون إلى الخطاب الهادئ؛ لأنهم يظنون أن الخطاب كلما كان حادًّا وصريحًا ومباشرًا كان تأثيره أعظم، وهذا قد يكون صحيحًا في بعض الحالات، لكن في مقام التنظير وبناء منهجيات التفكير فإن العبارات الرزينة والمتزنة تكون أكثر فاعلية على المدى البعيد.

وإني في خاتمة المطاف لأسأل اللّـه تعالى أن ينفع إخواني بهذا الكتاب وأن يجعله لي ذخرًا يوم الدين إنه سميع مجيب.

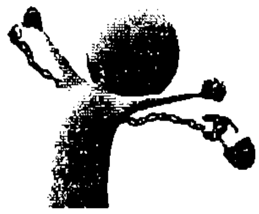
أ.د. عبد الكريم بكار



مراجع مختارة

- الإخوان المسلمون والعلاقة بالسلطة، محمد بن المختار الشنقيطي (مقال منشور على الإنترنت).
- اقتصاد المعرفة، محمود حواس (بحث منشور على الإنترنت).
- تجديد الخطاب الإسلامي: الرؤى والمضامين، عبد الكريم بكار، الرياض - مكتبة العبيكان، طبعة أولى.
- تفسير غير عربي للإسلام (مختارات من كلام علي عزت بيكوفتش) رشا باكير، دمشق - دار الناقد الثقافي عام (٢٠١٠م).
- ثقافة الإنجاز، محمد يتيم (مقال منشور على الإنترنت).
- دعوة إلى حلف فضول جديد، فهمي هويدي (مقال منشور على الإنترنت).
- سبع قواعد في التعامل مع المخالف، هاني بن عبد اللّـه الجبير (مقال منشور على الإنترنت).
- السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، يوسف القرضاوي، مصر - مكتبة وهبة، ط ثانية، عام (١٤٢٦م).
- الصحوة الإسلامية في ميزان العقل، فؤاد زكريا، الإسكندرية -دار الوفاء، ط أولى، عام (٢٠٠٦م).
- غياث الأمم في التياث الظلم للجويني، تحقيق عبد العظيم الديب.
- الفساد في العالم العربي، إبراهيم غرايبة (مقال منشور على الإنترنت).
- فيما قبل عصر النهضة، الطيب أبو عزة (مقال منشور على الإنترنت).
- في أصل الممانعة ونظامها، ياسين الحاج صالح (مقال منشور على الإنترنت).
- كيف نواجه التطرف؟ محمد بن سليمان أبو رمان (مقال منشور على الإنترنت).
- مستقبل الصحوة الإسلامية، فتحي يكن (مقال منشور على الإنترنت).
- مسيرة الصحوة الإسلامية، نقد وتقويم: راشد الغنوشي، دمشق -مركز الراية، عام (٢٠٠٥م).
- المصالحة والتسامح، تأليف جاك داريدا وآخرين، ترجمة حسن العمراني، دار توبقال للنشر، ط أولى، عام (٢٠٠٥م).
- مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، عبد الكريم بكار، دمشق، ط أولى.
- ميثاق الشرف الدعوي، هشام الطالب (بحث غير منشور).
- ندوة جريدة الشرق الأوسط حول اقتصاديات التعليم في المملكة العربية السعودية، المنشورة بتاريخ (١٢/ ٤/ ١٤٣٢هـ).
- نقد السياسة: الدين والدولة، برهان غليون، بيروت - المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ثانية، عام (١٩٩٣م).
- وَهمُ الصحوة الإسلامية، ماهر بن محمود عبد العظيم (مقال منشور على الإنترنت).

* * *
* *
*



فهرس الأفكار والمقولات العامة

الفكرة / المقولة: الصفحة

* * *
* *
*

السِّيَرةُ الذَّاتِيَّةُ لِلمُؤَلِّف



أ. د. عبد الكريم بكار.

يُعدُّ د.عبد الكريم بن محمد الحسن بكار أحد المؤلفين البارزين في مجالات التربية والفكر الإسلامي؛ حيث يسعى إلى تقديم طرح مؤصل ومجدد لمختلف القضايا ذات العلاقة بالحضارة الإسلامية، وقضايا النهضة والفكر والتربية، والعمل الدعوي.

وللدكتور بكار حوالي ثلاثين كتابًا في هذا المجال؛ لقي الكثير منها رواجًا واسعًا في مختلف دول العالم العربي، كما قدَّم**د. بكار** للمكتبة الصوتية أكثر من مائة ساعة صوتية مسجلة ومنشورة في مكتبات التسجيلات الصوتية.

ويحرص**د. بكار** على أن يقدم رؤاه الفكرية والتربوية من خلال مشاركته الواسعة في مختلف الصحف، والمجلات العربية المتخصصة والعامة؛ حيث يكتب**د. بكار** مقالات دورية في مجلة(البيان) اللندنية، ومجلة(الإسلام اليوم) الشهرية، ومجلة(مهارتي) الصادرة عن جامعة الملك سعود، وموقع(الإسلام اليوم) ، كما يشارك باستمرار منذ أكثر من عشرين سنة بمقالاته ودراساته في عدد من المجلات الدورية الأخرى.

بالإضافة إلى ذلك،**للدكتور بكار** نشاط مكثف على صعيد المحاضرات، والندوات الفكرية والثقافية والدورات التدريبية، وشارك في المئات منها في المملكة العربية السعودية والكويت وقطر والبحرين وتركيا ولبنان ومصر والأردن وماليزيا والسودان. كما يقدم حاليًّا برنامجًا أسبوعيًّا في قناة(دليل) الإسلامية باسم:« آفاق حضارية» ، وبرنامجًا شهريًّا بقناة(المجد) باسم:« معالي» ، وكان د. بكار قد قدم برنامجًا تلفزيونيًّا أسبوعيًّا في قناة(المجد) باسم:« دروب النهضة» لمدة عامين، وبرنامجًا إذاعيًّا أسبوعيًّا باسم:« بناء العقل في القرآن الكريم» ، وبرنامجًا إذاعيًّا أسبوعيًّا آخر باسم:« العلاقات الإنسانية في المجتمع الإسلامي» استمرًّا لمدة سنتين بإذاعة القرآن الكريم بالرياض؛ بالإضافة لاستضافته في برامج عديدة على قناة(الرسالة) ، وقناة(اقرأ) ، وقناة(الناس) والتلفزيون السعودي.

من جهة أخرى قاد**د. عبد الكريم بكار** مسيرة أكاديمية طويلة، دامت(٢٦ عامًا) بدأت عام(١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في القصيم(السعودية) ، لينتقل بعدها إلى جامعة الملك خالد في أبها في عام(١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م) ، حصل خلالها على درجة الأستاذية في عام(١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) ، وليبقى فيها حتى استقال منها عام(١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م) ؛ ليتفرغ للتأليف والعمل الثقافي والفكري؛ حيث يقيم في العاصمة السعودية الرياض.

وتركزت المسيرة الأكاديمية للدكتور بكار على تدريس اللُّغويات، والتي شملت مواد المعاجم اللُّغوية، دلالة الألفاظ، الأصوات اللُّغوية، اللهجات العربية، القراءات القرآنية واللهجات، النحو، الصرف، المدارس النحوية، وتاريخ النحو. كما قدم**د. بكار** خلال تلك الفترة عددًا من الأبحاث والكتب المتخصصة والتعليمية في مجال اللُّغويات، وأسهم في النشاط الأكاديمي للجامعات التي عمل بها من خلال رئاسته لعدد كبير من اللِّجان العلمية، ورئاسته لقسم النحو والصرف وفقه اللغة لعدة سنوات، ومساهمته في وضع المناهج، والإشراف على البحوث، وتحكيم الدراسات العلمية.

حصل**د. عبد الكريم بكار** على البكالوريوس من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر (١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م) ، وعلى الماجستير في عام(١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م) ، والدكتوراه في عام(١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م) من قسم أصول اللغة بالكلية نفسها بجامعة الأزهر، وكان عنوان رسالة الدكتوراه:« الأصوات واللهجات في قراءة الكسائي» .

و د. بكار عضو في المجلس التأسيسي للهيئة العالمية للإعلام الإسلامي التابعة لرابطة العالم الإسلامي(الرياض) ، وعضو الهيئة الاستشارية بمجلة(الإسلام اليوم) (الرياض) ، وعضو الهيئة التأسيسية لقناة(دليل) ، وعضو في مجلس الأمناء لقناة(سنا) الفضائية(عمان) .

وفيما يلي قائمة بالكتب والدراسات الأكاديمية المتخصصة:

١ - أصول توجيه القراءات ومذاهب النحويين فيها حتى نهاية القرن الرابع الهجري، بحث غير منشور، (١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

٢ - ابن مجاهد شيخ قراء بغداد، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالقصيم،(١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م) .

٣ - تحقيق كتاب: « القواعد والإشارات في أصول القراءات » ، للقاضي أحمد بن عمر الحموي، دار القلم، دمشق،(١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) .

٤ - الصفوة من القواعد الإعرابية، دار القلم، دمشق،(١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) .

٥ - تحقيق كتاب: « رد الانتقاد على الشافعي في اللغة » للإمام البيهقي، دار البخاري، بريدة،(١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م) .

٦ - أثر القراءات السبع في تطور التفكير اللغوي، دار القلم، دمشق،(١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م) .

٧ - المهدوي ومنهجه في كتابه الموضح، دار القلم، دمشق،(١٤١١هـ/ ١٩٩١م) .

٨ - ابن عباس مؤسس علوم العربية، دار السوادي، جدة،(١٤١١هـ/ ١٩٩١م) .

٩ - دراسة لإنشاء مركز لتعليم اللغة العربية، كلية اللغة العربية بأبها،(١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م) .

أمّا الكتب التربوية والفكرية الصادرة للدكتور بكار؛ فمنها الكتب التالية:

١ - فصول في التفكير الموضوعي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، (١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م) .

٢ - نحو فهم أعمق للواقع الإسلامي، دار المسلم، الرياض،(١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م) .

٣ - من أجل انطلاقة حضارية شاملة، دار المسلم، الرياض،(١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م) .

٤ - مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، دار المسلم، الرياض،(١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م) .

٥ - مدخل إلى التنمية المتكاملة، دار المسلم، الرياض،(١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م) .

٦ - من أجل شباب جديد، بحث منشور في وقائع المؤتمر السنوي للندوة العالمية للشباب الإسلامي، عمّان، (١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م) .

٧ - حول التربية والتعليم، دار المسلم، الرياض،(١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) .

٨ - العولمة، دار الأعلام، عمّان،(١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م) .

٩ - القراءة المثمرة، دار القلم، دمشق،(١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م) .

١٠ - العيش في الزمان الصعب، دار القلم، دمشق،(١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م) .

* * *

رقم الإيداع

٩٢٨٣/ ٢٠١١

الترقيم الدولي I.S.B.N

978 - 977 - 5059 - 29 - 4



إن الذي دعاني إلى كتابة هذا الكتاب العديدُ من الأمور؛ لعل من أهمها:

١- طرح رؤى وأفكار ومفاهيم جديدة تساعد الصحوة على أن تكون أكثر رسوخًا وتأثيرًا في حياة العالم أجمع.

٢- مراجعة بعض الأفكار والاجتهادات والسلوكيات التي نعتقد أنها تحتاج إلى تطوير بما يتناسب مع رؤانا الجديدة ومع الظروف والأوضاع العالمية الماثلة اليوم.

٣- تسليط الضوء على الأخطاء الفادحة التي وقع فيها بعض الصحويين بقطع النظر عن نواياهم ومقاصدهم.

٤- محاورة خصوم الصحوة والمختلفين معها في بعض مقولاتهم، ومحاولة تكوين أرضية مشتركة يقف عليها الجميع.

الناشر
دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص.ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٤٠٥٤٦٤٢
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (+٢٠٢)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (+٢٠٣)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

ISBN: 978-977-5059-29-1
9 789775 059291

حصريات

مجلة الابتسامة

www.ibtesama.com